رفائيل سباتيني

قلبان في عاصفة

رواية

ترجمة

محمد أبو طائلة

تقديم ومراجعة

د. عزالدين جلال

الكتاب: قلبان في عاصفة (رواية)

الكاتب: رفائيل سباتيني

ترجمة: محمد أبو طائلة

تقديم ومراجعة: د. عز الدين جلال

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

سباتيني، رفائيل

قلبان في عاصفة (رواية) / رفائيل سباتيني، ترجمة: محمد أبو طائلة،

تقديم ومراجعة: د. عز الدين جلال

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ١- ٣٣ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤١٠٥ / ٢٠٢٠

قلبان في عاصفة

رواية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

آخر الرومانسيين العظماء

"قلبان في العاصفة" تعد واحدة من أهم وأمتع روايات "رافائيل ساباتيني" الذي وصف بأنه آخر الرومانسيين العظماء، وعنوان "قلبان في العاصفة" ليس هو العنوان الأصلي للرواية، فالكاتب أصدر طبعتها الأولى في عام **١٩٣٩** بعنوان "سيف الإسلام" وهو اللقب الذي عُرِفَ به ياقوت الأناضولي وكان قائدًا بحريًا تابعًا لخير الدين بربروسا.

وقد فضل مترجم الرواية حينما فكر في إتاحتها للقارئ العربي في مفتتح خمسينيات القرن العشرين تغيير العنوان؛ لأن بربروسا نفسه لم يكن من شخصيات الرواية، ولأن العنوان الأصلي قد يحدث خلطًا والتباسًا عند القارئ العربي المسلم، فيظن نفسه إزاء رواية عن التاريخ الإسلامي، والرواية ليست كذلك، فقد كانت معنية بتناول المعارك التي وقعت على شواطئ البندقية وشمال أفريقية بين خير الدين بربروسا ومساعده ياقوت، والقائدين الإيطاليين أندريا دوريا وبروسبيرو أدورنو، وتتطرق إلى ما كان للحب والحرب من معارك كان النصر الأعظم فيها للحب، لذلك أسماها المترجم "قلبان في العاصفة".

هكذا منحهتا الترجمة عنوانًا يعبر عن اتجاهها الرومانسي، وعن انتصارها للحب، كما أن العنوان يشبه القلبين بالسفينة التي تواجه عاصفة

أثناء إبحارها، وذلك أيضًا يتماشى مع مضمون الرواية التي تجري كل أحداثها في البحر وفوق الأمواج، وهي كمعظم روايات ساباتيني التي بلغت نحو ٣٤ رواية، عادة ما تكون خيالية في إطار تاريخي، تكون معنية بتصوير المؤامرات السياسية، وتنتصر لقيم الحب والفروسية والشرف، بينما يستمتع القارئ بالأحداث المشوقة وبالحوار الذكي والشخصيات المرسومة ببراعة وتسلسلات الحركة كأفلام حية ومثيرة، وربما لذلك تحولت أغلب رواياته إلى أفلام سينمائية.

لن نقوم بتلخيص الرواية وحرق أحداثها، فذلك ليس هدف المقدمة، لكن سنعطي نبذة وافية عن كاتب كبير يتعرض للنسيان، ليس فقط بالنسبة للقارئ العربي، بل حتى بالنسبة لمواطنيه من القراء الإيطاليين، فساباتيني الذي كان واحدا من أهم كتاب العالم في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية، بدأ يعاني التهميش تدريجيا حتى بات الاهتمام به مقصورا على دائرة ضيقة من دارسي الأدب، أو من محبي الروايات التي تجمع بين صفتي الرومانسية والتاريخية، فلعل إعادة إصدار الرواية يكون سببا في نفض غبار النسيان عن كاتب كبير.

مؤثرات النشأة الأولى

وُلِدَ رافائيل ساباتيني في **٢٩** أبريل **١٨٧٥**، في إيطاليا عام **١٨٧٥** لأم إنجليزية وأب إيطالي، وكلاهما من مطربي الأوبرا المشهورين في ذلك الوقت. وكان مولده في مدينة جيسي، وهي من المدن الصغيرة بإيطاليا، تقع بالقرب من البحر الأدرياتيكي وميناء أنكونا، وهي اليوم مجرد ضاحية

من ضواحي مدينة أنكونا الساحلية. ويقال أن رافائيل كان ابنا غير شرعي، فمطربي الأوبرا الشهيرين جمعهما الحب لكن لم يجمعهما الزواج، وبالرغم من ذلك كانت تعرف باسم السيدة ساباتيني. ويرى نقاده أن فكرة عدم الشرعية تمثل ركنا أصيلا في أدب ساباتيني لذلك السبب.

كان والدا ساباتيني من مطربي الأوبرا المشهورين في عصرهما، وكانوا من البشر الذين أدمنوا السفر حول العالم. التقيا باعتبارهما من فناني الأوبرا، والدته هي آنا ترافورد، سيدة إنجليزية من ليفربول، وكانت عازفة بيانو ومغنية. أما فينسنزو ساباتيني فكان إيطاليًا. لم تكن ولادة رافائيل في جيسي مصادفة، فأهل فينسنزو ساباتيني يقيمون بها، وقد فاجأت آلام المخاض السيدة آنا ترافورد حينما كانت بصحبة فينسنزو وهو يزور أهله.

ونظرًا لأن والدا رافائيل كانا لا يزالان يؤدّيان عندما كان رافائيل طفلًا رضيعًا، فقد وجدا أن الحياة المتجولة لمغني الأوبرا لم تكن مناسبة للطفل، فأرسلوه إلى والدي آنا في انجلترا ليقوما برعايته، وهكذا نشأ رافائيل في قرية صغيرة بالقرب من ليفربول، لذلك أجاد الطفل اللغتين الإيطالية والإنجليزية، وهو ما من شأنه التأثير بقوة في اتجاه حياته في المستقبل.

ومنذ طفولته المبكرة، شغف ساباتيني بالقراءة بنهم. وقد ذكر ذات مرة أن السبب وراء كتابته باللغة الإنجليزية هو أن أفضل القصص التي قرأها كانت مكتوبة باللغة الإنجليزية. تعلق قلب رافائيل بالطبيعة الخلابة، وأحب الريف في غرب إنجلترا. وفيما بعد دفعه ذلك التعلق إلى أن يذهب كثيرا إلى الحدود بين ويلز وبريطانيا، حيث المناطق الريفية التي تشبه البيئة

التي أحبها، في الخمسينيات من عمره، استقر هناك بشكل دائم .

في ١٨٨٢ اعتزل والداه الغناء الأوبرالي، وتركا المسرح ليعملا كمدرسين للموسيقى والغناء الأوبراليين، لذلك بدأت حياتهما تعرف الاستقرار نسبيا، فاستعادا طفلهما، ومن الأحداث التي أثرت في مستقبل رافائيل بعد ذلك أن والديه ذهبا إلى بورتو بالبرتغال بدعوة من ملكها لافتتاح مدرسة هناك لتعليم الموسيقى والغناء الأوبراليين، وهكذا تمكن رافائيل من إضافة البرتغالية كلغة ثالثة إلى ذخيرته اللغوية. وهناك التحق بمدرسة كاثوليكية.

وربما كانت هذه بداية مشاعر ساباتيني المستمرة والتي استمرت مدى الحياة في المطالبة بالعدالة، سواء كان ذلك بالنسبة لروايته "سيزار بورغيا" أو "الكابتن بلود"، والرغبة في التسامح، وابرزت في روايتيه "كلاب الله" و"سيف الإسلام". وبعد سنوات عاد والداه إلى إيطاليا، للعمل في دار الأوبرا الشهيرة بميلان. فتم إرسال رافائيل إلى مدرسة في سويسرا. وهناك تعلم اللغة الرابعة وهي الفرنسية، وقد ذكر رافائيل فيما بعد أن محاولاته الأولى مع الكتابة بدأت في هذه المدرسة وباللغة الفرنسية .

قضى رافائيل سنوات المراهقة في سويسرا. وهناك واصل قراءته النهمة. فقرأ شكسبير ودوماس ومنزوني وجول فيرن وسكوت. وكان مفتونًا بشكل خاص بالمؤرخ الأمريكي ويليام بريسكوت. وخاصة في كتابيه "تاريخ غزو المكسيك" و"تاريخ غزو بيرو". وقد تأثر كثيرا بهذين الكتابين في أحداث وبناء أعماله الأولى.

وفي سن السابعة عشرة، غادر ساباتيني المدرسة ليبدأ حياته العملية، فقد رأى والده أن التحصيل اللغوي الكبير لرافائيل سيمنحه عملًا جاهزًا ومستقبلًا مشرقًا في بريطانيا العظمى ومستعمراتها وتجارتها حول العالم، لذلك قرر فينتشنزو إرسال ابنه إلى ليفربول. وهي أكبر ميناء في إنجلترا وسيوفر العديد من فرص العمل.. وهكذا وصل رافائيل إلى ليفربول للمرة الثانية عام ١٨٩٢. وهناك عمل مترجما، وخصوصا بالنسبة للتجارة البرازيلية التي احتاجت لمن يتقن البرتغالية ترجمة وكتابة الرسائل.

وفي عام ١٨٩٥ بدأ يكتب القصص الرومانسية، وقد بدأ الكتابة باللغة الإنجليزية بمجرد أن شعر بالقدرة على القيام بذلك، وتم نشرها في جريدة ليفربول المحلية.

العيش ككاتب

طوال السنوات من عام ١٨٩٥ حتى عام ١٩٠٥ كان رافائيل يشغل وظيفة بدوام كامل ويحاول أن يكتب بدوام كامل كذلك. قال إنه كان ينام قليلًا مثل أي رجل في إنجلترا خلال تلك الفترة. ومع ذلك، فإن جهوده أثمرت في عام ١٩٠١، حصل على عقد لكتابة روايته الأولى، وقد صدرت في عام ١٩٠٢، وفي عام ١٩٠٥ ظهر كتابه الثاني، ليترك بعدها وظيفته نهائيا ويتفرغ تماما للكتابة.

وفي عام ١٩٠٥ أيضًا، تزوج رافائيل من روث جواد ديكسون، إحدى بنات تاجر الورق الشهير بليفربول لانسلوت ستيل ديكسون، وانتقل بعد زواجه ليعيش في لندن، ليقترب من عالم النشر. وداوم على

نشر رواية سنويا فضلا عن المقالات والقصص القصيرة، لذلك تراكمت أعماله لتصل إلى نحو ٣٤ رواية، وست مجموعات قصصية، كما نشرت مقالاته في ست مجلدات، وكتب أيضا عددا من المسرحيات.

وبحلول عام ١٩٢٥ أي بعد عشرين عاما من تفرغه التام للكتابة أصبح رافائيل ثريًا. تحولت رواياته إلى أفلام وإلى مسرحيات ؛ وظهرت مقالات عنه في الصحف والمجلات. لكن حالته الصحية كانت قد تأثرت وساءت فاضطر لهجر صخب لندن عملا بنصيحة الأطباء، واستأجر منزلًا بالقرب من دير تينترن في الريف على الحدود بين ويلز وإنجلترا. وهناك مارس الاسترخاء و التأمل.

نهايتان

يمكن القول بأن رافائيل ساباتيني مات مرتين، أو شهد نهايته مرتين، ففي الأول من أبريل عام ١٩٢٧ كان رافائيل متوجها بالقطار إلى اسكتلندا لمشاهدة مسرحية سكاراموش، وهي عن رواية له بنفس الاسم، وكان ابنه الوحيد بينكي قد فضل أن يقود سيارته الخاصة إلى هناك مصطحبًا أمه، وفي الطريق تعرض لحادث توفي على إثره بينما تعرضت الأم لإصابات أفقدتها الذاكرة لبعض الوقت، وبعد الشفاء أصرت على الطلاق قائلة أن بينيكي كان الشيء الوحيد الذي يربطها برجل لم تكن سعيدة في الحياة معه، وقد تم تطليق رافائيل وروث في عام ١٩٣١. واعترفا في المحكمة أن الزواج كان غير سعيد.

وقد تزوج رافائيل للمرة الثانية وهو في سن الستين عام ١٩٣٥ من

شقيقة زوجته السابقة، كريستين ديكسون، وهي فنانة تمارس النحت ومزاجها الفني كان مناسبا للحياة مع رافائيل. الذي عادت حياته إلى تدفقها الهادئ. فعاد إلى الكتابة حيث قدم مجلدين ضما عددا من القصص القصيرة هما: "شيفالري" عام ١٩٣٥ و"ليالي الترفيه الأخيرة " عام ١٩٣٨.

ومع نشوب الحرب في الأربعينيات قلت كتابة ساباتيني، ولأول مرة، لم يلتزم بنظام كتابه السنوي. فقد كان يعاني من مشاكل صحية. وتبين أنه مصاب بسرطان المعدة. ومع ذلك، كان يحب الكتابة، وعلى الرغم من تباطؤ إنتاجه، إلا أنه أنتج بعض الأعمال وكان كتابه الأخير" حكايات مضطربة" الذي نشر في عام ١٩٥٠، وهو عبارة عن مجموعة من القصص القصيرة، بعضها يعود لعدة عقود.

وبحلول شتاء عام ١٩٥٠، عندما حان الوقت لزيارته السنوية إلى سويسرا، على الرغم من المرض الشديد، أصر رافائيل على نقله إلى أدلبودن، بسويسرا، وهناك توفي في ١٣ فبراير ١٩٥٠ وتم دفنه في أدلبودن.

د. عز الدين جلال

خيال الشاعر وشجاعة البطل

كانت جنوا في القرن السادس عشر، إحدى الجمهوريات الإيطالية المستقلة، وكان يتنازعها في ذلك الحين قوتان مسيطرتان على العالم هما: قوة فرنسا وعلى رأسها الملك فرانسوا الأول، وحليفه البابا وجمهورية البندقية، والثانية قوة الحليفان أسبانيا وألمانيا وعلى رأسهما الإمبراطور شارل الخامس.

وفي الوقت الذى بدأت فيه حوادث هذه القصة، كان رئيس جمهورية جنوا «أنطونيو أدورنو» وهو رأس أسرة أدورنو من كبريات الأسر في المدينة. وكان ينازعها الجد والسلطة أسرة دوريا التى كان كبيرها وقتئذ الأميرال «أندريا دوريا» قائد الأسطول.

وقد أدت المنافسة بين الأسرتين، أن يكون رأس كل منهما في معسكر غير معسكر الآخر، فبينما كان الرئيس أنطونيو أدورنو، هو وحكومته، خاضعيان للأسبان، كان الأميرال أندريا قائدًا لأسطول فرنسا الذي ضرب الحصار على جنوا ليخلصها من حكم الأسبان، ويخضعها لحكم الفرنسيين.

ولما كان الشاب بروسبيرو أدورنو ابن الرئيس أنطونيو قائدًا لأسطول البابا حليف فرنسا، فقد انضم بقواته البحرية إلى الأسطول الفرنسي الذي يُحاصر المدينة، وهكذا صار بحكم مركزه، عدوًا لأبيه الذي كان يدافع مع الأسبان عن دولته الصغيرة.

وقد كان بروسبيرو أدورنو يبرر موقفه من أبيه بأن تلك الحملة البحرية التي يشترك فيها إنما تستهدف تحرير جنوا من ربقة الاحتلال الأسباني، ومن سيطرة الحاكم المعين من قبل الإمبراطور، لينازع أباه السلطان وهو الرئيس الشرعي للجمهورية.

وكان بروسبيرو أدورنو شابًا وسيمًا فى الثلاثين من عمره، جمع بين خيال الشاعر المبدع، وشجاعة القائد البطل، وقد ذاعت شهرته كشاعر بملحمة بحرية كان الشباب

يحفظونها عن ظهر قلب، كما اشتهر ببطولته في الحروب البحرية، وبخاصة حين أنقذ أسطول أندريا دوريا قبل أربع سنين، من هزيمه منكرة كاد يمنى بها على يد بطل البحار «ياقوت»، الأناضولي، المعروف باسم «سيف الإسلام».

والآن ألقى الأسطول الفرنسي، تحت قيادة أندريا دوريا، مرساه في نقطة هادئة من البحر لمحاصرة مدينة جنوا. وفي مؤخرة هذا الأسطول وقفت السفن البابوية السبع تحت أمرة بروسبيرو أدورنو الذي جلس في قمرته ينظر بعينين حالمتين، وامتد بصره على طول سفينته وقد صفت على جانبيها مقاعد الأسرى، ويدا كل منهم على مجداف، وسار بين الصفين اثنان من الحراس، تأبط كلي منهما سوطًا طويلًا من الجلد. وكان عدد الأسرى وقتئذ ثلاثمائة مقيدون في سلاسلهم وأغلالهم، وهم خليط من المغاربة والعرب والأتراك والزنوج، ومنهم أيضًا مسيحيون غرباء، وقد ربط البؤس والشقاء بينهم جميعًا.

ولم يكن الكابتن بروسبيرو يرى من مجلسه غير رؤوس الأسرى الحليقة وأكتافهم العارية، ثم تنبه فجأة على صوت بوق، وجاءه ضابط يقول: «أن سفينة الأميرال قادمة يا سيدى الكابتن».

فوقف بروسبيرو على الفور وقد تحولت هيئته من رجل فكر وشعر وخيال إلى رجل حزم وعزم ونضال، ولبث ينتظر عند مؤخرة السفينة حتى جاءت سفينة ذات اثنى عشر مجدافًا رافعة علمًا أبيض اللون تتوسطه زهرة الزنبق المذهبة، ثم وقفت بجانب سفينته، وصعد من مؤخرتها ثلاثة رجال، فتسلقوا سلمًا بلغوا به ظهر السفينة الأخرى.

وكان اثنان منهم شابين ضخمى الجسم، وأحدهما أطول قامة من صاحبه. أما الثالث فكان شيخًا أشيب الشعر، متوسط القامة، أدنى إلى النحافة. وكان هؤلاء الثلاثة هم: الأميرال «أندريا دوريا» وابنا أخيه الضابطان البحريان، «جيانتينو» و«فلبينو». ولم تكن وسامة الوجه من مزايا أسرة دوريا، غير أن الأميرال أندريا دوريا كان رجلًا بادي الوقار، مرفوع الرأس، حاد الأنف، تجلل وجهه لحية طويلة شقراء، وقد بلغ الستين من عمره.

أما جيانتينو الذي سار في إثره على ظهر السفينة، فكان عملاقًا، وجهه أقرب إلى

وجوه أقرب إلى وجوه النساء مع قبح فيه، ضيق العينين مع خبث تنمان عنه، صغير الفم، بادي النزق والطيش، وقد عرفه الناس بأنه ابن أخي الأميرال أندريا دوريا، ولكن الواقع أنه من بني عمومته، وكان أبوه نساج حرير رقيق الحال، ولعله هو نفسه كان سيحترف صناعة أبيه لولا أن الأميرال قريبه لم يكن له ولد، فضمه إليه وتولى تربيته.

وكان الشابان في نحو الثلاثين من العمر، كلاهما أسود الشعر، قمحي اللون، وفيما عدا ذللك لا شبه بينهما. فقد كان فلبينو، على خلاف جيانتينو، يكره الثياب الزاهية، وكان رشيقًا، ناشطًا، سريع الحركة، وليس سريع الغضب كالآخر، وكانت ذراعه اليمنى مربوطة بقماش أسود.

وقبل أن يبلغ ثلاثتهم باب القمرة التي بها بروسبيرو، قال له فلبينو:

– إن ثقتنا بأبيك قد كلفتنا كثيرًا في الليلة الماضية، فقد فقدنا نحو أربعمائة رجل ولعلك لا تعلم أن ابن عمنا أيتورى مات من أثر الجروح التي أصابته. وأنا قد عدت بهذا التذكار (وأشار إلى ذراعه المعلقة) من بورتو فينو. وإذا كنت قد عدت حيًا، فلا يرجع الفضل في ذلك إليك.

تبعه ابن عمه توا في هذا الهجوم الخاطف على بروسبيرو فقال:

– الواقع أن ثقتنا وضعت في غير موضعها. فقد نصب لنا شركا. ونحن مدينون للرئيس أنطونيو، بهذه الخيانة الدنيئة..

وكان بروسبيرو يحملق فيهما وهما يقولان ذلك وقد عقدت الدهشة لسانه. ولكنه استمسك بالحلم وقال لهما:

– إني لا أفهم كلامكما، بل لست أفهم مسلككما هذا... أتعنيان أن أبي هو المسئول عن ذلك التهور الذى ظهر في محاولة النزول إلى البر؟

فصاح فلبينو: أتسمى ذلك تهورًا؟ رباه».

– إنى أحكم على الأمر بما سمعته الليلة الماضية. أن كون الجنود قد ردت توا بتلك

القوة، لا يدل على أن الحيطة الواجبة قد اتخذت في تلك المحاولة. وما كان يصح قط افتراض أن الأسبان غافلون في تلك النقطة المعرضة للهجوم.

فقال له جيانتينو: «ما أدراك أنهم كانوا من الأسبان؟ إن الأسبان لم يكن لهم شأن فيما جرى».

– كيف لم يكن لهم شأن؟ لقد قلت أنت الليلة الماضية أن قوتك التى أردت بها مفاجأة العدو قوبلت بقوات إمبراطورية تفوقها عددًا.

وأخيرًا تداخل أندريا دوريا، فقال بصوته الهادئ ووقاره الظاهر:

– إننا اليوم نعرف أكثر مما كنا تعرفه قبلًا يا بروسبيرو.. ولدينا أسرى ليسوا من الأسبان، بل هم من أبناء جنوا.. ومن الجنود.. ونحن نعرف أن أباك نفسه هو الذي كان يقودهم في القتال.

فبانت على بروسبيرو الدهشة وقال: «أبي كان يقود قوة حربيه ضدكم؟ إنى لا أصدق ذالك، فإنه يعرف غايتنا».

فقال جيانتينو: «ليس يكفى كونه يعرف غايتنا لكي يقوم بتأييدنا.. لقد كنا نحسب».

فقطع بروسبيرو كلامه قائلًا في عنف: «أن الارتياب فيه، إهانة له».

وهنا تدخل أندريا دوريا مرة أخرى محاولًا التوفيق بين الطرفين وقال مخاطبًا بروسبيرو:

– يجب أن تقابل غضبهما بالحلم، فإن مقتل أيتورى قد أحزننا.. ولا ينبغي لنا أن ننسى أن «أباك» إنما تسلم تاج الدوقية من الإمبراطور ولعله يخشى أن ما جاء من الإمبراطور قد يذهب بذهابه.

فرد بروسبيرو بحماسة: «لماذا يخشى ذلك؟.. أنه ما كان ليختار رئيسًا لولا تأييد أهل جنوا. وما دام مالكًا تأييدهم، فلا يمكن خلعه. إن النبأ الذي نمى إليكم هو لا شك

نبأ كاذب».

فأجاب فليبينو: «إن هذا النبأ لا يعتوره شك. ولا ريب أن أباك يعلم أن سيزار فريجوزو هو قائد الحملة الفرنسية في البر. ولم ينس أنه غلب أحد آل فريجوزو على عرش الدوقية. فهو يخاف على مركزه إذا انتصر الفرنسيون».

فهز بيروسبيرو رأسه إنكارًا. وقبل أن يرد قال جيانتينو بعنف: «إن هذه الخلافات بين الأحزاب كادت تقضى على البلاد.. أعني تلك الخلافات القديمة بين أسر أدورني وفريجوزو وسبينولي وفيشي وغيرهم.. إن كل طائفة منهم إنما تبغى الوصول إلى الحكم. هذا هو الكابوس المخيم على الوطن مُنذ أجيال وأجيال. وهو الذي فت في عضد جنوا بعد أن كانت أقوى من البندقيه. لقد استنزفت المنازعات دمها حتى وقعت تحت نير الحكم الأجنبي. ونحن الآن هنا لكي نضبع حدًا للخلافات الداخلية وللسيطرة الأجنبية في آن واحد. وإنما حملنا السلاح لكي نعيد إلى جنوا استقلالها التام.. إننا هنا لكي».

فقاطعه بروسبيرو قائلًا: «وفر على نفسك الكلام وادخره للسوقة. فلا حاجة بنا هنا لخطاب حماسي.. إني أعرف لماذا نحاصر جنوا الآن. ولولا ذلك لما كنت معكم».

فقال شيخ دوريًا بهدوء: «إن في ذلك وحده ضمانًا كافيًا لأبيك، حتى لو نسى أني ابن جنوا من قمة رأسي إلى أخمص قدمي.. وإني لا أستهدف سوى صالح بلادي قبل كل شيء».

فقال بروسبيرو: «إن الخطابات التي أرسلتها إليه فيها التوكيد الكافي بأننا لا تخدم التحالف إلا لكي نخدم جنوا من طريقه. وقد ذكرت له فيها تعهد ملك فرنسا لك بأن يعاد إلى جنوا استقلالها التام».

وسكت لحظة ثم قال: «لاشك أن خطاباتي لم تصل إلى أبي».

فقال أندريا دوريا: «لقد خطر ببالي هذا الاحتمال».

وأراد ابنا أخويه أن يعترضا، لكنه أسكتهما واستطرد قائلًا: «إن في هذا تفسيرًا

لمسلكه.. ولعل رسولك الذي كان يحمل الخطابات إليه وقع أسيرًا في أيدي الأسبان.. والآن ينبغي لك أن تستوثق من ذلك بالكتابة مرة أخرى إلى أبيك، وبذا تحقن الدماء وتفتح أبواب جنوا أمامنا.. وأحسب أن لدى الرئيس من القوة العسكرية المؤلفة من أبناء جنوا ما يمكنه من قهر الحامية الأسبانية».

فسأله بروسبيرو: «كيف يصل خطابي إليه؟».

فجلس القائد البحري ووضع إحدى يديه على فخذه، بينما أخذ يمسح لحيته بيده الأخرى، ثم قال: «يمكنك أن ترسل إليه خطابك علنًا تحت علم هدنة ».

فجعل بروسبيرو يمشي في الحجرة مفكرًا ثم قال: «قد يستولي عليه الأسبان.. وفي هذه الحالة يكون خطرًا على أبي».

وهنا جاء ضابط برتبة ملازم تحت إمرة بروسبير، وقال له بعد أن أدى التحية العسكرية : «جاء صياد من الخليج يقول أنه يحمل خطابات إليك ياسيدي. وهو لا يريد أن يسلمها إلا إليك شخصيًا».

فبدت الدهشة على الجميع وقال جيانتينو: «إذن أنت على صلة بالمدينة بينما تدعي».

ولكن عمه أسكته. ونظر بروسبيرو إلى جيانتينو نظرة صارمة ثم قال للضابط: «أحضر إلي ذلك الرسول».

وبعد لحظة جاء برفقة الضابط صياد شاب حافي القدمين وقف يردد بصره بين الحاضرين ثم قال: «أريد السيد بروسبيرو أدورنو» فاقترب منه هذا قائلًا: «ها أنذا». وعندئذ أخرج الشاب الصياد من جيب قميصه رزمة من الورق مختومة وسلمها إليه. ونظر بروسبيرو إلى الكتابة التي على الغلاف وفض الختم بأصابع مرتعشة. ثم جعل يقرأ وهو مقطب الجبين والآخرون لا يحيدون بأنظارهم عنه. ثم قدم الخطاب في صمت إلى القائد أندريا وقال للضابط مشيرًا إلى الصياد: «دعه ينتظر تحت».

ولما قرأ أندريا دوريا الخطاب تنهد بارتياح وقال: «إن هذا يدل على أنك كنت على صواب في افتراضك. فإن خطاباتك السابقة لم تصل إلى أبيك».

والتفت إلى ابني أخويه وقال: «كما يدل على أنكما كنتما على خطأ».

فقال بروسبيرو: «يحسن أن يقرأ الخطاب بنفسيهما».

فسلم القائد الخطاب إلى جيانتينو قائلًا: «إن هذا جدير بأن يعلمكما ألا تسيئا الظن على غير أساس.. لقد سرني أن أعلم أن مسلك الرئيس إنما نشأ من عدم معرفته غايتنا. والآن متى أخبرته بها يا بروسبيرو – من طريق هذا الرسول – فقد حق لنا أن نأمل أن تكف جنوا عن مقاومتنا» ثم ساد الصمت بينما جيانتينو وفلبينو يقرآن خطاب الرئيس أنطونيو أدورنو، وفيه يقول:

«علمت مع الأسى من أسرى قبض عليهم أمس في بورتوفينو أنك تقود القوة البحرية البابوية التي هي جزء من الأسطول الذي يحاصر جنوا. ولولا توكيد هذا النبأ بما لا يحتمل الشك، لما صدقت أنك ترفع السلاح ضد وطنك وضد أبيك. وما أحسب أن الأمر يحتمل أي تفسير لمسلكك هذا، ولكن مع هذا أطلب منك تفسيرًا، اللهم الا إذا كنت قد غيرت ما بنفسك وصرت إنسانًا غير ولدي الذي أعرفه.. لقد عهدت بخطابي هذا إلى صياد أمين ليحمله إليك، ولا شك أنه سيسمح له بذلك. فإذا كان لديك أي جواب فأرسله معه».

ولما أتم الشابان قراءة الخطاب قال فليبينو لعمه: «إني أشاركك في أملك يا سيدي، ولكني لا أشاركك في ثقتك. إن أسلوب أنطونيو في خطابه يبدو لي أسلوب عداء».

وقال جيانتينو: «هذا ما يبدو لي أنا أيضًا». ثم التفت إلى بروسبيرو وقال له: «اكتب إلى صاحب الفخامة أنه إذا قاومنا فإنما يضر بنفسه أبلغ الضرر.. فإن قوات فرنسا لابد أن تنتصر في النهاية وعندئذ يسأل أنطونيو عن سفك الدماء في غير ما داع إلى ذلك».

فرمقه برسبيرو وبنظرة صارمة وقال له: «إذا كانت لديك رسائل من هذا القبيل لوالدي فيمكنك أن تكتبها بيدك. ولكني لا أنصح لك بذلك، فإن أحدًا من آل أدورنو لا يخضع للوعيد. وجدير بك يا جيانتينو أن تذكر ذلك أيضًا حين تخاطبنى.. وإذا كان أحد قد قال لك أن صبري لا حد له فقد كذبك القول».

وكاد ذلك يكون تمهيدًا لشجار عنيف بينهما لولا أن الأميرال سارع إلى التدخل وحال دون أي عدوان بالقول من جانب ابني أخويه فقال لبروسبيرو: «حقًا يا بروسبيرو ولقد كنت صبورًا حتى الآن وسأجعل هذين السليطي اللسان يفهمان ذلك».

ونهض على إثر ذلك وهو يقول: «لا داعي لإزعاجك الآن بعد أن وضحت الأمور فإن بقاءنا هنا إنما يؤخر كتابتك الخطاب إلى صاحب الفخامة». ثم انصرف وهو يسوق الشابين المتهورين أمامه قبل أن يأتيا بخطأ جديد.

ثقة لا ضمان لها

إن وطنية صاحب الفخامة الرئيس أنطونيو أدورنو كانت من السمو بحيث تعلو على محن تلك الأيام. وكانت جنوا وقتئذ تعاني المجاعة برغم مظهرها الفاخر، ولم يكن ثمة كبير خطر عليها من الجيوش التي سيرها إليها المارشال دي لوتريك لكي تغزوها من البر، فقد كان جناحاها ومؤخرتها في حماية الحواجر الطبيعية العالية التي تحنو عليها. وإذا كان يمكن مهاجمتها من طريق المنطقة الساحلية الضيقة التي في سفح تلك الجبال، فقد كان من اليسير على حاميتها رد أي هجوم يشن هناك من الشرق أو الغرب.

ولكن تلك القوات التي عجزت عن مهاجمتها كانت قادرة على قطع سبيل المؤونة إليها. وقد مكثت مشارف البحر عشرة أيام قبل مجيء أسطول دوريا إلى الخليج، وهي تحت حراسة سبع سفن حربيه فرنسية انضمت بعدئذ إلى ذلك الأسطول، وهكذا بدأت جنوا تقاسي الجوع، وهو لا يساعد قط على البطولة. ومن شأن الأهالي الجائعين أن يثوروا ضد أية حكومة وأن ينسبوا إليها الذنب في المجاعة التي يعانونها. وقد رأى آل فريجوزو أن الفرصة سنحت لهم للتغلب على آل أدورنو منافسيهم القدماء وأخذ مقاليد الحكم منهم.

ولما كان الشعب أميل إلى تصديق الوعود العسولة، وكان آل فريجوزو يكيلونها له ويمنونه بعصر ذهبي يؤيده ملك فرنسا وفيه تزول المجاعة ويعم الرخاء، فقد ارتفعت صيحات الاستسلام من جميع طبقات الشعب وطوائفه، وصارت شوارع جنوا الضيقة المنحدرة تزخر بالجموع الثائرة ضد انطونيو لأنه رأى أن الشيطان الذي يعرفه، أي الإمبراطور، قد يكون خيرًا من الشيطان الذي لا يعرفه أي ملك فرنسا.. ولم تجد محاولاته اقناع تلك الجموع الثائرة بأن واجبه يقتضيه مواصلة الدفاع عن جنوا ضد القوات المتحالفة لفرنسا والبابا والبندقية.

وإذا كان الرئيس انطونيو قد استطاع أن يثبت في بورتوفينو قدرته على مواجهة

الخطر الخارجى في انتظار النجدة من أنطونيو دي ليفيا حاكم ميلانو من قبل الإمبراطور، فإن الخطر الداخلي كان أشد هولًا وأعصى على المقاومة والعلاج. وهكذا وجد نفسه بين أمرين أحلاهما مر، فإما أن يوجه الفرقة الأسبانية التي تحت امرته لإخضاع الثوار، وإما أن يسلم المدينة للفرنسيين، وقد يعاملون أهلها كما عامل الجنود الألمانيون المأجورون أهالي روما من قبل. وفيما هو في هذا المأزق الحرج جاءه خطاب بروسبييرو وفيه المخرج من ذلك المأزق.

وهناك في إحدى غرف القصر الأحمر المنيع المشرف على المدينة جلس أنطونيو وفي يده خطاب ابنه. ومع أنه كان ملتفعًا بعباءة شعر بقشعريرة، فعللها بكثرة الدم الذى نزف من جرحه، ومضت دقائق وهو مطرق يفكر، وعلى رأسه الأصلع قلنسوة مسطحة تدلت على جبينه فأضفت على خديه ظلًا قاتمًا.. في حين وقفت إلى جانب المنضدة قرينته المادونا أوريليا بقامتها الطويلة المعتدلة ووجهها المشرق الوسيم، وإلى جوارها «أجوستينو سبينولا» الضابط الأرستقراطى الكهل، ثم الأمير سيبيوتى. الأخ الأصغر الوسيم للكونت دي لافانيا الذي كان أحد أمراء الإمبراطورية ولا يعلو عليه في نسبه أي أمير آخر في جنوا.

وأخيرا أخذ أنطونيو أدورنو يعيد تلاوة خطاب ولده:

«لا تحسبن أني كنت أرضى لنفسي أن أكون حيث أنا الآن لولا أن القضية التي أخدمها هي قضية جنوا قبل أن تكون قضية الحلفاء. إننا لم نأت إلى هنا لنعاون الفرنسيين بل جئنا ليعاونونا. ولم نأت للدفاع عن مصالح فرنسا ولكن للدفاع عن استقلال جنوا.. ومن أجل ذلك فقط لم أتردد لحظة في تولي قيادة السفن البابوية المشتركة في هذه المهمة، وأنا موقن أنك متى علمت غايتنا الحقيقية فتستمد إلينا يدك لإنقاذ وطننا العزيز».

ورفع أنطونيو عينيه الكليلتين عن الخطاب، وأخذ يردد بصره بين الحاضرين صامتًا، وكان صبر قرينته قد نفد فقالت له: «حسنا».

فدفع بالخطاب إليها عبر المنضدة قائلًا: «اقرئي بنفسك».

فالتقطت الخطاب وأخذت تتلوه بصوت عال، حتى إذا انتهت من قراءته قالت: «الحمد لله .. هذا يضع حدًا لشكوكنا يا أنطونيو» فقال لها: «ولكن أتصدقه؟».

فقال سيبيوني: «كيف إذن نفسر اشتراك بروسبيرو في هذه الحملة البحرية؟».

فقالت قرينة أنطونيو: «أتشك في ولدك الذي هو من صلبك؟».

فقال أنطونيو: «لست أرتاب في إخلاصه مطلقًا، ولكني أرتاب في إخلاص الآخرين الذين معه».

فقالت قرينته: «إن بروسبيرو لا يتسرع مطلقًا.. إنه يشبهني.. فهو أقرب إلى أهالي فلورنس منه إلى أهالي جنوا.. وما دام واثقًا مما ذكره فلابد أن لديه أسبابًا تدعو إلى هذه الثقة».

فقال أنطونيو: «أيكون واثقًا من أن الفرنسيين ليست لهم مطامع؟ من ذا الذي يصدق ذلك؟.

فقالت له: «ماذا تجنيه من سوء الظن؟ ألا تقتنع بما قاله بروسبيرو من أنك إذ تدافع عن المدينة حيال أسطول دوريا فإنما تعارض مصالح بلدك؟».

فقال: «وهل أنا بحاجة إلى إقناع؟ أعانني الله .. إني لفي حيرة من أمري.. والشيء الوحيد الواضح أمامي هو أني أحمل تاج الدوقية من قبل الإمبراطور. أفليس علي إذن واجب نحوه؟».

وكأنما وجه السؤال إليهم جميعًا.. ولكن زوجته المادونا أوريليا تولت الإجابة قائلة:

– أليس واجبك الأول نحو وطنك جنوا إنك إذ تقف هكذا حائرًا بين قضية الإمبراطور وقضية شعبك، إنما تخدم صالح آل فريجوزو؟ فلا تخدعن نفسك عن ذلك. استمع إلي وينبغي لك بعد عشرتنا الطويلة أن تعلم أني ملهمة.

فنظر أنطونيو إلى سبينولا متسائلًا، وعندئذ قال هذا وهو يرفع كتفيه وحاجبيه: «يبدو لي يا صاحب الفخامة أن ما قاله بروسبيرو في خطابه يغير الموقف تغييرًا تامًا. إنك

إذا خيرت بين الإمبراطور وبين ملك فرنسا، فلا شك أن واجبك يقتضيك أن تخدم الأول. ولكنك إذا خيرت بينهما كليهما وبين جنوا كما يقول بروسبيرو، فلا مراء في أن واجبك هو أن تخدم جنوا. هذه وجهة نظري. ولكن إذا رأيت فخامتك غير هذا الرأي وعزمت على المقاومة فإن عليك أن تخمد الثورة الداخلية.

ففكر أنطونيو قليلًا وهو مقطب الجبين ثم قال: «صدقت يا أجوستينو.. وأحسب أن وجود بروسبيرو أمام جنوا، وتوكيده ما قاله في خطابه، من شأنهما أن يؤيدا فكرة التسليم».

ثم أردف وهو يضغط شفتيه: «بشرط أن يكون اندريا دوريا أهلًا للثقة».

فسأله أنطونيو: «إذا أسأت به الظن فعلى أي أساس؟».

فأجاب سيبيوني قائلًا:

– على أساس مطامعه، على أساس طموحه لأن يكون أمير جنوا.. فهز أنطونيو رأسه وقال: «إذا بدأ هذا الخطر أمكننا أن نواجهه». وسكت لحظة ثم قال: «لا ينبغي لي أن أضحي بالأهالي، وأدع دماء أبناء جنوا تجري في الشوارع لا لشيء سوى سوء الظن.. إن هذا على الأقل شيء واضح» فقال سبينولا: «في هذه الحالة لا يعوق قرارك شيء، وأضاف سيبيوني: «مع ملاحظة أن ثقة بروسبيرو لا ضمان لها سوى كلمة اندريا دوريا».

النصر الزائف

وفي مساء اليوم نفسه أرسل وفدين: أحدهما إلى دوريا في سفينة القيادة، والآخر إلى «سيزار فريجوزو» لعرض تسليم المدينة. وكان الشرط الوحيد ألا يعاقب أي شخص من أهالي جنوا. وأن يسمح لجيوش الإمبراطور بالخروج من المدينة بأسلحتهم، وقد قبل هذا الشرط. وخرج دون سانشو لوبيز بفرقته من المدينة في باكورة الصباح. وكان هذا القائد الأسباني قد عارض فكرة التسليم بشدة، محتجًا بأن دون أنطونيو دي ليفيا لابد أن يأتي بالنجدة من ميلانو. ولكن الرئيس أنطونيو ثبت على عزمه إذ كان قد آمن بأنه إنما يخدم بذلك مصلحة جنوا.

ولم يكد الإسبان يخرجون من المدينة حتى دخل فريجوزو على رأس ثلاثمائة من جنوده الفرنسيين، فاستقبلهم الأهالي استقبال من جاءوا لتحريرهم. أما بقية جيش فريجوزو فظلت معسكرة في «فلتري».. إذ كان من المحال على المدينة الجائعة أن تأوي كل ذلك الجيش الضخم.

وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات، تقدمت السفن الحربية إلى الشاطئ، وأنزل دوريا خمسمائة من جنوده، كما أنزل بروسبيرو ثلاثمائة من جنود البابا. وكان الغرض من إنزال هؤلاء هو إتمام المراسم، لكي يقفوا صفًا ويضفوا على الحادث صبغة عسكرية. ولكن قبل أن ينزل آخر رجل منهم إلى البر، بدا أن لهم مهمة أخرى يؤدونها.

ولعل سيزار فريجوزو كان يحسب أن جنوده الفرنسيين قد جاءوا إلى جنوا ليحرروها من الظلم. غير أن أولئك الجنود كان لهم رأي آخر... فقد رأوا أن جنوا مدينة غزوها ومن حقهم أن يقوموا فيها بالنهب والسلب على هذا الأساس، وسرعان ما وجدوا في جماهير الشعب الجائع حلفاء يعاونونهم على ذلك بدل أن يقاوموهم، فما كادوا يبدأون أعمال النهب حتى شاركهم فيها مئات من الغوغاء. وكانوا في البداية يطلبون الطعام في بيوت

التجار الأغنياء وقصور النبلاء ثم اندفعوا في تيار الجرأة والاستهتار فلم يقنعوا بسد جوعهم وراحوا ينهبون كل ما تقع عليه أيديهم، ويخربون ما شاءت لهم رغبة التخريب الكامنة في نفوسهم.. وهكذا صارت المدينة كلها ميدانًا للسلب والنهب، وزاد في شناعة المأساة أن أبناءها أنفسهم شاركوا الجنود الأجانب في ذلك.

واشتد غضب بروسبيرو إزاء هذه المفاجأة المؤلمة، ولم يكن الأميرال دوريا أقل غضبًا وتألمًا منه، فقال له:

– لا محل للكلام الآن يا بروسبيرو.. إن الوقت وقت العمل. وهذا الشر يجب وقفه توا.

ثم أمر ضابطًا آخر قصير القامة بادن الجسم هو سيزار فريجوزو، فرمقه بنظرة غضب وقال له: «أي نظام هذا الذي تقع في ظله هذه الفظائع؟». فقال فريجوزو متلعثمًا: «لست أنا المسئول عن ذلك النظام».

فسأله الأميرال: "من الملوم إذن؟ من الذي يقود هؤلاء الغوغاء الفرنسيين؟».

فأجاب: «ليس في استطاعة رجل واحد أن يتحكم في ثلاثمائة».

فقال الأميرال محتدًا: «بل يستطيع أن يتحكم في ثلاثة آلاف إن كان كفؤًا للقيادة».

فغمغم فريجوزو بكلمات متقطعة ثم قال: «إن الملوم حقًا هو الرئيس أنطونيو الأحمق، فهو الذي قضى على الناس بالجوع في سبيل خنوعه للإمبراطور دون أن يفكر في صالح بلاده».

وسارع فلبينو إلى تأييده إذ قال: «حقًا إن سيزار قد وضع إصبعه على موضع الداء.. إن الذنب في هذا ذنب أنطونيو أدورنو وحده».

وجرأ ذلك فريجوزو فقال: «إن أولئك الجائعين التعساء ما كان يمكن صدهم بعد أن خرج الاسبان من المدينة، إن مقاومة أدورنو الفاشلة قد دفعتهم إلى اليأس، ولذلك راحوا يعاونون أنفسهم بدل أن يعاونوا جنوا على حماية ممتلكاتها. ولو أن..».

فقطع الأميرالاي دوريا كلامه قائلًا: «هل هذا وقت الكلام؟ يجب أن يعود النظام

أولًا. أما الكلام فيأتي بعد ذلك..».

ومال بروسبيرو قليلًا ولمس ذراع فريجوزو وقال له: «سألقنهم درسًا يردعهم يا سيد سيزار.. وعندي أيضًا كلمة لك يا فلبنيو..».

ولكن دوريا حال دون النقاش بينهم وقال: «هيا تحركوا ودعوا الجدل الآن.

ثم التفت إلى بروسبيرو وقال له:

– إنك تعرف ما ينبغي عمله. فهيا امض في سبيلك. وعليك الناحية الشرقية. أما أنا فعلى الجهة الغربية. وعليك بالشدة.

ولم يكن بروسبيرو بحاجة إلى هذه النصيحة فقد أمر أحد ضباطه بإنزال مائتي جندي آخرين إلى البر. ولما كان القائمون بالسلب والنهب يسيرون جماعات فقد قسم قواته إلى جماعات كذلك وجعل على رأس كل جماعة منها ضابطًا من ضباطه، وتولى بنفسه قيادة جماعة منها.

وسرعان ما وجد بروسبيرو جماعة من الجنود الفرنسيين وغوغاء المدينة أخذين في نهب دار لتاجر موسر على بعد مائة متر تقريبًا من رصيف الميناء. وقد باغتهم بروسبيرو وهم يعذبون ذلك التاجر ليكرهوه على ذكر المكان الذي خبأ فيه الذهب. فأنقذه من أيديهم وقبض على زعيمهم وشنقه على الفور، ثم ترك جثته معلقة فوق باب الدار، وساق بقية الناهبين أمامه بأسنة الحراب ليكونوا عبرة لغيرهم.

وعلى غرار هذه البداية الحازمة واصل بروسبيرو عمله لإنقاذ المدينة، وقد عثر في قبو دار لأحد النبلاء على جماعة من الغوغاء والجنود ينهبون الخمر بعد أن حطموا جانبًا من ذلك القبو، فدفعته عدالته الشاعرية إلى أن يغمس رأس زعيم تلك الجماعة في وعاء النبيذ ثم يخرجه ست مرات متوالية حتى يرتوي تمامًا.. غير أنه لم يضيع طويل وقت في أمثال هذه الفكاهة، بل مضى في سبيله قدمًا دون أن يقف لحظة ليسمع لعنات الذين كسر عظامهم، أو شكر الذين أنقذ حياتهم ومتاعهم.

وسار شرقًا نحو مرتفعات كارينيانو، حتى وصل ظهرًا إلى بقعة صغيرة أمام كنيسة قامت أمامها الأشجار. وكانت بقعة هادئة سارة تغمرها أشعة الشمس وتفوح فيها رائحة الأزهار. فوقف هناك لحظة ليجمع رجاله إذ كان خمسة منهم قد أسيبوا بجراح فتخلفوا عن الباقين.

وإنه لكذلك إذا به يسمع صوت ضحك ومرح من زقاق إلى يسار الكنيسة يتدرج في الارتفاع. وأنصت بروسبيرو فطرق أذنيه صوت أخشاب تتكسر على أثر ضربات قوية، ثم علا صوت ضحك ثم انخفض، وتلاه صراخ امرأة.

وعندئذ قفز بروسبيرو صاعدًا الدرجات التي بذلك الزقاق ورجاله وراءه، وكان على جانبي الزقاق أسوار عالية يتوسطها باب كان مفتوحًا، ومنه كانت تسمع صرخات المرأة عالية متوالية وقد اختلطت بها ضحكات خشنة.

ووقف بروسبيرو لحظة عند عتبة الدار ليرى ما هنالك، فلمح حديقة فسيحة تتوسطها بركة، ووراءها واجهة قصر من الرخام الأبيض والأسود قد قام على أعمدة بديعة المنظر. على أنه لم يمعن النظر في ذلك كله وإنما استرعى التفاته شاب في ثياب الخدم ممدد الجسم على أرض الحديقة وقد بسط ذراعيه، وعلى مقربه منه جلس شيخ أسند كوعيه إلى ركبتيه ورأسه إلى يديه والدم يسيل من أصابعه. ثم رأى امرأة تصرخ هاربة وقد قطع الجزء الأعلى من ثيابها حتى وسطها، وكان يتبعها بين أشجار الحديقة جنديان فرنسيان وهما يقهقهان قهقهة كريهة، ووقفت إلى الجانب الآخر من الحديقة امرأة أخرى طويلة القامة تواجه في رعب سخرية شقي آخر. وكل ما تذكره بروسبيرو عن هذه المرأة فيما بعد أنها كانت مرتدية ثيابًا بيضاء وإن لها شبكة شعر ذات بريق.

وترك بروسبيرو عتبة الباب لكي يدع رجاله يمرون، ثم أمرهم في حزم بأن يضعوا حدًا لذلك المنظر الأليم، وسرعان ما اندفع ستة من رجاله وراء الشقيين الذين كانا يطاردان المرأة الأولى في الحديقة، بينما هجم غيرهم على الجندي الذي كان يتحرش بالمرأة ذات الرداء الأبيض. وكان هذا الجندي قد تقهقر بدافع الغريزة ووضع يده على مقبض سيفه،

ولكنه قبل أن يجرده هجم عليه الجنود فأطاحوا بخوذته وحزامه وسيفه، ثم دفعوه بأسنة الحراب نحو الباب وهم يخزونه بها في كتفه حتى صار يصرخ من الألم ويتعثر في مشيته. وكان رفيقاه قد لقيا مثل ما لقيه، ثم ضرب الجنود أحدهما على أم رأسه فخر على الأرض بلا حراك. وعندئذ سحبوه من قدمه ورموه في الطريق وسط رفاقه ثم جذبوه فوق درجات الزقاق دون أن يبالوا ما يصيب رأسه حتى تركوه تحت إحدى الأشجار القائمة خارج الدار.

وتبعهم بروسبيرو دون أن ينتظر شكرًا من أولئك الذين أنقذهم، فإن المهمة التي هو بصددها كانت لا تحتمل الانتظار.

والواقع أن جنود سفن بروسبيرو كانوا مثله حزمًا وحسن نظام، وقد أبدوا كل ما كان يرجوه منهم من سرعة وعدم محاباة، وعاملوا الجنود الفرنسيين معاملتهم للدهماء على السواء. وراحوا يطهرون البيوت من الناهبين.

وفى عصر ذلك اليوم رأى بروسبيرو أن مهمته قد تمت، إذ أعيد الأمن إلى المدينة، وكان قد بلغ منه التعب مبلغه، فمضى على رأس قوته الصغيرة قاصدًا إلى قصر الرئيس، لكي يقدم نفسه إلى والده.

وقد ذهبوا عن طريق سارزانو، ومن هناك ساروا صعدًا في الطرق المنحدرة المؤدية إلى سان لورنزو وإلى قصر الرئيس. ورغم توقف أعمال السلب والنهب كانت المدينة لا تزال في حالة اضطراب، فشق بروسبيرو ورجاله طريقهم في شوارع حافلة بالناس، وكان أكثرهم صاعدين الطريق المؤدي إلى القصر.

وكلما مضى في طريقه انضمت إليه كتائب من جنوده، عائدين من عملهم. وكانت إحدى تلك الكتائب تحت قيادة كاتانيو، وقبل أن يصل إلى سان لورنزو كان عدد الجنود الذين وراءه نحو مائة وخمسين، فتألف منهم موكب بديع تنظر إليه الطبقة العالية من الأهلين نظرة إعجاب، على عكس الغوغاء والسوقة.

وكانت الوسائل التي اتخذها الأميرال دوريا أكثر رفقًا ولينًا من تلك التي عمد إليها

بروسبيبر. فبينما سير الأخير خمسمائة جندي قسمهم إلى خمس وعشرين كتيبة لردع السالبين والناهبين، حشد الأميرال مائتي جندي فقط وجعل منهم صفًا وسط المدينة. ثم سيروا أربعمائة جندي بالطبول والأبواق لينذروا من تحدثه نفسه بالسلب، فكان ذلك وحده كافيًا للردع والزجر، وفر شرار الغوغاء إلى جحورهم، وأوى الأوغاد من الجنود الفرنسيين إلى ثكناتهم بأسرع ما تحملهم أقدامهم. وهكذا تفادى دوريا سخط الجمهور، على حين جعل بروسبيرو نفسه موضعًا لهذا السخط كما لحظ ذلك وهو سائر بجنده نحو سان لورنزو.

ولما وصل إلى الميدان الذي أمام القصر، وجد أمامه كتلة من الناس فلم يقدر أن يشق طريقه بينها. وقد وقف صفان من جنود دوريا أمام القصر ليحولوا دون الجمهور والتقدم، بينما كان أحد من الناس في شرفة القصر يصيح بأعلى صوته داعيًا إلى السكون والانتباه.

ونظر بروسبيرو فوق ذلك البحر من رؤوس البشر، فرأى أن ذلك الذي يصيح من الشرفة رجل شيخ ضخم الجسم أشيب الشعر، وسرعان ما تبينه فعرف أنه هو أوتافيانو فريجوزو الذي كان رئيسًا لجمهورية جنوا حين كانت تحت سيطرة فرنسا وقبل أن تقع في قبضة إمبراطور النمسا واسبانيا. وعندئذ تملك القلق بروسبيرو، ولاسيما أن أوتافيو يرتدي زي الرئيس كأنما عاد إلى منصب الرياسة بعودة الفرنسيين إلى المدينة.. وكان واقفًا إلى يساره ابن عمه سيزار فريجوزو، وإلى يمينه الأميرال اندريا دوريا.

فحبس بروسبيرو أنفاسه كي لا تفوته كلمة مما يقوله، ثم أعلن هذا أن الأميرال اندريا دوريا، المواطن الأول، وأبا الشعب، قد أنقذ جنوا من الحكم الأجنبي، وأن الأهالي لن يرغموا بعد اليوم على دفع الضرائب لإيواء جنود الاحتلال في إيطاليا، وأن جنوا قد حررت من نير حكم الإسبان، وأصبحت منذ اليوم حرة تحت وصاية ملك فرنسا، ثم قال: «إن الوطن مدين بهذا الفضل لاندريا دوريا أسد البحر العظيم».

وسكت فريجوزو لحظة، كما يقف الخطيب داعيًا إلى التصفيق، فعلا هتاف الشعب:

«ليحي دوريا.. ليحى دوريا».

ثم رفع دوريا نفسه يده اشارة إلى طلب السكوت كي يستأنف فريجوزو خطابه، وعاد هذا فأعلن أنه سوف يقتص ممن سببوا الآلام للشعب، خصوصًا أولئك الذين حكموا عليه بالجوع في سبيل إبقاء البلاد تحت نير الإمبراطور.

وكان بليغًا في خطابه، فما زال يضرب على هذا الوتر حتى صاح الجمهور: «الموت لآل أدورنو.. الموت لمن خانوا الوطن».

وبعد ذلك وعدهم الرئيس الجديد بالزاد والمؤونة بغير إبطاء وقال لهم: «إن سفننا محملة بالقمح تنتظر تفريغه بالميناء، كما أن الماشية في طريقها إلى المدينة، ولن تمضي بضع ساعات حتى توزع الأطعمة وتنتهي المجاعة التي سببها الحكم السابق».

وعاد الشعب يهتف للرئيس الجديد ويطالب برأس الرئيس أنطونيو، بينما بروسبيرو واقف يستمع وهو لا يكاد يصدق أذنيه.. وإنه لكذلك إذا بواحد من الناس يجذبه من كمه ثم يهمس في أذنه: «لقد وجدتك أخيرًا يا بروسبيرو كنت أبحث عنك منذ يومين أو أكثر».

والتفت بروسبيرو فوجد سيبيوني دي فيشي إلى جواره، واستطرد هذا فقال: «ما دمت قد سمعت ما قاله هذا المشعوذ فقد أدركت الموقف، ولعلك لم تكن تعلم ما حدث وإلا لما كنت هنا».

– لقد كنت في طريقي إلى القصر وإذا بي أرى ما رأيت واسمع ما سمعت.

– إذا كنت تبحث عن أبيك فلن تجده في القصر بل هو سجين في القلعة».

فإرتاع بروسبيرو وقال: «رباه!».

– أتعجب من ذلك؟ فريجوزو يحنون الآن رؤوسهم للشعب ليوطدوا أقدامهم. ولن يآمن الرئيس الجديد على نفسه إلا إذا قضى على الرئيس القديم.

ثم التفت سيبيوني دي فيشي فجأة إلى جنود بروسبيرو وعلى رؤوسهم الخوذ وقال

له: «هل هؤلاء رجالك وهل هم أهل للثقة؟ إذا كان الأمر كذلك فينبغي لك أن تعمل توًا إذا أردت إنقاذ أبيك.

وكان بروسبيرو قد غاض الدم من وجهه من هول تلك المفاجأة فقال لصاحبه: «وأين أمي؟».

– مع أبيك في سجنه.

– إلى الأمام إذن.. إن رجالي سيشقون طريقهم إلى القصر. ويجب أن أقابل الأميرال فورًا.

فكاد سيبيوني يضحك ساخرًا وقال: «الأميرال دوريا؟ لكأنك تقصد إلى فريجوزو نفسه.. إن دوريا هو الذي نادى به رئيسًا للجمهورية.. إن الموقف لا يجدي فيه الكلام يا بروسبيرو، بل يتطلب العمل السريع الحاسم.. إن الجنود الفرنسيين الذين بالقلعة لا يزيد عددهم على خمسين جنديًا، وأبواب القلعة مفتوحة، وهذه فرصتك فانتهزها إذا كنت واثقًا من جنودك».

فأشار بروسبيرو إلى الضابط كاتانيو وأصدر إليه أمرًا. وانتقل هذا الأمر بسرعة البرق إلى صفوف الجند فشق ذلك الموكب طريقًا لنفسه وسط الجموع الحاشدة، وكان من المحال أن يتقدم فلم يبق له إلا أن يسير إلى الوراء. ثم اتخذ لنفسه طريقًا آخر إلى المرتفعات التي تقع القلعة فوقها.

الغدر

مضى بروسبيرو بجنوده حتى وصلوا إلى ميدان الكاتدرائية، وكانت جموع الشعب ما زالت تتدفق قاصدة إلى القصر. ثم ساروا في طريق صاعد يؤدي إلى «الكامبيتو» بينما أسنة حرابهم تلمع في ضوء الشمس فلم يجرؤ أحد أن يعترض طريقهم، غير أن بعض أفراد الجمهور كانوا يدركون أن هؤلاء الجنود هم أفراد الفرقة الأجنبية التي يقودها بروسبيرو، ويذكرون ما اتخذته منذ ساعات من وسائل الإرهاب، فلا يسعهم إلا أن يتلقوها بالشتائم واللعنات.

وعند الكامبيتو انضم إليهم ضابط آخر من ضباط بروسبيرو ومعه ستون جنديًا، كان قد جمعهم وهو يبحث مع رجاله عن القوة الرئيسية. وهكذا وصل بروسبيرو إلى جدران القلعة عند الغروب، ومعه قوة يزيد عددها على مائتي جندي، ثم ولجوا باب القلعة في صفين، واستطاعوا في سهولة أن يزيحوا من طريقهم بعض الحراس الذين اعترضوهم. ثم قابلتهم قوة أكبر في فناء القلعة، وكان ضابطها أحد رجال دوريا العالمين بالانقلاب الذي حدث في ذلك اليوم، ولكنه مع ذلك سأل بروسبيرو في أدب:

– ما هي الخدمة التي تريد مني أن أؤديها يا كابتن؟

فقال له بروسبيرو بإيجاز: «أن تسلمني القلعة».

فبان الغضب على ذلك الضابط وقال: «أقول لك بكل احترام إني لا أستطيع ذلك، فقد عهد إلى السيد سيزار في قيادة القوة التي هنا، وسأبقى في مركزي حتى أتلقى أمرًا أخر من السيد سيزار نفسه».

– أو حتى أزيحك أنا.. لقد سمعت ما قلته لك، ستذعن طوعًا أو كرهًا.

فعمد الضابط إلى التعاظم، وبدا جسمه الضخم وكأنما زاد انتفاخًا وقال لبروسبيرو:

– يا سيدي الكابتن. إني لا يمكنني أن أتلقى الأوامر منك...إنني.

فأشار بروسبيرو إلى رجاله الواقفين خلفه وقال: «هذه حجتي التي أقنعك بها».

– إذا كنت ستتخذ هذا الأسلوب فماذا أفعل؟

– لا شيء سوى ما أمرك به.. إن هذا يوفر عليك تعبًا شديدًا.

– قد يكون الأمر كذلك فيما يختص بي يا سيدي. ولكنه يسوئ مركزك أنت.

– هذا شأني أنا وحدي.

ثم استدار الضابط وألقى أوامر بصوت كصوت النفير فاصطف حراس القلعة، ولم تمض بضع دقائق حتى غادروها. وكان الضابط آخرهم فحنى رأسه لبروسبيرو بشكل يدل على السخرية والوعيد.

ودخل بروسبيرو لكي يلقى أباه، وقادة سيبيوني على سلم ضيق حتى وصلا إلى باب وقف به حارسان فأمرهما بروسبيرو أن يلحقا برفاقهما الذين خرجوا من القلعة، ثم فتح الباب ودخل في ردهة خالية من كل أثاث، ومنها دلف إلى غرفة صغيرة ترى منها المدينة والميناء والخليج، فوجد بها أباه وكان بادي التعب وقد ألتف برغم الحر بعباءة سميكة عليها فرو، بينما جلست قرينته على كرسي ذي ذراعين، رفيعة القد بادية الشباب، وقد ارتدت ثوبًا أحمر موشي بالذهب.

وفي وسط الحجرة كانت هناك مائدة عليها بقايا طعام بسيط مؤلف ومن الخبز والجبن والفاكهة، والنبيذ. وقد تنبهت مونا أوريليا لفتح الباب، وما رأت ولدها بروسبيرو حتى أرتد وجهها شاحبًا، ثم وقفت وصرخت صرخة أيقظت قرينها فرفع رأسه. ولكنه بقي على هدوئه ولم ينم صوته حين تكلم عن أي تأثر وإنما قال لولده:

– أهذا أنت يا بروسبيرو؟ لقد جئت في ظروف سيئة كما ترى.

وإذا كان أبوه لم يوجه إليه كلمة لوم، فإنه هو لم يكن ليزكي نفسه، فتقدم نحو أبيه وسيبيوني في أثره، وقال:

- لقد تعجب يا سيدي من كوني قد جئت إليك.

– كلا.. كلا. فلابد أن لديك ما تقوله لي.

–كل ما أريد قوله لك هو أن لك ولدًا أحمق، وليس هذا بالنبأ الجديد عليك، إلا إذا كنت تحسبه وغدًا لئيمًا.. لقد استطاع دوريا النذل أن يخدعني دون كبير جهد منه.

– وكذلك خدعني أنا.. لقد كنت مثلي في هذا. وكما يكون الأب يكون الابن.

ونظر بروسبيرو إلى أمه والخجل يكاد يقتله، ولكن عاطفة الأمومة تغلبت عليها فمدت نحوه يديها، فأسرع وأمسكهما وقبل يدًا بعد يد.

ثم قالت له: «لقد أصاب أبوك هذه المرة.. إن خطأك ليس أشد من خطئه كما قال الآن، وإلى عناده يرجع اللوم كله، فقد كان ينبغي له أن يحقق رغبة الشعب ويسلم المدينة حين طلب الشعب ذلك، وبهذا كانوا يؤيدونه حتى النهاية. ولكنه بدلًا من ذلك تركهم حتى أدركتهم المجاعة، ثم ثاروا ضده بتحريض فريجوزو.. هذا هو موضع الخطأ.

فقال بروسبيرو: «إن الخلاص في أيدينا ولدي قوة كافية من رجالي».

فصاحت به أمه: «هل في ذلك إخلاص؟ أيليق بنا أن نهرب ونترك كل شيء؟ إن هذه خاتمة بديعة الرئيس جنوا.. أن يترك آل فريجوزو وآل دوريا الأوغاد ينعمون بثمار الظفر».

فقال لها سيبيوني: «بعد أن صارت الأمور إلى ما صارت إليه يا مادونا، يكون الفرار خاتمة سعيدة».

ثم التفت إلى بروسبيرو وقال له: «هل لديك قوة كافية؟ وهل يمكنك أن تصل إلى السفن؟ وإذا وصلت إليها هل تعتقد أن دوريا يدعك ترحل؟».

وعندئذ قام أنطونيو وقال: «بل أسأل: هل يدعه آل فريجوزو؟ إنهم الآن سادة جنوا الحقيقيون، إنك لن تقدر على الاحتفاظ بهذه القلعة يومًا واحدًا. فإن الجنود يحتاجون إلى طعام. ونحن هنا بلا زاد ولا مؤونة».

وكان ذلك طعنة لآمال بروسبيرو، فتولاه اليأس وتساءل: «ماذا بقى لنا إذن؟».

فأجاب أبوه قائلًا: «ما دمنا لا نملك أجنحة نطير بها، وليست لنا طائرة تحملنا كذلك الأحمق الذي دق عنقه عند برج سانت انجيلو، فليس لنا إلا أن نسلم أمرنا لله».

وهنا تكلم سيبيوني مرة أخرى فقال: «إن طريقة الخلاص لا تكون باقتحام المدينة ولكن بالخروج منها».

ولما سألوه عما يعنيه بذلك قال: «إن الجانب الشرقي للقلعة يقوم على سور المدينة ذاته. ومن شرفات القلعة إلى الصخور التي عند قاعدة السور بنيان ارتفاعه سبعون قدمًا. وعلى هذا تستطيعون أن تغادروا جنوا كما غادر القديس بطرس دمشق».

ولم ترق أنطونيو هذه الفكرة، فبين لهم أن جرحه لا يسمح له باتخاذ هذه الطريقة في الفرار إذ كان قد استنفد قوته. هذا إلى أنه وقد فقد كل شيء لم يعد يهمه أن يواجه أي مصير. بل إنه ليتمنى لو أتيحت له الراحة النهائية، ثم دعا بروسبيرو ووالدته إلى أن يحاولا الفرار بتلك الوسيلة وأن تراه حتى لا يعوق حركتهما بسبب مرضه وجرحه، غير أن بروسبيرو ووالدته لم يرضيا ذلك وأصرا على أن يذهب معهما أو يبقيا معه.. فلم يسعه حيال ذلك إلا الإذعان.

وعند الغروب كان كل شيء قد أعد، وهبط كل من الثلاثة على حدة من أعلى القلعة إلى الأرض في مقعد علقه الرجال بالحبال بإشراف سيبيوني.

وهكذا انتهى حكم آل أدورنو لجمهورية جنوا. وبينما كانت مادونا أوريليا تصخب مندِّدة بآل دوريا وآل فريجوزو معًا، كان بروسبيرو لا يلوم إلا نفسه إذ كان أداة ذلك الغدر الذي طوح بأبيه.

طائفة من الشائعات

استولى الأميرال دوريا على جنوا باسم ملك فرنسا، في الأيام الأولى من شهر أغسطس سنة ١٥٢٧، وبفرار بروسبيرو مع والديه من المدينة انتهت كل صلة له بقيادة الأسطول البابوي.

وفي أواخر شهر مايو من السنة التالية، كان بروسبيرو قد التحق بجيش الإمبراطور شارل الخامس ملك إسبانيا في نابولي، وعين ضابطًا تحت أمرة دون هوجو دي مونكادا نائب الإمبراطور بتلك المدينة. أما أبوه – رئيس جنوا السابق – فكان قد مات بعد ثلاثة أيام من وصولهم إلى ميلانو حيث أواهم أنطونيو دي ليفيا حاكمها من قبل الإمبراطور، وأنزلهم في قلعة بورتا جيوفيو.

ومكثت مادونا أوريليا والدة بروسبيرو يومًا وليلة بعد موت قرينها وهي صامتة حزينة، ثم تكلمت أخيرًا وهي واقفة بثياب الحداد أمام تابوته، فقالت لولدها الواقف بجانبها في صوت صارم لم يعهده من قبل:

– إن أباك يرقد ها هنا قتيلًا، وأنت تعرف قتلته، وتعرف أين تجدهم. إنهم آل دوريا الطامعون الغادرون الذين لا عهد لهم ولا ميثاق. هم الذين حكموا عليه بهذه الخاتمة التاعسة. فلا تنسين ذلك ما حييت.

فقال بروسبيرو: «ما كنت لأنسى ذلك يا أماه».

ثم لمست ذراعه وزاد صوتها صرامة وقالت له:

– اركع يا بني. وضع يدك على هذا التابوت. هناك على موضع القلب. إنه الآن بارد لا ينبض. ولكنه كان من قبل حارًا مفعمًا بحبك. فأقسم على هذا القلب أنك لن يهدأ لك بال حتى تهبط ببيت آل دوريا إلى الدرك الذي هبطوا ببيتنا إليه. وليكن قسمك

هذا هو صلاتك الأخيرة حتى يهدأ أبوك في مستقره.

فركع بروسبيرو، ووضع يده على الموضع الذي أشارت إليه من التابوت. وتذكر الغدر الذي كان هدفه حتى صار أداة لضياع أبيه، فلفظ القسم الذي طلبته أمه إليه، بصوت قاصف رهيب.

وكانت الخطوة الأولى في سبيل وفائه بهذا القسم، أن قبل ما عرضه عليه دي ليفيا من الدخول في خدمة الإمبراطور.. وفي ذلك الوقت، كانت حملة الدول قد اشتدت على شارل الخامس ملك إسبانيا منذ نهب جنوده روما، فصارت جيوشه تقاتل في كل مكان بينما سيطر المارشال دي لوتريك بأسطوله على الجزء الأعلى من إيطاليا. ومضى شهران وهو مرابط أمام نابولي ومعه ثلاثون ألف جندي، وكاد الحصار يؤدي إلى المجاعة في هذه المدينة، ثم جاء خطر الطاعون في أعقاب ذلك، وجاءت سفن دوريا تعاون لوتريك وتسد منافذ البحر. غير أن الأميرال دوريا لم يكن يقود تلك السفن بنفسه، فقد عهد في قيادتها إلى ابن أخيه فلبينو وبقي هو في جنوا. وكان لهذا سبب خفي استطاع سيبيوني دي فيشي أن يقف عليه ويوضحه في خطاباته التي كان يرسلها خفية إلى بروسبيرو.

كان القلق يسود جنوا، وبدأ الأميرال أندريا دوريا يلقى مصير الساسة الذين يكيلون الوعود للشعب ثم لا يوفون بها، فأخذت مكانته العالية في الإنهيار.

لقد أكد للشعب أن جمهورية جنوا ستنعم بالحرية تحت حماية فرنسا، غير أن هذه الحماية سرعان ما انقلبت طغيانًا لم تر الدولة مثيلًا له من قبل. ثم تفاقم الخطب بسعي الفرنسيين في توسيع ميناء سافونا على حساب جنوا، وشعور الأهالي بأن في ذلك خرابًا لهم. وقد عدوا الأميرال دوريا مسئولًا عن ذلك كله لأنه نقل السلطة من يد الإمبراطور إلى ملك فرنسا، بل إن آل فريجوزو أنفسهم، الذين رفعهم إلى منصة الحكم، بدأوا يشتركون في الحركة العادية له.

ولما رأى دوريا نفسه موشكًا أن يفقد ثقة الشعب التي استند إليها، حاول أن ينقذ نفسه بقوله: «إن فرنسا قد نكثت بعهودها له، وإذا لم تصحح أخطاءها فسأترك خدمة

ملكها إلى غيره».

وقد كتب سيبيوني نبأ ذلك كله إلى بروسبيرو فرحًا به، ومفسرًا به كثيرًا من الحوادث، كعدم ذهاب اندريا دوريا بنفسه على رأس أسطوله إلى نابولي، وإرساله ابن أخيه بدلًا منه.

وضمن سيبيوني بعض خطاباته إلى بروسبيرو طائفة من الشائعات التي راجت في جنوا عن مسائل شخصية أغضبت دوريا، وفي مقدمة هذه المسائل أن الملك فرانسيس لم يكن سخيًا بالمال، وأن سيدات البلاط يستنزفن الذهب الذي كان ينبغي أن ينفق في إطعام الجيوش ودفع مرتباتها. وكان من رأى سيبيوني أن هناك فرصة سانحة إذا أحسن انتهازها فإن الأمور في ايطاليا تتبدل لصالح الإمبراطور، ولاسيما أن دوريا قد يبيع نفسه وسفنه بأي شرط لكي يخلص من المتاعب المحيطة به.

وقد أدرك بروسبيرو ما يهدف إليه سيبيوني الداهية، فلا شك في أن ترك دوريا خدمة فرنسا وانضمامه إلى عدوها يكسبه تأييد أهالي جنوا، ولكن على حساب سمعته في العالم، ومتى شعر هؤلاء بانهيار سمعته، فإن شأنه في مجالس الجمهورية سرعان ما يضعف ويتضاءل حتى ينتهي به إلى المصير السيء المحتوم.

وحمل بروسبيرو الخطابات التي تحوي ذلك كله، إلى الماركيز «دل فاستو» الصديق الحميم للإمبراطور شارل الخامس وكان يسكن في قلعة نوفو، ويعده القوم في نابولي ممثلًا للإمبراطور قبل نائبه الحاكم الرسمي.

وكان الماركيز الشاب مثل الإمبراطور في الثامنة والعشرين من عمره، وسيم الطلعة جم الأدب، وقد استقبل زائره استقبالًا وديًا، وطرق بروسبيرو الموضوع دون مقدمة.

وكان اليوم عاصفًا كئيبًا، فقصد المركيز إلى النافذة ليقرأ الخطاب في ضوئها. وقد قرأه ببطء وهو يمر بأصابعه على لحيته الصغيرة المدببة. ثم جعل يفكر. حتى إذا عاد إلى زائره كان بادي الاهتمام وسأله:

– هل الكاتب أهل للثقة؟ وهل هو ممن يعتد بآرائهم؟

– لو كان الأمر أمر أرائه فحسب لما أزعجتك بزيارتي.. إن آراءه لا تهمنا إطلاقًا. ولكنا يُمكننا أن نستنتج النتائج لأنفسنا. والمهم عندنا هو ما ذكره في خطابه من أنباء الحوادث والأحوال في جنوا. ويمكننا أن نضيف إليها معرفتنا بمطامع دوريا. ولابد له الآن من مخرج يخلصه من متاعبه، وإلا أصبح أخر رجل في جنوا بعد أن كان يأمل أن يكون رجلها الأول.

فقال المركيز مقطبًا وهو يُداعب خاتمًا في إبهامه:

– أجل.. إني أرى ذلك.. وأحسب أن اندريا دوريا يقول الحق إذ يزعم أن فرنسا نكثت بعهودها. لأن الملك فرانسيس كثير التقلب، سهل الوعد، صعب الوفاء.

فاستاء بروسبيرو إذ اشتم من هذا الكلام معنى الدفاع عن دوريا وقال:

– هذا لا يهم، ولا يؤثر في الموقف إطلاقًا.

– بل الأمر على عكس ذلك، إذا لم يكن دوريا أهلًا للثقة فمن العبث التعامل معه.

ونظر إلى بروسبيرو كأنه ينتظر منه جوابًا. ولكن هذا لم يجب بشيء. فقد كان يشارك سيبيوني أمله في أن يظهر دوريا على حقيقته. لكنه وقد جاء إلى المركيز دل فاستو لهذا الغرض، لا يجمل به أن يضع العقبات في سبيل هذه الغاية.

ولما رأه المركيز صامتًا لا يتكلم استطرد قائلًا:

– إني أعلم طبعًا أن لديك من الأسباب ما يجعلك تعتقد أسوأ اعتقاد في دوريا. وكل المظاهر تبرر ذلك. ولكنها مظاهر فقط فلم يقدر بروسبيرو أن يكظم غيظه وقال له: «إن مصير أبي لم يكن من المظاهر فقط» فاقترب منه المركيز ووضع إحدى يديه على كتفه وقال له:

– إني أعرف ذلك. ولا شك إنك متأثر به.

ثم سكت هنيهة، قال بعدها: «ينبغي لي أن أستعير منك الرسول الذي جاءك بهذا الخطاب لكي يحمل كلمة مني إلى اندريا دوريا، وبذلك نضع رأي السيد سيبيوني دي

فيشي موضع التجربة».

– أتعتزم أن تعرض عليه اقتراحًا؟ أتذهب يا سيدي المركيز إلى هذا الحد؟

– عند الضرورة أذهب إلى أبعد منه. إني أعرف رأي الامبراطور في ذلك كما أعرف رأيي. إنه يعد دوريا أعظم قائد بحري في عصره. وهذا اعتقادنا جميعًا. والإمبراطور يعتقد أن من يكون دوريا في خدمته يكون سيد البحر الأبيض المتوسط بلا منازع. فإذا كان دي فيشي على صواب فقد سنحت الفرصة لضم دوريا إلى خدمة الإمبراطور، وجلالته لن يصفح عني إذا فوتت هذه الفرصة. وسأكتب توًا إلى مدريد. وفي خلال ذلك سأفتح باب المفاوضات مع أندريا دوريا.

ثم ضغط على كتف بروسبيرو بعطف وقال له: «أنا مدين لك بفضل يقتضيني أن أزيد في ثقة سيدي بك. فإن الحافز الذي حفزك إلى إبلاغي هذا الأمر يدل على الذكاء والإخلاص معًا».

وفي اليوم نفسه حضرا مجلس الحاكم جو دي مونكادا. وكان هذا جالسًا مع ضباطه في «غرفة الملائكة» ببرج بفريلو، وقد سميت كذلك بسبب الرسوم التي زين بها بيكاتزو جدرانها. وكانوا جميعًا من القواد المشهورين، فمنهم سيزار فيراموسكا، واسكانيو كولونا وجيرولامي دي تراني قائد المدفعية، والأحدب، جيوستنياني الذي كان يعد من أكبر القادة البحريين في عصره. وكان هناك أيضًا فيليبرت دي شالون أمير أورانج الشاب الذي لم يكن قد جاوز الثلاثين من عمره برغم ما له من شهرة وسلطة واسعتي النطاق.

وتلا بروسبيرو على الحاضرين خطاب سيبيوني دي فيشي، على أساس أن له علاقة وثيقة بالموضوع الذي يبحثونه خاصًا بالحصار المضروب على المدينة.

ولما أتم تلاوة الخطاب قال المركيز دل فاستو:

– إذا لم نضيع الوقت فإن شارل الخامس قد يستطيع شراء أندريا دوريا وسفنه بأي شرط. ويمكنني أن أقول لكم أيها السادة أني لم أضيع وقتًا، فقد بادرت إلى إرسال اقتراح

إلى أندريا دوريا باسم الإمبراطور.

فبدت الدهشة على وجوه الجميع، ثم قال أمير أورانج: «لقد أصاب المركيز في ذلك، فإن صاحب الجلالة لابد أن يؤيد تصرفه هذا».

واستطرد دل فاستو فقال: «ما دام الأمر كذلك، وقد أتاحت الأقدار لنا هذه الفرصة، ففي إمكاننا أن نرجئ قليلًا موضوع الحصار الذي اجتمعنا اليوم لبحثه».

فقال الأحدب جيوستنياني: «نحمد الله على ذلك. إن فكرة اقتحام الحصار لم تكن تخلو من تهور..».

ولكن مونكادا كان عنيدًا صعب المراس فقال:

– أتظنون أننا يُمكننا الانتظار بينما نابولي تعاني المجاعة والطاعون معًا؟ أننتظر حتى يروح الرسل ويغدون، وحتى توضع الشروط وتبرم الاتفاقات؟

ثم مال إلى الأمام وضرب المنضدة بأصابعه وقال: «إن أندريا دوريا قد يبيع نفسه وقد لا يبيعها. ولكن المؤكد أنه لا يُمكن شراؤه اليوم أو خلال أسبوع.. إن هذه الصفقة تتطلب وقتًا لعقدها، وليس لدينا وقت للانتظار.. بالله أرسل رسلك يا سيدي المركيز، ولكن في خلال ذلك ينبغي لي أن أجلب أغذية إلى نابولي، ولا يتاح لي ذلك إلا إذا طهرت الخليج من سفن أندريا».

فأعترض جيوستنياني قائلًا: «هذه مهمة لا تكفي لها الموارد التي تحت أيدينا. وقد أدليت برأيي هذا من قبل، وأحسبني أعرف شيئًا عن هذه الأمور».

غير أن مونكادا لم يتزحزح عن رأيه، فقد كان جُنديًا مغامرًا، سليل بيت من النبلاء، وقد كسب خبرة واسعة تحت إمرة سيزار وبورجيا وجونسالفو القرطبي، وحارب المغاربة في البحر، وكان في وقت ما أميرال الأسطول الإمبراطوري. كما اشتهر بجرأة لا يدانيه فيها أحد في عصره، واستطاع أن يكون من الأحواض ودور الأسلحة قوة بحرية مؤلفة من ست سفن نقل وأربعة قوارب وسفينتين وزوارق للصيد. ولم تكن لديه مدافع كبيرة، ولكنه

حاول أن يسد هذا النقص بحشد ألف جندي إسباني ببنادقهم فوق تلك السفن. ولم ينكر هو أن في هذا مجازفة كبيرة، ولكن القوم في نابولي كانوا قد بلغوا مرتبة يرضون فيها أية مجازفة. وعلى هذا نظر إلى قواده يستطلع رأيهم. فلم يجرؤ على معارضته سوى المركيز دل فاستو، إذ قال:

– إن إيماني بالنصر في النهاية يجعلني أدع نابولي تقاسي الجماعة والطاعون فترة أخرى من الوقت. وتوفيرًا للوقت أعلن استعدادي للذهاب بنفسي إلى جنوا لمفاوضة دوريا باسم الإمبراطور.

على أن معارضته لم تأت بنتيجة؛ لأن مونكادا لم يتزحزح عن موقفه، وأكد أن الظرف لا يسمح بالانتظار لحظة واحدة فالمعروف أن هناك أسطولًا من البندقية تحت قيادة لاندو في طريقه إلى نابولي ليكون مددًا لأسطول فيليبينو، فإذا وصل ذلك الأسطول ضاعت على نابولي كل فرصة لاقتحام الحصار المضروب عليها.

وعلى ذلك انفض المجلس الحربي، وراح القواد يستعدون للقتال.

وقد اتضح أن المشروع مقدر له الفشل من بدايته. فإن القوة القليلة لا تستطيع التغلب على القوة التي تفوقها عددًا وعدة إلا إذا عاونها عامل المفاجأة، وقد فوت مونكادو هذه الفرصة.. ففي ليلة حالكة الظلام من أواخر مايو، وقبل أن يبزغ الفجر، غادرت تلك القوة البحرية مرساها عند أعالي بوزيليبو، وكانت تحت قيادة الحاكم نفسه، ثم وصلت إلى الجانب الشرقي لكابري بعد شروق الشمس. وكانت النية أن تقلع السفن عند منتصف الليل تحت جناح الظلام ثم تكمن لأسطول فيليبينو وهو يسير في خليج سالرنو فتباغته وتنقض عليه. ولكن السفن تأخر قيامها حتى انكشفت لأبصار العدو في وضح النهار.

ومما زاد الطين بلة أن مونكادا الذي عاش ثلاثين عامًا وهو يحمل حياته بين يديه، أخذ يستعد للقتال وكأنه يتأهب لحفلة عرس. فقد أنزل الجنود إلى أرض الجزيرة حيث قدم لهم الطعام والشراب، ثم جعلوا يستمعون إلى قس يعظهم... وأخيرًا لما ذهبت السفن

لملاقاة أسطول فيليبينو، أمر مونكادا برفع الأعلام ودق الطبول ونفخ الأبواق وكأنه فوق مياه البندقية في حفلة «كارنفال».

وكان بروسبيرو أدورنو قد ولى قيادة السفينة «سيكاما» التي تعد من أحسن سفن نابولي. وقد لاحظ كل ذلك فخاف العاقبة.

وتقدمت سفن نابولي نحو الجنوب، وفي طليعتها السفن الست الكبيرة بينما السفن والزوارق الأخرى في المؤخرة. وكأنما كانت تعبر عن نفس مونكادا التواقة إلى القتال. فسارت بسرعة مضاعفة، وقد وقف الحراس يعملون سياطهم في ظهور الأسرى الذين يجدفون، حتى إذا وصلوا إلى أمالقى، رأوا ثلاثًا من سفن العدو قد انفصلت عن بقية السفن قاصدة إلى عرض البحر. فحسب الإسبان أنها تحاول الفرار منهم، وزاد الحراس قسوة على الأسرى بالسياط ليزيدوا في سرعة السفن.

غير أن بروسبيرو كان له رأي غير هذا، وصارح بذلك المركيز دل فاستو الذي كان واقفًا معه في مؤخر السفينة سيكاما. ولم تكن للمركيز خبرة بالحرب البحرية فأختار لنفسه أن يكون أركان حرب لهذا القائد البحري الشاب الذي يعرف شهرته.

وقال له بروسبيرو وهو يشير إلى علم تكسر في مؤخرة سفينة وسط سفن فليبينو:

– ليس هذا فرارًا. إن تلك السفن الثلاث إنما تتبع إشارة صادرة عن سفينة القيادة.. وموقع سفينة القيادة هذه يدل على أن هناك خطة مدبرة من قبل. إن تلك السفن الثلاث المنشقة عن بقية الأسطول إنما تتخذ موقفها هذا مؤقتًا. وفليبينو إنما يكون منها قوة احتياطية ليضرب بها في الظرف الملائم.

أما مونكادا فلم ير سوى أن سفنه الست صارت تواجه خمس سفن فقط من قوة العدو. وقد شجعه ذلك فاندفع بسفنه نحو العدو ليباغته قبل أن يعمل مدافعه القوية ولم يرد أن يطلق عليه النيران كما نصح له تراني، بل أراد أن يهجم جنوده على العدو مباشرة.

غير أن فليبينو كان واثقًا من تفوق مدافعه على سلاح العدو، وسرعان ما انطلقت النيران من سفينة القيادة، وأطلقت على سفينة مونكادا قذيفة وزنها مائتا رطل، وكانت الرمية مسددة فأصابت السفينة من أقصاها إلى أقصاها، وجاءت بالموت والخراب. وسقط مونكادا بينما أخذ جيرولامو داتراني يقفز هنا وهناك ويحاول عبثًا أن يحل محل رجال المدفعية الذين خلت أماكنهم، ثم أصيبت السفينة بقذيفة أخرى أطلقتها عليها سفينة قيادة العدو، فوقفت مجاذيفها عن الحركة.

وتحرك بروسبيرو بسفينته «سيكاما» وكان لابسًا درعه وقلنسوته وقد أمسك سيفًا، ثم هجم برجاله على سفينة للعدو وسرعان ما تغلب على جنودها واستولى عليها، وتمكن من أسر سفينتين آخريين، ولكن هذا النصر جاء بعد الأوان، ذلك لأن السفن المعادية الثلاث التي كانت واقفة على بعد، عادت بأقصى سرعتها لتشترك في القتال، فبرهنت على أنها القوة الاحتياطية التي أدخرها فليبينو لمثل هذه الساعة. وأمل بروسبيرو ألا يعدو قصدها استعادة السفن التي أسرها. لكن لوملينو كان له قصد آخر، هو أن يوجه ضربته إلى الرأس، أي إلى سفينة القائد مونكادا، وكانت برغم ما أصابها مشتبكة في القتال مع سفينة فيليبنو.

ومضت سفن لوملينو الثلاث قدمًا نحو سفينة مونكادا. فأطاحت الأولى بدفتها، بينما دكت الثانية وسطها واختلطت أصوات المجاديف المتكسرة بصرخات الأسرى الذين سحقت أضلاعهم من تلك الصدمة. وسقط الصاري الرئيسي على أولئك التعساء فوضع حدًا لآلامهم، وكان بين من سحقهم: جيرولامو داتراني إذ كان لا يزال يدير مدفعية السفينة.

ثم ضربت السفينة الثالثة بمقدمتها مكان مقدمة سفينة مونكادا التي أصيبت من الطلقة الأولى في المعركة.

ولما رأى مونكادا أنه أصبح مستهدفًا للإحاطة به من ثلاثة جوانب، قفز والسيف في يده من سطح السفينة إلى أدناها، وهو يستنفر رجاله بصيحة كالزئير، ولم يلبث حتى

أصابه رصاص بندقية في ذراعه اليمنى، وأعقبتها رصاصة أصابت فخذه اليسرى، فسقط في بركة من الدم، وحاول أن يقوم من سقطته إذ سمع صوت العدو يقتحم سفينته، لكنه لم يستطع وراح في غيبوبة لم يفق منها إلا بعد حين.

ورأه اسكانيو كولانا وهو يسقط فسارع إلى نجدته ولكنه أصيب هو الآخر بطلقة صرعته من سفينة لوملينو.

وكان جنود البنادق يتناقص عددهم سريعًا، ولكنهم مع ذلك احتفظوا بمراكزهم بين مؤخر السفينة ورصيفها الأوسط، بين الطلقات المتتابعة، والنيران المتأججة، وقعقعة السلاح وتكسر الأخشاب واصطدام الصلب والحديد. ثم اقتحم العدو هذا المكان أيضًا إذ فتح ثغرة في جنب السفينة عند ذلك الموضع.

وترك بروسبيرو السفينتين المأسورتين في أيدي رجاله وراح ينقذ أميرًا له، ولمحه لوملينو فتحول بسفنه الثلاث عن سفينة القيادة التي قهرت، ليشتبك مع السفن القادمة، وضاع أمل بروسبيرو، برغم استبساله في القتال، لأن السفينتين اللتين اعتمد على نجدتهما بقيتا واقفتين في مكانهما وتجاهلتا إشارات الاستغاثة التي وجهها إليهما، ثم شرعتا توليان الأدبار.

وجاءت سفينة فيليبينو نفسه لتنضم إلى السفن التي تهاجم السفينتين الإمبراطوريتين اللتين بقيتا تقاومان. وعندئذ لمس دل فاستو ذراع بروسبيرو وقال له:

- لقد انتهى الأمر يا صديقي .. إن أولئك الخونة قد فوتوا عليك فرصة النصر الأكيد. ولن يكسب الإمبراطور شيئًا إذا أنت مت هنا في القتال.

ولم يجد بروسبيرو داعيًا إلى معارضة فكرة التسليم هذه، فقال للمركيز:

– خير لنا أن نعيش حتى نموت يومًا ما في سبيل غاية أسمى..

ولما اقتحم جنود لوتريك ظهر السفينة سيكانا، حيث رتب بروسبيرو آخر خط للدفاع، خفض علمه ليحول دون مذبحة لا جدوى وراءها.

ما أعجب تصاريف القدر

صار بروسبيرو أدورنو أسيرًا في يد العدو، وهذا هو يعاني ذل الأسر بين الأسرى الذين يجدفون بإحدى السُفن، عاري الجسم حتى وسطه، وقد بدا شعره الأشقر، وإحدى قدميه مربوطة بقيد، وبدا جسمه وقد لفحته الشمس، وعلى ظهره آثار الضرب بالسوط.

كان يكدح طول نهاره بمجداف، فإذا جن الليل نام في مكانه على قطعة جلد من جلود البقر توضع على دكة الأسرى، أما غذاؤه فلا يعدو ثلاثين أوقية من الخبز اليابس وملء وعاء من الماء.

تلك كانت حياة لا يطيقها رجل مثل بروسبيرو عاش مترفًا، ولكنه عرف بقوة صبره وإيمانه، فلم يدرك نفسه من الوهن مثل ما أصاب جسده. وبهذه الذخيرة من الصبر والإيمان استمر يعمل مجدفًا، في السفينة «مورا» ذات المجاديف الستة والخمسين، وكانت من السفن الاحتياطية تحت أمرة «نيقولا لوملينو» في معركة أمالفي السالفة الذكر.

وكان رفيقه كهلًا أسمر البشرة قوي البنية، ذا أنف أقنى، وشفتين غليظتين حمراوين، ولحية كثة سوداء. وقد فتح عينيه دهشتة حين رأى بروسبيرو يقيد بجانبه. ونظر إليه بروسبيرو بدوره فعرفه من فوره. وعجب من تصاريف الأقدار التي جمعته هكذا في الأسر مع القائد المسلم ياقوت، أو «الريس ياقوت» الذي كان قد أسره في معركة «جيولانا» الشهيرة، وعرف فيه يومذاك أعظم القادة البحريين التابعين لخير الدين بارباروسا (ذي اللحية الحمراء) الذي نشر الرعب في البحار.

ولما أفاق القائد المسلم من دهشته قال له:

– أهذا أنت؟ ما أعجب تصاريف القدر.

ثم ضحك حتى بدت نواجذه وقال: «هكذا الحرب يادون بروسبيرو».

وكان الحداد منهمكًا في وضع الأغلال لبروسبيرو، بينما وقف لوملينو يشرف على

ذلك بنفسه وهو مقطب الجبين. وكأنما خشى بروسبيرو أن يشمت به أسيره السابق ياقوت، فضحك وقال له:

– الأمر لا يعدو أن الحظ قد قلب لنا ظهر المجن يا سيد ياقوت، فأصبحنا أسرى بعد أن كنا قادة.

وبان الأسى على وجه لوملينو وهو يصغى إلى هذا الحديث فقال ياقوت: «ولكن فأس الحرب قد تعود إلى الخشب الذي صنع منه مقبضها.

وعلى أي حال.. اسمح لي بأن أرحب بزمالتنا الراهنة هذه وإذا لم يكن بد من أن يكون زميلي غير مسلم مثلي، فلا شك في أنني أوثر أن يكون رجلًا مثلك. على أني أعود ثانية فأقول: أن أحكام القدر لا يسبر لها غور.

فقال له بروسبيرو مبتسمًا: «أحكام القدر؟.. أظن يا سيدي ياقوت أننا الآن بصدد أحكام البشر». وقد قال ذلك وهو يعني ما وضع له من أنه وضع إلى جوار ياقوت بالذات بناء على رغبة فيلبينو دوريا، الذي أبي ألا أن يعامله في الأسر معاملة العبيد المجدفين، وعاد بذاكرته الي معركة أمالفي، ثم إلى ختامها المحزن إذ وقع أسيرًا مع تسعة ضباط آخرين في يد قائد أسطول جنوا، وكيف لمعت عينا هذا القائد حين لمحه بينهم.. ثم كيف وقف فيلبينو بمدخل القمرة شامخًا بأنفه بينما أحد ضباطه يقدم له الأسرى بأسمائهم. حتى إذا قدمه له بدوره قال له هذا بلهجة السخرية والشماتة:

– مرحبًا بك.. لقد تحدثنا عن تسوية حساب بيننا في آخر لقاء لنا، وحلا لك أن تنذر وتتوعد.. والآن سنرى كيف تنفذ وعيدك؟

ثم التفت فيليبينو إلى لوملينو وقال له: «هيا» فليؤخذ الآن ليوضع بين الأسرى الذين يجدفون في السفن».

وقد أثار هذا الحكم الصارم اشمئزاز زملاء بروسبيرو في الأسر، فصاحوا في وجه فيلبينو قائلين: «يا للعار!». بينما ذهب المركيز «دل فاستو» إلى أبعد من ذلك وقال له: «إنك تريد من هذا الحكم أن تجلب عليه العار، ولكنك لا تجلبه إلا على نفسك».

وانتفض فيلبينو إذ سمع ذلك. ولو أنه أطاع هواه في هذه اللحظة لأمر بأن يوضع أيضًا أسيرًا على مجداف. ولكنه كان يعلم أن هذا المركيز هو الصديق الحميم للإمبراطور، ويجب إذن أن يترفق به لأن للإمبراطور ذراعًا طويلة المدى، فكظم غيظه وقال له: «إذا كنت تظن أني مدفوع بعامل الضغينة فثق بأنك على خطأ.. إن هذا الرجل ليس أسير حرب عاديًا.. أنه في السنة الماضية حين كان قائدًا لأسطول حليفنا البابا هرب من الخدمة فهو مطلوب ليجيب أمام العدالة البابوية. وواجبنا نحو ملك فرنسا يتمشى مع واجبنا نحو حليفه قداسة البابا. وتأدية لهذا الواجب يجب أن أعامله معاملة الهارب من الخدمة العسكرية، أي معاملة المجرم، إلى أن يُتاح لي أن أقدمه إلى السلطات البابوية كي يكفر عن ذنبه فوق أعواد المشنقة التي تنتظره».

ثم قال وهو يهز كتفيه العريضتين، ويبتسم ابتسامة خبيثة: «يا سيدى المركيز أنى ليس لي خيار فى هذا الأمر».

ولكن المركيز الشاب مضى في تعاليه وجفائه قائلًا له: «إن الذي أراه هو أنك بارع في المراوغة.. وإلا فإن إدراكك لمعنى الواجب جدير بالإزدراء من كل رجل شريف يا سيد دوريا».

فانتفض فيلبينو من الغضب وقال له: «ما دمت أسيري يا سيدي المركيز فيحسن بك ألا تتدخل في شؤون غيرك».

وكان ذلك أقصى ما استطاع أن يعبر به عن غضبه.. ثم أدار ظهره للمركيز وأمر لوملينو بنقل بروسبيرو إلى السفينة «مورا».

ولم يطع لوملينو هذا الأمر إلا بعد اعتراض، فقد قال لفيليبينو: «إن بروسبيرو أدورنو إنما استسلم لي، وعلى هذا فالعرف الحربي يجعله أسيري أنا، ويجعل لي حق التصرف فيه كما أشاء».

ولكن فيلبينو رد عليه قائلًا في جدة: «ألم تسمعني أقول أنه مجرم وليس أسير حرب عاديًا، وأن واجبي يقتضينى تسليمه إلى العدالة؟ أم تريد مني أن أخون واجبي لكي

تكسب أنت بعض النقود فدية له؟».

ولم يخف على لوملينو ما بهذا القول من رياء. ولكنه لم يستطع أن يكشفه، لأن فرار بروسبيرو من الخدمة العسكرية في أسطول البابا بجعل لحجه فيليبينو ظاهرًا من الحق.

وقد فعل المركيز «دل فاستو» كل ما باستطاعته لصالح صديقه بروسبيرو، وكان المركيز قد عومل هوا وبقيه الضباط الأسرى معاملة حسنة، فتركوا أحرارا على ظهر سفينة فيلبينو بعد أن أعطوا كلمة الشرف بأن لا يهربوا.. وقد بادر المركيز إلى إرسال خطاب احتجاج إلى المارشال دي لوتريك بوصفه القائد الأعلى للقوات المحاصرة لنابولي، فأراد هذا أن يبدي جانب الشهامة ويكون له فضل على المركيز، وأمر فيليبينو بأن يسلمه الأسرى الذين أسروا في واقعة المافي. غير أن فيليبينو كان مثل بقية أفراد أسرته ينشد الربح في كل شيء، فأجاب بأن هؤلاء الأسرى ملك الأميرال أندريا دوريا الذي يعمل تحت رياسته. وعندئذ ألح لوتريك في طلبه وقال له: «إن أندريا ليس إلا خادمًا لملك فرنسا الذي أعتبر أنا ممثله الأعلى في إيطاليا. وبهذه الصفة أطلب مرة أخرى تسليم أولئك الأسرى دون إبطاء».

ولكن فيلبينو بقى على عناده وأجاب بأن التعليمات التي لديه تنص على أن جميع الأسرى الذين يأسرهم يكونون ملكًا للأميرال أندريا دوريا، وأن الأموال التي يفتدون بها تعد غنائم حرب له.. ولكنه حيال إصرار المارشال على ذلك الطلب سيكتب توا إلى عمه ليتلقى أوامره فى هذا الشأن.

ووقفت المسألة عند هذا الحد، وبقى الأسرى في يد فيلبينو على أنه لم يكن يرى أهمية لأكثرهم ولا للأموال التي سيقبضها عمه فديه لهم. ولم يكن لديه مانع من أن يرضى المارشال دي لوتريك بتسليمهم إليه، لو أن هذا قبل أن يستثنى منهم بروسبيرو أدورنو.

كان فيلبينو ما زال يخشى انتقام بيت أدورنو، ويرى في بروسبر والبطل الجرىء خطرًا على سيادة بيت دوريا في الجمهورية. على أن الضغينة وحدها كانت هي الحافز له إلى زيارة السفينة «مورا» حيث يعمل بروسبيرو، ليراه مقيدًا بأغلاله، مشتركًا مع ياقوت في

العمل على مجداف واحد.. و كأنما أراد المبالغة في التشفي، فقال لياقوت: «لعلك مرتاح إلى زمالة صاحبك يا سيد ياقوت.. إن الذي أسرك في وقت ما قد أصبح الآن رفيقك في الأسر. وهذا هو انتقام القدر».

فنظر إليه ياقوت دون خوف وقال له: «ترى من أينا تسخر الآن، وبأينا تشمت في شهامتك هذه وفروسيتك؟».

فضاقت عينا فيليبينو من الغيظ وأجاب قائلًا: «إن النظر إليكما وأنتما جالسان إلى هذا المجداف يدعو إلى التسلية؟ وبودي لو يرى الأميرال أندريا دوريا هذا المنظر».

فقال له بروسبيرو: «حسبك أنك جبان ونذل».

فالتفت إليه فيلبينو غاضبًا وقال له ويده على لحيته: «أتذكر الجبن والنذالة أنت أيها الخائن؟».

فضحك بروسبيرو ساخرًا ورد عليه قائلًا: «لم أجد ما أذكره في هذه المناسبة غير الجبن والنذالة، لأنك تفهمهما حق الفهم.. ولاشك أن منظري ومعي السيد ياقوت على مجداف واحد خليق بأن يذكرك بأني أنقذت سمعة الأميرال أندريا دوريا في معركة جيولاتا. وإذا كنت قد حسبتني من أجل ذلك أبله، فإني أقرك على هذا الرأى.. ولكني كنت فى عنفوان شبابي كما تعلم. ولم أكن قد خبرت الناس بعد. وكنت لا أزال أومن بالشهامة والفروسية وعرفان الجميل، كما أومن بالنبل والشرف والصفات الحميدة الأخرى التي لا عهد لك بها».

وهنا التفت فيلبينو إلى الحارس الواقف إلى جواره وقال له: «ناولني سوطك».

ولكن لوملينو تدخل في الأمر.. ولعله قد ثارت بنفسه عاطفة نبيلة. أو لعله كان يعرف مجرى الأمور والأحوال في جنوا ويتنبأ بأفول نجم بيت فريجوزو ومعهم آل دوريا، وعودة آل أدورنو إلى الحكم والسلطان وبما يتبع ذلك من عواقب وخيمة لمن أساءوا إليهم وقت نكبتهم. وأيا كان الأمر فقد مد يده معترضًا وقال: «ماذا أنت فاعل؟ دعني آخذ هذا السوط وسترى.

فأزاح لوملينو الحارس إلى الوراء وقال وقد بدا عليه الغضب: «إن بروسبيرو أدورنو إنما استسلم لي أنا، ويكفي أنك ستطلب فديته لنفسك ولكنه لا يزال بعد أسيري، لقد طاوعتك على وضعه هذا الوضع المهين على المجداف، وفي ذلك عار لنا كلينا».

فاستشاط فيليبينو غضبًا وقال له: «ألم تسمع يا نيقولا ما قاله لي هذا الكلب؟».

– وسمعت أيضًا ما قلته أنت له..

ولكن فيليبينو لحظه وهو ينظر مشدوها.. ثم ضحك ليخفي حيرته، وقال: «أما كونه أسيرك أنت فهذه مسألة يمكنك أن تبحثها مع الأميرال أندريا.. ولكن أصغ إلي يا صديقي».

ثم جذب لوملينو وانتحى به جانبًا، ووقف الإثنان يتكلمان همسًا بشكل يدل على الجد وبعدئذ عاد فيليبينو إلى الزورق الذي جاء به ورجع به إلى سفينته.

وقال ياقوت بصوت مرتفع غير مبال أن يسمعه أحد: «عسى الكلاب أن تدنس قبر أندريا العظيم الذي حكم علي بهذا الجحيم».

ثم نظر إلى بروسبيرو وقال له: «هذا النذل قد انتقم لي منك بأشد مما يعلم. ولو أني علمت ما خبأه القدر لي هنا لأثرت أن أموت في القتال على ظهر سفينتي على أن استسلم. وأحسبك أيضًا كنت تؤثر ذلك».

فهز بروسيبيرو رأسه، وكان يبتسم ابتسامة تدل على أنه ينظر إلى داخل نفسه لا إلى ظاهر الناس. ثم قال لصاحبه: «كلا يا سيد ياقوت.. إني بحاجة لأن أبقى حيًا.. فهناك أشياء ثلاثة لابد أن أنجزها قبل أن أموت».

فقال له ياقوت: «سوف تنجزها إذا كان مكتوبًا لك ذلك.. أما إذا مت فلا ضير عليك إن لم تؤدها كلها أو بعضها».

فتنهد بروسبيرو وقال: «إن الأمر لا يتعلق بي، ولكن بغيري».

فقال له ياقوت: «سواء أكان خاصًا بك أم متعلقًا بغيرك، فالواقع يا صاحبي أن ماسوف تعمله ليس هو ما تنوي عمله، ولكن هو ما قدر الله أن تعمله.. إن المكتوب في

لوح القدر لابد أن يكون».

فتنهد بروسبيرو مرة أخرى وقال: «أحسب أن الله قد كتب لي هذه الأشياء الثلاثة، ولهذا أراني فرحًا بأن أبقى حيًا ولو على هذا المجداف».

ومكث بروسبيرو شهرًا على هذا النحو، يكد ويكدح في مياه نابولي، حتى نال منه التعب برغم قوة بنيته. وكان سوط الحارس ينزل على ظهره بين حين وآخر فيترك فيه علامات وآثارًا. ذلك أنه إذا كان لوميلنو أنه استطاع أن يحول دون ضربه بالسوط من يد فيلبينو فإنه لم يكن يستطيع شيئًا حيال الحراس الذين تعودوا أن يضربوا الأسرى بالسياط يحثوهم على التجديف.

وأخيرًا جاءت سفن البندقية التي طال انتظار وصولها، وكانت بقيادة لاندو». وحلت محل أسطول جنوا الذي طلبت في البداية لتكون مددًا له. وفي اليوم نفسه جاء زورق شراعي سريع يحمل خطابًا إلى فيلبينو وفيه أمر بالعودة توا.. وقد فرح فيلبينو بذلك إذ لم تكن ثمة مودة صادقة متبادلة بين الجمهوريتين المتنافستين جنوا والبندقية، ولم يكن مرتاحًا إلى ذلك الحلف مع فرنسا الذي فرض عليه. وحوى الخطاب أوامر أخرى من الأميرال أندريا دوريا جعلته بطلب لقاء المركيز «دل فاستو» توا في قمرة السفينة. وقد بعث إليه بهذا الطلب مكرها لأن العلاقات بينه وبين كبير أسراه هذا لم تكن ودية منذ البداية. ولكنه لم يجد بها من لقائه والتحدث معه فإن أوامر الأميرال أندريا كانت واضحة كما كانت تدعو إلى الفزع.

وجاء المركيز توًا بادي اللطف، فقال له فيلبينو:

– لقد تلقيت بهذا الخطاب أمرًا بالعودة فورا بسفني إلى جنوا.

فبدأ الإهتمام في وجه المركيز وتساءل: «وهذا الحصار؟».

فقال فيلبينو: «سفن البندقية تكفي للحصار، على أنه لا يمكن أن يستمر طويلًا، وإذا كان القوم في نابولي يعانون المجاعة والطاعون فإن جنود لوتريك لبسوا أحسن حالًا، بل الواقع أن هاتين الآفتين قد أخذتا في الانتشار في نواحي إيطاليا كلها. وقد سمعت

بوقوع اضطرابات في جنوا».

وسكت لحظلة ثم استطرد قائلًا: «لقد حذرت لوتريك حين شرع فتح السدود بألا تدخل في مجاري المياه، ولكنه لم يستمع لنصيحتي.

فرفع دل فاستو حاجبيه حين سمع هذا الدم للفرنسيين، ولكنه لم يقل شيئًا، وواصل فيلبينو كلامه فقال: «لقد تلقى الآن درسًا يعلمه ما لم يكن يعلم.. فقد فاضت المياه على الأراضي وسمم الجو.. وقد طالما نبهته إلى خطر السيف في نابولي، ولكنك لا تستطيع أن تعلم أحد الفرنسيين شيئًا.. وإني أحمد الله إذ بدأ عمي يعرف ذلك».

وهنا قال له : «دل فاسنو» في هدوء: «أتسمح لي بالجلوس؟». ثم جلس على كرسي، وكان بالطبع لا يحمل سلاحًا ولكنه كان حسن الهندام يرتدي بذلة حريرية وفي وسطه حزام مرصع بالزمرد. وكان قد رخص له في أخذ ثيابه ونقوده من نابولي مع حاجباته الأخرى، كما سمح له بأن يتسلم ما يرد من الخطابات باسمه. وبعد أن بقى هنيهة ساكتا قال لمحدثه فجاة: «إذن.. قد أدرك السيد أندريا أنه يخدم سيدًا غير جدير بخدمته؟».

فانزعج فيلبينو وقال: «كلا.. إن هذا لا يعني أنه اعتزم تغيير سيده».

فقال دل فاستو بلهجته الهادئة نفسها: «إن ذلك سوف يأتي لا محالة».

فقال فيلينو: «هذا يتوقف على الظروف» فسأله: «أي الظروف تعني؟».

فعبر فيلبينو الغرفة إلى المنضدة وقال: «عندي خطاب لك.. ويحسن أن تبدأ بقراءته». فأخذ المركيز الخطاب وفض خاتمه. ولما قرأه بان عليه الاندهاش وقال:

– السيد أندريا ليطلب شيئًا أعجز عن إجابنه باسم الإمبراطور.

– باسم الإمبراطور.. ليكن كلامنا واضحًا ياسيدى المركيز، هل خولك الإمبراطور السلطة بشأن المقترحات التي فهمت أنك أرسلتها إلى عمي؟

فأخرج دل ناستو خطابًا من جيبه وأعطاه إياه قائلًا: «هذا الخطاب مكتوب بخط صاحب الجلالة. وقد تسلمته منذ أسبوع. وأنت ترى منه أنه يخولني كل سلطة في هذا

الموضوع».

فقرأ فيلبينو الخطاب مسرعًا ثم قال: «بشرط أن يرتبط صاحب الجلالة إلى الحد المطلوب. إن عمي لا يريد الانتظار.. أولًا الراتب والمبالغ الأخرى. لقد علمت بمطالبه»

فقال المركيز: «إنها مطالب فادحة.. غير أن الإمبراطور شديد السخاء وهو لا يبخل على قواده وضباطه مثل ملك فرنسا الذي يبعثر أمواله على العاهرات وما إلى ذلك، فلا تشغلن بالك من هذه الناحية».

– وهناك الشرط المتعلق بغنائم الحرب ومسألة الأسرى.. إن ملك فرنسا يطلب لنفسه نصيبًا في الغنائم، ويريد الأسرى جميعًا لنفسه.

– إن الإمبراطور ليس بائعًا جوالًا.. وستكون الأولى والثانية كلها من نصيب السيد أندريا وحده.

فبان الجد على ملامح فيلبينو وقال: «تبقى مسألة جنوا وهي مسألة خطيرة».

فابتسم دل فاستو وقال: «إنها خطيرة لدرجة أني كنت أحسبك ستبدأ بها».

فاستاء فيلبينو من ذلك، إذ لمح بارقة من الإزدراء على محيا محدثه الوسيم، وبدا له أنه يعلم أكثر مما يجب، ثم قال له «دل فاستو»:

– ليس يخفى علي أن طمع الفرنسيين قد جعل السيد أندريا عاجزًا عن الوفاء بوعده لأهل جنوا، تلك الوعود التي أغرتهم بأن يقبلوا حماية ملك فرنسا لهم. وقد برهن هذا الملك على شدة طمعه وشراهته. وبذلك صار مركز عمك في جنوا صعبًا جدًا.. بل أحسبه صار مركزًا مزعزعًا.. ولعلك تدهش من معرفتي بذلك، ولكن لا حاجة بك إلى الدهشة فلولا معرفتي بمجرى الأمور في جنوا لما أقدمت على هذه المفاوضات الدقيقة، وإنما شجعني شعوري بأن السيد أندريا يريد استعادة مكانته لدى الشعب. وهو بالطبع لا يقدر أن يحقق هذه الغاية ما دام في خدمة ملك فرنسا.

فقال فبلبينو وقد أزعجه هذا القول: «لا تفترض أكثر مما تبرره الظروف.. وأؤكد لك أن عمي لن يعقد مع أحد أي اتفاق لا يضمن الإستقلال التام لجنوا.

فقال دل فاستو: «لن يطلب منه أحد شيئًا كهذا يكون خطرًا عليه».

فتفرس فيه فيلبينو مليا، ليتبين، هو يقول ذلك جادًا أم ساخرًا، ثم قال له مؤكدًا:

– إن الجمهورية يجب أن تتحرر من كل سيطرة أجنبية.

فقال دل فاستو: «إني أدرك ذلك.. ولكن إذا لم يحررها الإمبراطور فلن يحررها أحد، لأنه لا أحد غيره يملك القدرة على ذلك».

فسأله فيلبينو: «هل ينوي الإمبراطور أن يحرر جنوا؟. هذه هي المسألة التى يقوم عليها الاتفاق، لأن علي أن أصارحك بأنه ما لم يتعهد الإمبراطور بذلك فلن يتم اتفاق بيننا».

– إن جنوا في نظر الإمبراطور لا تعدو كونها (رأس جسر) فإذا أعطي حرية الميناء فإن أهالي جنوا لهم أن يحكموا أنفسهم كما يحلو لهم. وسيعني الإمبراطور بألا يحكمهم أحد آخر.

– يجب أيضًا ألا تفرض على الجمهورية ضرائب لسد نفقات الجيوش الإمبراطورية في إيطاليا.

– أحسبني قلت أن حرية الميناء هي كل ما يهم الإمبراطور من جنوا في مقابل حمايته لها، فلم يقدر فيلبينو أن يخفي ارتياحه وقال: «ما دمت تقول ذلك باسم الإمبراطور، فإني من جانبي أقول باسم الأميرال أندريا دورياً: أنك تستطيع أن تعد المسألة منتهية ولا يبقى سوى التوقيع.

فقام المركيز وقال: «هذا بديع.. أحسبنا قد أنجزنا عملًا سارًا الآن يا سيد فيلبينو.. وأعتقد أنه لم يبق بعد ذلك مكان لمسألة افتداء الأسرى الذين أسرتهم في معركة أمالفي».

وهنا غاض السرور الذي كان باديًا على محيا فيلبينو، وحل محله الانزعاج، ثم قال له:

– يحسن بنا ترك هذه المسألة للأميرال أندريا.. لقد أقررت أنت نفسك بأن جميع أسرى الحرب يكونون ملكا له».

فابتسم دل فاستو ابتسامة لا تخلو من ازدراء وأجاب قائلًا:

– يا سيد فيلبينو إن هذا القول قد يصلح لأن يوجه إلى دي لوتريك، ولكنه لا يصلح للإمبراطور ولا لي، إن هذا الاتفاق الذي نحن بصدده يجعل عملك في خدمة الامبراطور، فكيف يبقى خدام الإمبراطور الآخرون أسرى لديه؟».

ففكر فيلبينو هنيهة ثم قال: «ربما كان الأمر كما تقول... وأحسب أن توقيع الاتفاق من شأنه أن يفك أسر هؤلاء السادة الذين حجزوا بكلمة الشرف منهم».

فأصر دل فاستو على رأيه وقال:

– يجب أن يكون الأمر كذلك. ولكن بين أسراك رجلًا لا يصح أن ينتظر حتى يوقع الاتفاق.. إني أطلب انقاذ بروسبيرو أدورنو من حالته الراهنة ومعاملته كما تقتضيه رتبته.

فامتقع وجه فيلبينو حين سمع ذلك وسكت برهة ثم قال:

– إنك لا تدري ما تطلبه يا سيدي المركيز، إن بروسبير أدورنو ليس أسير حرب عاديًا.. إنه مجرم كان قد.

فقاطعه دل فاستو قائلًا: «لقد ذكرت لي هذا من قبل، فلا حاجة بك إلى تكراره».

وتقدم نحو طرف المنضدة ونظر إلى فيلبينو نظرة صارمة وقال له: «لن أدعك تشفي ضغينتك من ضابط في خدمة الإمبراطور، ولاسيما إذا كان هذا الضابط ذا مقدرة عالية مثل بروسبيرو».

وكانت لهجة المركيز وهو يقول ذلك لهجة سيد يخاطب تابعه.. ولعل فيلبينو كان يحتمل هذه الغطرسه من الإمبراطور نفسه، لكنه كيف يقبلها ممن هم دونه؟ على أنه سرعان ما كظم غيظه واكتفى بَان قال للمركيز:

«أن آل دوريا لم يصبحوا بعد في خدمة الإمبراطور».

فأجاب المركيز على الفور: «ولن تكونوا في خدمته إذا عارضتم في ذلك».

ثم ضرب المنضدة بقبضة يده وقال بحدة: «أأنتم الذين تستأجرون الإمبراطور أم هو الذي يستأجركم؟ لقد استمعت إلى المطالب التي يحق لكم أن تنالوها، ولا شك أنها

ستتحقق لكم». حسنًا ولكن يجب أن تعلم أن لنا أيضًا شرطًا لا بد منه لإتمام الاتفاق.

وإذا كان ذلك لم يذهب بغضب فيلبينو فإنه على الأقل جعله يخشى إفساد ذلك الاتفاق الذي يراه ضروريًا لعمه الأميرال أندريا دوريا إذا أراد أن ينقذ مكانته وسلطانه في جنوا.. فسكت هنيهة مفكرًا ثم قال في لهجة تنم عن الرجاء:

– لا تنس يا سيدي أن ذلك الأسير يختلف عن الأسرى الآخرين.

إن هذه المسألة مسألة واجب مفروض علي. فمنذ سنة فر بروسبيرو أدورنو من خدمة البابا و..

– هذه مسألة تتعلق بالبابا ولا تتعلق بك.

– لكنها مسألتنا أيضًا، إن البابا في حلف مع ملك فرنسا الذي نحن في خدمته.

– لقد قلت لك رأيي في هذه المحاكمة، فلا تكرهني على أن أقول لك كلامًا لا يسرك. وأيا كان الأمر فقد انتهت علاقتكم بذلك الحلف ولم يبق إلا توقيع الاتفاق كما قلت.

– ولكن علاقتنا بالحلف كانت قائمة وقت إرتكاب بروسبيرو أدورنو ذلك الذنب، وينتج من ذلك..

فقاطعه المركيز وقال له بلهجة الأمر: «لا أريد أن أسمع كلمة أخرى.. إنك إنما تشين نفسك بهذه المراوغة.. ولا تظن أني أجهل السبب الذي دفع السيد أدورنو إلى ما تسميه فرارًا من الخدمة».

ونظر إليه فيلبينو غاضبًا وهو يتنفس بصعوبة ولكنه لم يلبث حتى كظم غيظه واستعاد هدوءه وقال: «إنك تسيء بي الظن، إن هذه المسألة فيما أعتقد مسألة واجب محض. وليست لي بواعث أخرى غير ما بينت».

– إذن هي بواعث لا قيمه لها.

وخفض المركيز دل فاستو من صوته، لأن الذي يمسك بالسوط ليس محتاجًا إلى استخدامه دائمًا، ثم قال له: «هيا بنا يا سيدي. لا تدعنا نضيع الوقت عبثًا. إن الوقائع

واضحة. وينبغي لنا ألا ننسى أن والد بروسبيرو أدورنو قد اضطر إلى الفرار من جنوا كيلا يغتال من جراء ولائه للإمبراطور، وما دام الأمر كذلك فهل تتصور أن الإمبراطور يرضى عن ذلك العمل الذي كنت تعتزمه؟ أو أنني بالنيابة عن الإمبراطور كنت أسكت عليه؟.. دعني أهمس في أذنك بهذا.. لا تدفعني إلى لفت نظر الإمبراطور إلى قضية بروسبيرو أدورنو، فإن ذلك قد يحدث أثرًا سيئًا.. وقد يشير غضب الإمبراطور على أولئك الذين كانوا سببًا فيما سميته فرارًا من الخدمة العسكرية.. وماذا يكون مآل اتفاقنا في هذه الحالة؟».

وكان هذا القول هو السهم الأخير الذي أرغم فيلبينو أخيرًا على الإذعان.

فقال مستسلمًا: «سأتخلى عن هذه المسألة فيما يخصني».

فقال له دل فاستو: «هذا خير لك».

وهكذا وضع فيلبينو جانبًا كأس الانتقام العذبة، وتجرع بدلًا منها الكأس التي أرغمه عليها المركيز.

الأسرى الستة

كانت السفن التسعة تسير متتابعه في قناة بيومينيو، وفي طليعتها سفينة القيادة. وقد هبت ريح خفيفة ساعدت الشراع وأراحت المجاديف بينما الشمس تنحدر صوب جبل جروسو وتضفي على التلال المحيطة لونًا ذهبيًا يبهر الأنظار.

وهناك في السفينة «سينيورا» جلس المركيز دل فاستو والأسرى الثلاثة الآخرون في معركة أمالفي، وليس خلفهم فى ذلك الصف المستطيل من السفن سوى سفينة واحدة هي السفينة مورا التي تحت قيادة لوملينو، وفيها بروسبيرو أدورنو بعد أن أعفي صباح ذلك اليوم من عمله الشاق المهين، وأفردت له غرفة صغيرة تحت سطح مؤخر السفينة يدخل إليها من كوة في القمرة، وأعاره دل فاستو من ثيابه بذلة حريرية سوداء بوسطها حزام يتدلى منه سيف، وقبعة أنيقة من اللون نفسه، وحذاء من جلد قرطبة الناعم الذي ترك العرب سر صنعه للأسبان.

وبعد قليل، انتقل المركيز دل فاستو إليه فى السفينة مورا، واصطحبه في جوله عل سطحها، حيث قص عليه بالتفصيل ما جرى في شأنه بينه وبين فيلبينو، فلما انتهى من ذلك قال له بروسبيرو:

– لقد برهنت على أنك صديق في الشدة.

فقال المركيز: «إنني لم أقم إلا بما فيه راحة لضميري».

ولما وصلا إلى مقدمة السفينة، صعد دل فاستو الدرج المؤدي إلى أعلاها قائلًا: «إن الهواء هنا أنقى» ثم أخذ يستنشق الهواء النقي في ابتهاج ملحوظ، بعد أن ترك الكرة المعطرة التي كان قبل ذلك يضعها على أنفه ليشمها بدلًا من رائحة الأسرى وهو يتنقلون من مكان إلى آخر بالسفينة. ثم التفت إلى بروسبيرو قائلًا:

– إذا كنت قد استطعت أن أحقق أعز رغبة للإمبراطور فإن الفضل في ذلك يرجع إليك، فأنت الذي نبهتني إلى الموقف الحرج لأندريا دوريا.. ولم يكن الإمبراطور ليستطيع السيطرة علي إيطاليا إلا إذا سيطر على البحر الأبيض المتوسط بواسطة دوريا الذي أثبت ببراعته، وبالأسطول القوي الذي يقوده، أنه سيد هذا البحر.

فضحك بروسبيرو وقال: «هذا حسن.. وما كان يمكن أن يكون أحسن من ذلك... إن العالم سيرى الآن دوريا على حقيقته. لقد خضع لإغواء المال وباع سيده ملك فرنسا وانتقل إلى خدمة أسبانيا، ويكفي ذلك لتمريغ سمعته في الوحل... هذا حسن جدًا.

فسأله المركيز: «أهذا كل ما يعنيك من الأمر؟».

فأجاب بروسبيرو: «لقد كنت أنشد العدالة، وهذه هي قد تحققت».

فقال المركيز: الواقع أنه كان أشد إصرارًا على نيل جنوا استقلالها التام منه على طلب المال.. وقد أوضح أنه ما لم يتحقق هذا الشرط فلن يقبل أي اتفاق معنا».

فقال بروسبيرو: «لقد تمسك بهذا الشرط نفسه حين دخل فى خدمة ملك فرنسا، فهو بهذا إنما يبرر الرشوة التي يقبضها».

فقال المركيز: «من يدري؟.. لماذا لا يكون مخلصًا في هذا الطلب؟. ولم لا يكون إنقلابه على فرنسا ناشئًا من نكثها لعهودها له؟».

– هذا ما سوف يقوله، ولكن العالم لن ينخدع.. بل إن ذلك سيجعل شعار بيته: «الطاعة لمن يدفع».

– أهذا كل ما ترجوه؟

– أحسبني كنت أخالف طبيعة البشر إذا لم أرج ذلك، فقد مات أبي مكسور القلب منفيًا مطرودًا من أعدائه الذين سلطهم عليه ذلك الأميرال.

– ربما لم يكن في مقدور دوريا أن يكبح جماحهم.. لقد كان آل فريجوزو يعملون

لصالح فرنسا.

– وكان آل دوريا يعملون لصالح آل فريجوزو، لأن ذلك يلائم أغراضهم.. إن آل فريجوزو قد خلقوا من المادة التي تصنع منها الدمى.. أما نحن آل أدورنو فلسنا كذلك. ومن هنا أثرهم دوريا علينا، ولو استطاع لقطع دابرنا جميعًا.

فقال دل فاستو: «هذه افتراضات لا دليل على صحتها ». ولكن بروسبيرو سارع إلى الدفاع عن رأيه قائلًا: «إن فيلبينو قد ربطني إلى مجداف كما لو كنت مجرمًا، وكان يريد أن يسلمني إلى السلطات البابوية. وهذه حقيقة لا شك فيها كما تعلم».

فقال المركيز: «إن فيلبينو غير عمه.. وقد فعل ذلك ليشفى حقده عليك».

– إني لأعجب منك يا ألفونسو إذ تدافع عن دوريا كل هذا الدفاع.

– إنى لا أحب أن أعتقد أني استأجرت للإمبراطور مغامرًا طماعًا قد يخونه حين يلوح بريق نفع مادي أكبر في جهة أخرى.

– إطمئن.. فإن الإمبراطور من الغنى بحيث لا يحدث ذلك أبدا.

– وددت لو نطمئن إليه لأسباب أخرى.

– إذن.. أنت تطلب المحال.. فكن مثلي وارض بالواقع؛ وإن كنت في الحق أشك في أن هناك ما يدعو إلى اطمئناني.. إنك قد حلت دون حملي إلى البابا ليقتلني بالنيابة عن آل دوريا، كما أنك فوت على فيلبينو فرصة قتلي ضربًا بالسياط وأنا مقيد على المجداف.. ولكن هذا لا يمنع أن أتلقى فيما بعد طعنة غادرة بين أضلعي في ليلة حالكة الظلام.. إن آل دوريا سوف يغتالونني بأية وسيلة في أول فرصة تلوح لهم.

فقال له المركيز: «في هذه الحالة يدفعون ثمن جرمهم غاليًا».

فابتسم بروسبيرو ساخرًا وقال: «حينذاك.. تنمو أزهار الانتقام على قبري.. وإنها لفكرة تبعث العزاء في النفس عل كل حال..».

فوضع المركيز يده عل كتف بروسبيرو متلطفًا وقال له: «ما أظن ذلك يا بروسبيرو..

إني لا أركن إلى رأي كرأيك هذا، يكون صادرًا عن عداوة شخصية. ولكن كما أن ظل الإمبراطور قد حال دون إرسالك إلى روما مقيدًا بالأغلال، فهو كذلك سيظل باسطًا حمايته عليك.. إنك ضابط في خدمته وسأذكر بذلك دوريا بالأسلوب الذي يجعل منهم حماة لك بدل أن يغتالوك».

وكان بروسبيرو يقدر لصديقه المركيز جميل وفائه وحسن عنايته، لكن هذا لم يجعله يطمئن من ناحية آل دوريا، ولا غير من عزمه على اتخاذ حيطته منهم، وكان من وسائل هذه الحيطة أن يستعين بالضابط «لوملينو»..إذ تذكر موقفه النبيل حين تدخل ذات يوم ليحول دون فيليبينو وضربه بالسوط وهو أسير.

وتذكر شيئًا آخر.. ذلك أنه لم يطلب منه حين فك أساره أن يعطي كلمة الشرف كغيره من الضباط الأسرى، ففي استطاعته إذن إذا شاء أن يقفز ليلًا من السفينة محاولًا السباحة إلى البر بينما تكون السفن راسية في الميناء.كما يمكنه أن يقدم التماسًا إلى لوملينو مؤيدًا بصك منه بقيمة الفدية عن نفسه.

وقد وازن بين الأمرين ثم انتهى إلى اتخاذهما معًا، حين تصل السفينة إلى هدفها. ولم يكن هدفها جنوا بل خليج سبتزيا، فهناك قلعه ليريسي المشرفة على رأس في البحر. وكانت هذه القلعة ملكًا لأندريا دوريا وقد استقر فيها في انتظار مستقبله.

وعند ذلك اللسان رست السفن عند الغروب، وجاء الأمر من سفينة القيادة بأن ينزل الضباط إلى البر ومعهم الضباط الأسرى، ليتوجهوا بهم إلى الأميرال أندريا دوريا.

وتسلم لوملينو هذا الأمر مثل غيره، وكان بروسبيرو بين الذين أبلغوا إياه. ولم يكن يتوقع سير الحوادث بهذا الشكل وكان لابد له أن يتخذ قرارًا سريعًا. ولقد اتخذه، وكان واقفًا مع لوملينو عند مدخل القمرة حين أمر هذا أحد الحراس بأن يعد زورقًا ذا ستة مجاديف. وكان لوملينو قد استعد للنزول إلى البر، فوضع على كتفيه عباءة سميكة إذ كان الجو باردًا وقت الغروب، بينما أضيئت المصابيح الثلاثة الضخمة التي في مؤخر السفينة خلف القمرة، غير أن هذه بقيت في الظل، وكذلك الرواق التي تحتها مباشرة. وفي ذلك

الظل وقف الرجلان وكأنهما شبحان.

وقال بروسبيرو برقة وكأنه يتنهد: «إني أحس تطيرًا من الذهاب إلى ليريسي».

فسأله لوملينو: «ما الداعي إلى التطير؟. سوف تجد فراشًا وثيرًا تبيت فيه».

فقال بروسبيرو: «ذلك ما أخشاه.. أن أحدًا من آل أدورنو يجب ألا يستغرق في النوم أكثر مما يجب إذا نام على سرير آل دوريا».

فنظر إليه لوملينو متفرسًا، ولكن العتمة جعلته لا يتبين التعبير الذي على ملامح وجهه، ثم قال له: «هذه تهيؤات لا أساس لها».

فقال له: «ربما.. ولكن الحقد الذي جعلني أسيرًا على مجداف لا يمكن أن يكون قد زال أو نقص بعد تدخل ذي سلطان لإطلاق سراحي»

فقال لوملينو: «لا شك أنه كبح جماحه.. هذا إذا كان ذلك الحقد يهددك فعلًا... غير أن آل دوريا ليسوا بالقتلة».

– ليسوا قتلة حتى الآن.. ولكنهم قد يصبحون كذلك غدًا.. إنى أوثر أن أثق بك أنت يا سيد لوملينو.. وأنا أسيرك أنت ولست أسير فيليبينو. فلماذا تخشى المطالبة بحقوقك؟

فغمغم لوملينو قائلًا: «أخشى؟».

واستأنف بروسبيرو كلامه فقال:

– إذا كنت غير خائف فهيا اطلب فديتي التي هي حقك وحدك.. أم تريد أن أحددها أنا؟ أيرضيك ألفا دوكات؟

– ألفا دوكات؟.... رباه.. إنك لا تقدر لنفسك ثمنًا رخيصًا.

– ولن يرخصني أحد فى العالم.. أتقبل هذا المبلغ فدية لي؟

– مهلًا مهلًا يا صديقي.. من الذي سيدفع لي هذه الفدية؟

– بنك سانت جورج... وسأسلمك أمر الدفع توا.. قبل أن أرحل.

فضحك لوملينو وتنهد في آن واحد. ثم قال: «حقًا.. إن مثل هذا الرحيل يسعدني... ولكني لا أقرك على قولك أني أخشى الطالبة بحقي.. فإن أندريا دوريا ليس بالرجل الذي يمزح معه».

– أتعني بذلك أنك لا تقبل، وأن علي أن أذهب إلى القلعة؟

– أحسب أن ذلك أمر لابد منه مع الأسف.

– هذا شيء يوسف له حقًا.. لكن انتظر لحظة.

ثم عاد بروسبيرو إلى حجرته القريبة وكأنه نسى فيها شيئًا.. وسمعه لوملينو يقول مندهشًا: «ماذا هنا؟».. فتبعه لوملينو نحو الظل وسأله: «ماذا؟».

فأجاب بروسبيرو: «إني لا جد...» ثم سكت ولم يتم عبارته، ومضى في بحثه خلال الغرفه.. فقال له لوملينو: «انتظر حتى آتيك بمصباح». ثم انثنى محاولًا مغادرة الغرفة، وسرعان ما وجد هذا عنقه وقد أحاطت به ذراع بروسبيرو، بينما صارت إحدى ركبتي هذا في أسفل عموده الفقري. وقال له بروسبيرو:

– إن ما يجب عمله، يحسن أن يعمل في الظلام، وأصبح لوملينو في قبضته بلا حول ولا قوة، ثم شعر بيده تتحسس عباءته بحثًا عن خنجره، وكان قد كاد يختنق من ضغط ذراعه فعجز حتى عن الصياح.

وغمغم بروسبيرو قائلًا: «يؤلمني أن أعاملك هكذا.. وقد كان خيرًا لك لو أخذت الفدية.. والمهم عل كل حال أني لن أذهب إلى ليريسي..». ثم سحب فريسته إلى الوراء نحو الكوة التي تؤدي إلى الحجرة السفلى، وكان بروسبيرو قد فتح تلك الكوة حين دخل حجرته. ومضت ثوان كأنها أعوام وهو يبذل كل قوته في سحب لوملينو حتى أرقده على الأرض عند حافه الكوة، ومال عليه لحظة ليستوثق من أنه لا يزال حيًا يتنفس، ثم جرده من سيفه وعباءته، وربط يديه بحزامه، ولم يكن لديه متسع من الوقت ليكمم فاه أيضًا، ثم

أدلاه برفق على السلم وتركه ينزلق في المسافة القليلة الباقية ليستقر في القاع كتلة جامدة. وبعدئذ أغلق الكوة وارتدى عباءة لوملينو وتمنطق بسيفه... ولم يستغرق ذلك كله من البداية إلى النهاية سوى ثلاث دقائق.

وكان الحارس ينتظر على الرصيف الذي بأسفل السفينة، فرأى شخصًا طويل القامة يرتدي عباءة وقلنسوة وهو يخرج من القمرة ويهبط الدرج في بطء. وكانت العباءة حمراء كما بدت في الضوء الخافت. فقال له وهو يحسبه لوملينو:

– كل شيء أعد الآن يا سيدي الكابتن..

فلوح له بيده وقال له بصوت مكتوم: «إلى الأمام إذن».

وهبط الحارس إلى الزورق الذي كان ينتظر، ومضى بروسبيرو وراءه على مسافة منه، ثم انتظر الحارس وسأله: «والسيد بروسبيرو؟».

فلم يجب بروسبيرو إلا بأن أمره: «هيا» وربما استغرب الحارس ذلك ولكنه لم يسعه إلا الطاعة.

وأعملت المجاديف، وابتعد الزورق عن السفينة متجهًا إلى الشاطيء. وفي وسط الطريق على مسافة ربع ميل من سفن فيليبينو التي كانت لا يرى منها في الليل سوى مؤخرها، مد الرجل ذو العباءة يده وأمسك ذراع الحارس وأمره قائلًا: «دع الزورق يقف ». وقبل أن يفيق الحارس من دهشته وقف بروسبيرو أمامه مكررًا الأمر بالوقوف، في حين ترك العباءة تسقط من فوق كتفيه. ولم يكن وجهه واضحًا في الظلمة ولكن الحارس بدأ يشك في أمره، وأخذ يميل إلى الأمام متفرسًا فيه، ثم وقف على قدميه وهو يسب ويصخب، وكان ذلك ما أراده بروسبيرو، فما كاد الحارس يقف حتى دفعه بيده فجأة إلى الماء فسقط فيه قبل أن يقول كلمة أخرى، على حين كف الأسرى عن التجديف من شدة الدهشة التي اعترتهم.

ووقف بروسبيرو لحظة حيث كان الحارس واقفًا ويده على دفة الزورق، ثم قال

للأسرى:

– الآن يا فتيتي.. هيا إلى الحرية.. اثنوا ظهوركم وجدفوا كما لم تفعلوا قط من قبل.. لأننا لا نلبث قليلًا حتى نطارد، وإذا أدركونا عدنا إلى الجحيم. فهيا جدفوا بأقصى قوتكم.

وكان ذلك كافيًا لايضاح الوقف. فأخذ الأسرى الستة – وكانو كلهم من الأسبان – يصيحون صيحة الدهشة والفرح. وكان الحارس لا يزال يسبح في الماء جاهدًا وهو يتوسل حينا ويسب حينا آخر. فصاح به أحد الأسرى في نشوة الفرح بالحرية: «اطو سوطك الآن يا ابن الكلب». وصاح به آخر: «اغرق وعليك اللعنة يا ابن الزنا».

وهكذا جعلوا يصيحون به حتى ابتعدوا ومضوا نحو عرض البحر.

ونظر بروسبيرو خلفه، فرأى من بعيد السفينة «مورا» وعليها مصابيح تتحرك.

مغامرة الهروب

واستمر الأسرى في التجذيف طول الليل يحدوهم الأمل في الحرية فكانوا يبذلون من الجهد أشد مما كانوا يبذلونه تحت سوط الحارس. ولما صار الزورق على بعد ميل في عرض البحر كما قدر بروسبيرو، أدار دفته غربًا ليسير بمحاذاة الشاطئ، وكان يريد من ذلك أن يصل إلى جنوا. ولم يغفل عن الأخطار التي تنتظره هناك، ولكنه لم يكن يقدر أن يحصل على الموارد اللازمة له إلا من تلك المدينة. وقد وجد في حزام السيف الذي جرد منه لوملينو ست دوكات، فكان لزامًا عليه أن يستعير هذه النقود لسد حاجاته المباشرة. وكان ينوي اللحاق بأمير أورانج، عن طريق فلورنس، حتى تتاح له زيارة أمه.

وحينما انبلج الصبح، كان الزورق قد اقترب من التلال التي تحيط بقرية «لافانتو» وكان البحر خلفهم خاليًا ولا أثر فيه لمطارد، وبعد قليل رسا الزورق على شاطئ القرية، وهبط بروسبيرو إلى البر حيث مضى إلى حانة قريبة فأيقظ صاحبها من نومه، كما أيقظ بقالًا مجاورًا لها، وعاد إلى الزورق بعد قليل يصحبه غلام يحمل خبزًا ونبيذًا وستة قمصان وست قبعات للأسرى الذين حررهم من العبودية، كما أحضر مبردين للاستعانة بهما على فك قيودهم.

ولما خرج الزورق من الميناء أشار أحد النوتية إلى الوراء منزعجًا إذ كان قد بدا شراع عند الأفق، وكانت إحدى السفن مسرعة غربًا تساعدها ريح هبت بالنهار.

ولم يشك بروسبيرو في أن سفنا قامت لمطاردتهم، ولعل هذه واحدة منها. على أنه سارع إلى استغلال تلك الريح فأمر رجاله ببسط الشراع المثلث، وإذ مضى القارب بعد ذلك سريعًا بقوة الريح، جلس الرجال يأكلون ويشربون ثم أخذوا يبردون الأغلال التي قيدوا بها، ولما انتهوا من ذلك كانوا قد وصلوا إلى مياه قرية «بونا سولا». وقد بدت بيضاء أمام أشجار خضراء قائمة على تل وراءها..

وكانت السفينة ما زالت تبدو خلفهم على مسافة تقرب من ثلاثة أميال، وهي تزداد في سيرها سرعة، وفي ذلك ما يهددهم بفشل مغامرتهم الجريئة بعد ساعة، وعلى هذا ضاعف الأسرى من نشاطهم في التجذيف.. وفكر بروسبيرو هنيهة ثم قال لرجاله: يجب أن ننزل إلى البر توا».

فسرهم ذلك جميعًا، وهناك على رمال الشاطئ الذهبية، اقتسم معه ما بقي لديه من مال قليل فخص كلًا منهم نصف دوكات، ثم تركهم يمضون في سبيلهم فرحين مغتبطين، وقصد وحده إلى القرية حيث استأجر بغلًا، قطع عليه حوالي عشرين ميلًا على الشاطئ حتى وصل إلى شيافاري، وفيها استبدل بالبغل جواد بريد أوصله إلى أسوار جنوا عند الغروب؟

ولما اقترب من باب «بورتا دل اركو» كانت الأجراس تدق من أبراج الكنائس فأسرع، حتى يدخل من ذلك الباب قبل أن يغلق، لكنه اضطر إلى التمهل لسماعه جرسًا آخر أشد وقعًا على نفسه، كان يدقه من خلفه رجل يقود بغالًا تجر عربة، ووراء هذه العربة رجلان يحملان آلات عجيبة تشبه المقابض الحديدية، ولما مرا به نظرا إليه شزرًا وقالا له: «ألم تسمع الجرس؟». ثم مضيا وراء العربة دون أن ينتظرا جوابًا منه.

وكان هناك حارس مضطجع على عتبة دار الحراسة وفي يده رمح، لكنه لم يتحرك من مكانه وتركه يدخل من الباب دون أي اهتمام به.

ومضى بروسبيرو فوق جواده في طريق فيا جوليا ثم طريق مارًا بسان دومنيكو، فطريق الكامبتو. ومضي بعد ذلك في شوارع ضيقة قاصدًا إلى «سان سيرو» حيث يقطن سيبيوني دي فيشي الذي عقد عليه كل آماله.

على أنه كلما تقدم في طريقه كان يزداد شعورًا بأنه في جو غير طبيعي فالشوارع كلها خالية من السابلة بشكل لم ير له مثيلًا من قبل، وكان القليلون الذين صادفهم في طريقه يمشون مسرعين كحيوانات برية يطاردها صياد.. وهكذا بدت المدينة في سكون المقابر ووحشتها، ولم تكن هناك أضواء تبدد ظلام المساء، فالفنادق والمنازل كلها مغلقة الأبواب

والنوافذ، فيما عدا فندق صغير بالقرب من سان دومنيكو، كانت تنبعث منه مع الضوء ضجة ضحكات مفتعلة.

ولما صار بميدان الكامبتو، حيث كان السكون شاملًا أيضًا، جفل جواده بغتة وحاد قليلًا عن طريقه ليتفادى رجلًا ممددًا على الأرض. فجذب بروسبيرو الزمام ونزل إلى الأرض وانحنى على ذلك الرجل وإذا به يجده جثة هامدة، فتراجع إلى الوراء ووقف في مكانه.. ثم رأى رجلًا يمشي في الميدان مسرعًا فصاح به: «هنا رجل ميت..». ولكن الرجل مضى في طريقه وهو يقول: «دعه حيث هو إلى صباح غد..».

وظن بروسبيرو أن الرجل يسخر منه، وجعل يسائل نفسه: «أليس هنا رجال شرطة يسيرون ليلًا في الشوارع تحت الحكم الفرنسي؟».

ثم خطر بباله أن يصيح ليوقظ السكان، لكنه خشي أن يجلب على نفسه المتاعب، فركب جواده ثانية واستأنف المسير.

وأخيرًا وصل الي «سان سيرو» حيث قصر آل فيشي. وكان القصر في ظلام دامس، والأبواب مغلقة كلها.. فأخذ يقرع الباب مرة بعد أخرى حتى سمع أخيرًا وقع أقدام تقترب ثم صوت مزلاج يرفع من وراء الباب، وفتحت فوهة ضيقة بالباب الضخم ورفع من ورائها مصباح حتى حاذى وجه بروسبيرو وسمع صوت شيخ يقول له: «ماذا تريد؟».

وكان الشيخ ينظر إليه من وراء المصباح بعينين يتجلى فيهما الغيظ. واستطرد قائلًا:

– من أنت؟ ولماذا تقرع الباب؟

– إني أريد رؤية السيد سيبيوني. هل هو بالدار؟

– بالدار ؟... السيد سيبيوني؟.. كيف يكون هنا؟ وكيف تسأل هذا السؤال؟

– يحسن بك أن تجيب أولًا عن سؤالي.

– إن السيد سيبيوني قد ذهب منذ أسابيع. مثل جميع الأخرين.

– وما يدريني؟ ربما ذهب إلى لافانيا، أو إلى بيته الريفي في أكوى. وربما إلى أبعد من

ذلك. لكن كيف توقعت أن تجده هنا؟ هل جئت من العالم الجديد. أم من أين جئت؟

ثم خرج من الفوهة الصغيرة التي بالباب ورفع المصباح إلى أعلى وأشار إلى نقطة على الباب وقال: «ألا ترى هذه العلامة؟».

ونظر بروسبيرو إلى حيث أشار الرجل فرأى علامة الصليب مرسومة باللون الأحمر بشكل رديء على الباب، فسأل الرجل: «ماذا تعنى هذه العلامة؟». وشد ما كانت دهشته، بل شد ما كان فزعه إذ أجابه الرجل:

– إنه الطاعون يا سيدى.. لقد سلطه الله علينا بذنوبنا. ويقال إنه انتقل إلينا من نابولي حيث أرسله الله أولًا ليعاقب عصابات الكافرين السيد سيبيوني، وكأنما يمكن الفرار من عقاب الله.. وأغلق السيد تريفولزيو وأصحابه الفرنسيون قصر الحكومة على أنفسهم وكأن جدران ذلك القصر لا ينفذ منها غضب الخالق.

وبقى بروسبيرو ساكتًا وقد فغر فاه من الدهشة والفزع، بينما استطرد الرجل قائلًا:

– حقًا أيها السيد لقد جئت إلى جنوا في وقت نحس.. ونحن هنا ليس معنا سوى الموتى الذين لا يبالون شيئًا، والفقراء أمثالي الذين لا يجدون لهم مكانًا آخر يفرون إليه. اذهب أيها السيد والله معك. اذهب من هنا بعيدًا.

وبقى بروسبيرو برهة ذاهلًا، ثم امتطى صهوة جواده أخيرًا، ومضى في طرق ضيقة وعرة نحو الشاطئ.. وكان عليه أن يعيد جواده إلى المكان الذي استأجره منه على مقربة من الفندق الذي في «شيافاري». ولكي يبيت في ذلك الفندق أيضًا بعد أن يئس من وجود الصديق الذي كان يعتمد عليه، ولم يبق لديه شك في أن أصدقاءه الآخرين قد فروا أيضًا من المدينة.

ولم يصادف أحدًا في طريقه، لكنه كان يسمع من بعض البيوت التي مر بها ولولة تشق سكون الليل.. ولما اقترب من الفندق سمع ضجة أصوات وغناء. وكان عهده به أنه لا يرتاده إلا المنعمون الذين لهم صلة بأعمال الميناء، كالتجار وضباط الملاحة وأصحاب

السفن، فعجب إذ وجد أن رواده في هذه الليلة كلهم من الطبقة الدنيا بين مساعدين لحراس الأسرى في السفن ونوتية عاديين وحمالين وأشباههم، وقد أخذوا جميعًا يحتسون الخمر ويصخبون ويضحكون كضحك المردة والشياطين في الجحيم.

وسكت القوم حين رأوه يدخل، وكفوا بغتة عن الضحك والغناء والموسيقى، وحملقوا جميعًا في هذا الوجيه الذي دخل عليهم، إذ كان لا يزال يرتدي بذلة دل فاستو الحريرية السوداء وعليها عباءة لوملينو الحمراء.

ولكنهم لم يلبثوا قليلًا حتى عادوا إلى ما كانوا فيه من مرح، واجتمعوا حوله حاملين كؤوسهم في أيديهم، وأخذوا يرحبون به ويمازحونه، فصاح بهم قائلًا: «إلى الوراء.. لا تحبسوا عني الهواء.. في أي ركن من أركان الجحيم دخلت؟».

وعندئذ ضحك بعضهم وزمجر الآخرون، بينما شرع واحد منهم أكثر جرأة في جذبه من عباءته.. وفي هذه اللحظة جاء «ماركانتونيو» صاحب الفندق فاقتحم الجمع، وعرف بروسبيرو من أول نظرة ألقاها عليه، فصاح قائلًا: «سيدى بروسبيرو..».

فسأله: «أي طائفة من الناس جمعت عندك الليلة؟ »

– إنهم الزبائن الذين تركهم لنا الزمن. لقد عدت إلى المدينة في وقت نحس يا سيدى. ولكن تعال معي. عندي غرف في الطابق الأعلى. وكل بيتي تحت تصرفك. تعال يا سيدى.

وقاده ماركانتونيو وهو يزيح عنه الجمهور الصاخب، وكان بعضهم يقول النكات فيضحك الآخرون. وكانوا يقولون إن الطاعون سوف يذهب بكبريائه. وإنه متى ورم جسمه تذكر أن مآله الموت مثل أفقر الناس. وسارت أمامه خادمة حسناء، وفي يدها مصباح مضيء، وتبعه ماركانتونيو. ثم أدخله غرفة مناسبة ذات أثاث حسن ولكن كان الهواء مكتومًا بها لطول إغلاقها رغم حرارة الجو.. وأخذت الفتاة تشعل من المصباح الذي بيدها مصابيح أخرى في شمعدان على المائدة. ثم مسح ماركانتونيو وجهه الأحمر وقال: «نسأل الله الرحمة بنا.. لقد ثقلت علينا يد القدر؟» فقال بروسبيرو: «أهكذا تصبح جنوا داعرة في ظل الموت؟... إن عقول الناس قد انقلبت. وأحسب أنهم صاروا خنازير؟».

– ألتمس لهم عذرًا يا سيدى.. لقد جنوا من الخوف فهم يحاولون دفعه عنهم بالسكر والعربدة والفجور.. ساعدنا الله جميعًا.. لقد ساءت الأحوال يا سيدي منذ جاء السيد دوريا بالفرنسيون ليحكمونا.. إن جميع الذين ساعدوه على إحداث ذلك الانقلاب يلعنون أنفسهم الآن، ويتمنون لو عاد الزمن الذي كان فيه والدك هو الرئيس – رحمه الله –وجيء له بالعشاء وفتح النوافذ على مصراعيها رغم الاعتقاد بأن فتحها يؤدي إلى دخول الطاعون؛ وتركت الفتاة «يو فيميا» لتقوم على خدمتها، وكانت في عنفوان الشباب، ممتلئة الجسم، ذات شعر أسود، وشفتين قرمزيتين كثيرتي الإبتسام، وعينين ناعستين فيهما إغواء. وقد صبت له الماء ليغتسل وأضافت إليه قليلًا من الخل ذاكرة إن في ذلك وقاية له من العدوى. ثم قالت له: «ينبغي لك أن تقي نفسك، وسأعاونك على ذلك». ثم جاءت بجمرات من النار في موقد، ووضعت به بعض الأعشاب العطرية لتبخر الغرفة، وقالت له: «لست أخشى على نفسي من العدوى، لأني أحمل تميمة تقيني منها، وما كنت لأرضى أن أبيعها بكنوز العالم طرا. لكن سيادتك تستطيع أن تطلب مني أي شيء آخر.

وقامت على خدمته وهو جالس إلى المائدة بمثل ذلك الإغواء، وكررت ما قاله صاحب الفندق من إن الطعام لا يليق بمقامه، مع إنه كان في الواقع طعامًا جيدًا. حتى إذا تناول عشاءه حثته على احتساء مزيد من النبيذ وضربت له المثل بأن ملأت لنفسها كأسًا، وتجرعتها مؤكدة أن في ذلك وقاية من الوباء.. وحاولت جهدها أن ترفع الكلفة بينه وبينها، حتى لقد صارحته بأنها مالت إليه. ولكنه غمغم قائلًا لها وهو يغالب النعاس: «شكرًا لك».

وكان الطعام أشبه بمخدر لجسمه الذي أضناه السفر والمؤثرات وعندئذ مضى إلى سريره ونام نومًا عميقًا، ولم توقظه منه الضجة التي استمرت بالطابق الأدنى حتى مطلع الفجر.

الهروب من الموت

ولم يكن بروسبيرو يدري حين سخر من الفتاة «بيو فيميا» أنها سيكون لها أثر شديد في مجرى حياته.. وقد قضى النهار التالي في التنقل بين بيت وآخر من بيوت الطبقة الأرستقراطية في المدينة، وبدأ بزيارة بيت «سبينولا» إذ كانت صلته به تبرر الالتجاء إليه. ولكن جميع تلك البيوت كانت موصدة الأبواب. وإذا كان ببعضها أحد، فمن الخدم لحراستها أثناء غياب أصحابها.. ولجأ في النهاية إلى بنك «سان جورج» حيث كشف عن شخصيته لمديره السيد «تاديو دل كامبو» الذي يعرفه. وكان هذا قد بقي في مركزه برغم الوباء. فرحب به وأقرضه خمسين دوكاتا رأها كافية لحاجاته الضرورية ولنفقات السفر إلى نابولي كما اعتزم.

وفيما هو عند مدير البنك، كان ثلاثة من الجنود الفرسان يسألون عنه في الفندق بعد أن تتبعوا أثره إلى «بونا سولا» ثم إلى «شيافاري» حيث علموا فيها أنه استأجر جوادًا وذهب به إلى جنوا.

ولم يكن ماركانتونيو صاحب الفندق يدري شيئًا عما جاءوا من أجله، وعلى هذا قال لهم: «إن السيد بروسبيرو وصل الليلة الماضية..» فنزل الجنود الثلاثة عن جيادهم مسرورين بهذا النبأ وقالوا: «إن الطير قد وقع في الفخ أخيرًا..». وهنا فقط أدرك صاحب الفندق ما هم بصدده فلما سألوه: «أين بروسبيرو الساعة؟».

أجاب:

– لست أدري أين هو الآن. ولعله غادر المدينة..

وكانت يو فيميا واقفة خلفه حينذاك فتطوعت للوشاية ببروسبيرو قائلة لهم: «إنه سيعود حتمًا. وسيبيت هنا..» وهمس ماركانتونيو في أذن الفتاة متوعدًا إياها بالضرب

المبرح. ولكنها لم تعبأ بوعيده وقالت لهم:

– ألا تدخلون وتنتظرون عودته؟ عندنا نبيذ جيد.

وقد شغلوا بالنبيذ والفتاة، ولم يعيروا صاحب الفندق إلتفاتًا. غير أن يو فيميا كانت ترقبه، فلما رأته يتسلل إلى الخارج أدركت أنه يريد أن ينذر بروسبيرو حين يجيء بما ينتظره كي لا يدخل. وكان هذا ما اعتزمه الرجل، فما كاد يلمحه من بعيد خارجًا من بنك سان جورج حتى سارع إليه وأخبره بقدوم أولئك الجنود الثلاثة قائلًا له: «لاشك أنك تدرك قصدهم..» وكان بروسبيرو يعرف ما يريدون، وأراد أن يشكر لصاحب الفندق إخلاصه ويقظته، ولكن الرجل اسكته قائلًا: «إن يو فيميا بنت الزنا قد أغرتهم بانتظارك. فهيا اذهب بعيدًا عن هنا فورا..» وفي هذه اللحظة كان الجنود الثلاثة قد لمحوه فخرجوا من الفندق مسرعين ليدركوه، ثم جروا في أثره كالكلاب في أثر الصيد، لكنهم كانوا متعبين من ركوب الجياد على حين كان هو قد استراح وغدا أسرع منهم جريًا.

واستمرت المطاردة إلى الكاتدرائية، ثم إلى ميدان القصر حيث كان أبوه صاحب الأمر والنهي منذ عام واحد.. ثم مضى في أزقة ضيقة متصاعدة نحو كارينيانو. وقد اختار تلك الأزقة المتشابكة إذ وجدها خير سبيل لتضليل مطارديه. على أنها مع خلوها من السابلة لم تخل من أحد هنا وهناك كان ينظر إليه متعجبًا وهو يجري، حتى إذا جاء مطاردوه دلهم على الطريق الذي سلكه.

وبدأ يشعر بالتعب ويفكر في أن يعود أدراجه ويهبط التل، وإذا به قد حاد مع الطريق إلى ميدان صغير وبقعة خضراء بها أشجار تطل عليها بيوت صغيرة كلها مغلقة الأبواب والنوافذ، وبينها كنيسة صغيرة أغلق بابها كذلك. فتريث إذ بدا المكان مألوفًا له. وكانت هناك أربع طرق تتفرع من تلك البقعة، أضيقها الطريق الذي عن يمينه، وهو طريق مرتفع تؤدي إليه ست درجات تحت قناطر «بواس» فسارع إلى ارتقائها حتى وصل إلى قمة الطريق، ومن هناك سلك طريقًا ضيقًا تظلله الأشجار وعلى جانبيه أسوار عالية للقصور القائمة فوق مرتفعات كارنيانو. وكان السور الذي عن يمينه مغطى «بالعليق»

فلما رآه أثار في نفسه ذكرى مضى عليها عام. هي ذكرى مطاردته للجنود الفرنسيين والرعاع في اليوم الذي فتحت فيه جنوا أبوابها للمحتلين. وقال لنفسه: «إن أهل هذه الدار مدينون لي بإنقاذهم من أولئك الطغاة المعتدين، وما أظن أنهم يتنكرون لي الآن..».

ومضى مسرعًا إلى باب الدار، لكنه وجده موصدًا، فوقف يتلفت حواليه ويتأمل السور الذي تدلى النبات الكثيف فوقه وكأنه سلم من حبال أنزله له القدر ليتسلقه. وإن هي إلا لحظة واحدة حتى تسلقه ثم هبط قفزًا إلى داخل الدار.

ووقف بروسبيرو ينفض التراب عن ملابسه، ويتأمل الحديقة التي هبط فيها والقصر الواسع الذي وراءها وقد بدت طبقات الرخام الأبيض والأسود على واجهته، كما بدت الحديقة حاوية أنواعًا مختلفة من الورود والأزهار. ولكن جمال المكان كان يشوبه إهمال ظاهر، فقد نما العشب فوق الأرض، وكانت أوراق الشجر تغطي دروب الحديقة.

وفيما هو كذلك فوجىء بسماعه صوتًا خفيفًا من خلفه، فلما التفت ليرى ما هناك، وقعت عيناه على أجمل منظر شهده في حياته كما صرح بذلك فيما بعد.. لقد رأى فتاة قادمة نحوه في سكون دون أن تبدي دهشة أو خوفًا.

وكانت طويلة القامة في اعتدال، ترتدي ثوبًا حريريًا مفضضًا. ولها وجه مستطيل شاحب اللون تنم ملامحه عن سكينة وثقة. وكانت من الجمال والفتنة بحيث حسبها من الملائكة لا من البشر. وأدرك من أول نظرة أنها الحسناء ذات الرداء الأبيض التي أنقذها من أيدي الأشرار منذ عام.. وكانت معها سيدة مسنة ترتدي ثوبًا أسود، وقفت وراءها كالديدبان.. وقالت له الفتاة الحسناء:

– لقد اخترت طريقة عجيبة للدخول.. أم تراك قد سقطت من الجنة؟

فأجابها وفي صوته ما ينم عن فرط تأثره: «بل أحسبني سقطت إلى الجنة..».

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت: «بل ربما إلى الطريق المؤدي إليها. من الخطر أن يقفز الإنسان إلى مكان دون أن يدري أين تقع قدماه؟ ماذا تريد هنا؟».

وكان صريحًا فقال لها: «إني هارب من الموت، وقد جئت أحتمي بهذه الدار..».

– ولكنك وقعت بين ذراعي الموت.. يا لك من بائس.. إن هذا البيت موبوء.

– موبوء ؟.. ولكن لا. إن الطاعون لا يمكن أن يمسك أو يقترب منك.

– أتحسبه يميز بين الناس؟ ولكن لعله يفعل، فقد أصبت به. ثم شفيت منه. ولكن ربما يكون من الخطر الاقتراب مني. إن كل شيء هنا مسمم.

– فليكن.. إن ذلك لا يجعلني أسف على أني جئت إلى هنا.

– بل ينبغي لك أن تأسف إذا كنت تريد الحياة.

– لقد وجدت حياتي هنا.

– لكي تموت غدًا كما أخشى ؟.

– لا ضير علي من ذلك، فإني أكون قد حييت يومًا. يومًا في مدى ثلاثين عامًا.

– أحسب أننا نلعب بالألفاظ.. ولعلك تحسبني أمزح لكي اقتص منك على دخولك بغير إذن، ولهذا تجيبني بالأسلوب نفسه.. ثم أخذت تتفرس في وجهه ثم قالت: «أحسبني رأيتك من قبل.. من أنت؟».

وكان واقفًا أمامها بقامته الفارعة، مرتديًا بذلة «دل فاستو» الفاخرة، فقال لها:

– اسمي بروسبيرو أدورنو يا سيدتي. وأنا في خدمتك.

وقد أزعجها ذكر هذا الاسم، ولكنها احتفظت بهدوئها وقالت: «لقد سمعت عنك..».

فقال لها: «عسى ألا تكوني سمعت ما يسوء؟..».

فسألته: «ألست الضابط الذي فر من الخدمة في أسطول البابا؟».

فأجاب في هدوء: «هذه هي الفرية التي يعبرون بها عن فراري من القتلة..».

– فسألته في دهشة: «أي قتلة تعني؟». فأجاب بقوله:

– أعني القتلة أنفسهم الذين أفر منهم الآن. القتلة من آل دوريا..

فقالت له: «قتلة من آل دوريا؟ ما هذه القصة التي تقولها؟»

فقال لها: «أقول الحقيقة يا سيدتي.. إن ذلك البيت النبيل لا يرتاح إلى وجودي على قيد الحياة..». فقطبت جبينها وبانت عليها الدهشة، ثم وضح لها الأمر فقالت:

– لقد تذكرت الآن.. إنك أنت الذي أنقذتني في السنة الماضية من بعض الجنود الفرنسيين في هذه الحديقة.

– كنت آمل أن يكون الأمر كذلك.

– كنت تأمل؟ ألا تذكر أنك أنقذت امرأتين هنا من الإهانة ومما هو شر منها في اليوم الذي دخل فيه الفرنسيون جنوا ؟

– أجل إني أذكر ذلك. وكان هنا رجل ممدد على العشب، وهناك رجل شيخ جرح في رأسه. وأنت.

ثم سكت لأنه لم يرد أن يعترف بأنه لم يتذكر وجهها تمامًا.

وفي هذه اللحظة سمعا أصواتًا في الزقاق وغمغمة خارج الباب فسكتا لينصتا. ثم ارتفعت صيحة أعقبها ضجيج. فقال بروسبيرو همسًا:

– إن هذا النبات الذي ساعدني على القفز قد حماني الآن. وإني لموقن أن الكلب الذي تعلق به منذ لحظة قد دقت عنقه.

وكانت قد فارقها هدوؤها فقالت له:

– تعالى معي. إني لا أقدر أن آخذك إلى داخل الدار خوف العدوى ولكن المضيفة «السلاملك» آمن لك. وما دام سوء حظك قد جاء بك إلى هنا فيجب أن تقبل هذه المجازفة والله في عونك.

– إني يا سيدتي لا أعد حظي شيئًا من أجل ذلك، بل أراه أسعد من كل ما كنت

أتصور.

ومشى بجانبها، والسيدة المسنة على مسافة قريبة منهما. وبعد خطوات وصلا إلى باب الحديقة الموصد وكان هناك من يقرعونه ويصيحون: «افتح.. افتح..».

فنظرت إليه الشابة متسائلة ورد عليها بابتسامة وسألها: «هل الباب متين؟».

– ليس متينًا إلى الحد الذي يثبت معه حتى تصل إلى المضيفة «السلاملك» وأشارت إلى سياج من الأشجار وأمرته قائلة: «أدخل هنا».

– إلى متى يمكن هذا المكان أن يخفيني عن الأنظار؟ هل معك رجال في الدار؟

– رجلان وأنت.. ولكن أحد الرجلين شيخ ضعيف، والثاني مريض بالطاعون في فراشه.

فقال لها: «إذن. لابد إلى من أن أواجه وحدي ثلاثة من الأعداء..».

وتحسس يديه سيفه وخنجر ثم قال لها: «ستتاح لك بعض التسلية فيما أظن؟».

فضغطت بيدها على ذراعه وقالت له بصوت مرتعش: «سيحين الوقت لذلك إذا اكتشفوا مكانك. ولكنهم لن يجدوك إذا اختبأت؟».

وأشارت مرة أخرى إلى ذلك السياج، بينما الضربات تتوالى على الباب ثم انقطعت بغتة وحل محلها سباب، ثم صوت حوار، فوقع أقدام تبتعد مسرعة.

وانصت بروسبيرو والشابة الحسناء حتى بعدت أصوات الجنود، فابتسمت ابتسامة هادئة. ثم سألها: «ما الذي أفزعهم؟».

فقالت: «لقد رأوا علامة الصليب على الباب. وكنت عازمة على أن أريها لهم لو أنهم اقتحموا الباب، إن أكثر الناس لا يحتملون رؤيتها..».

وتنهدت ثم نظرت إليه نظرة حزينة وقالت: «لعلي أوفي بعض الدين الذي في عنقي لك. وإني لأحمد المصادفة التي أتاحت لي ذلك..».

فقال لها: «ليس في الأمر مصادفة سوى أني سلكت هذا الطريق. ولما وجدت نفسي أمام هذه الدار فكرت في أن أطالب بالوفاء..».

ـ وددت لو استطعت أن أوفي بأكثر مما يتاح إلى الآن. ولكن ليس من الحكمة الوقوف هنا. فإن الهواء غير مأمون.

– وهل الأمان هو كل شيء؟

– ألم تأت إلى هنا طلبًا للأمان؟

– ولكن ذلك كان في حياتي الماضية. أما الآن فقد ولدت من جديد بعد أن رأيتك. فقطبت جبينها وقالت: سيدي. ما دمت لا أقدر أن أعرض عليك الضيافة في بيتي فلا عذر لي في إبقائك هنا.

– لا عذر؟.. أجل.. ولكن هناك سبب. فإني إذا ذهبت من هنا فذلك لكي أفقد حياتي التي أنقذتها أنت الآن، لا أمان لي في جنوا.

– وما الذي يحول دون خروجك منها؟

ودقت ساعة الكنيسة في تلك اللحظة فقال لها: «هذا هو الجواب. إن أبواب المدينة ستغلق الآن. ولابد لي من البقاء حتى غد على الأقل..».

ولم تجب الفتاة وإنما رسمت على صدرها علامة الصليب، ووقفت هي والمرأة المسنة حانيتي الرأس وأخذتا تتمتمان بالصلاة لمناسبة الغروب، وكشف بروسبيرو رأسه وصحبهما في صلاتهما.

ولما انتهت الصلاة نظرت إليه الفتاة في الغسق وبينت له الموقف قائلة: «لست أقدر أن آخذك إلى داخل الدار لأن العدوى فيه شديدة الخطر، وأحد الخدم راقد هناك يجود بروحه متأثرًا بالوباء. ولكن المضيفة التي اتخذتها مسكنًا منذ شفائي قد يكون الهواء بها أنقى مما بالدار. فإذا رأيت أن تجازف في حالتك الراهنة فأنا أضع ذلك المبنى تحت تصرفك..».

فقال لها: «إن الخطر ماثل في جنوا كلها فأنا بذلك لا أجازف بشيء..».

ونادت الفتاة «بونا» التي كانت تتبعها، وجعلتها تتقدّمها لتوقد الضوء ثم نادته إلى غرفة مستديرة ذات أثاث فاخر. وقد علق بالسقف مصباحان جميلان، ثم ذهبت بونا إلى الدار لتجيئه بالمسموح به من الطعام، وهو البيض والنبيذ. ولما عادت حذرتها سيدتها من أن تخبر أحدًا بوجود هذا الضيف ثم دعت بروسبيرو إلى الجلوس والراحة فقال لها: «لقد وجدت محرابًا في معبد..».

- لعلك تقصد معبد إله وثني.

ثم أخذت تذكر له طرفًا من معيشتها، فعلم أنها وحيدة من سلالة بيت مونالدي، وقد مات أبوها، ولا يعيش معها في هذا القصر الفسيح إلا مربيتها بونا والرجلان اللذان أشارت إليهما، كما ذكرت له أن هذا القصر الذي تسكنه ملك خالها المركيز دي فنارو. وقد مرض قبلها بالطاعون ومات به في «بادوا» ولم تجرؤ أرملته على العودة إلى جنوا خوف العدوى. ثم قالت له: إني مدينة بحياتي لبونا الوفية مربيتي منذ صغري فقد سهرت على تمريضي حتى شفيت من الطاعون. ولم تصب هي به لاكتسابها مناعة ضده منذ إصابها في صغرها.

ولما همت بالانصراف قال لها: «عبثًا أبحث عن الكلمات التي تعبر عن شكري لك.

فقالت له: «لا تنس أني أؤدي بعض دين لك في عنقي..». ثم حيته وانصرفت، وتبعها بنظراته حتى اختفت، ثم بقي هنيهة لا يحيد ببصرة عن الموضع الذي اختفت فيه.

وقبل أن ينام في تلك الليلة وضع أغنية شعرية وصف فيها كيف هرب من الموت إلى الحياة.

الألم والكدر معاً

استيقظ بروسبيرو أخيرًا وهو يشعر بألم في رأسه وثقل في جسمه. ووجد على صدره بقعًا عرف أنها بصمات أصابع الطاعون، يتركها حيث يحل.. ونظر حوله محاولًا أن يتذكر أين هو، فالتقى نظره بنظر شيخ عجوز نحيل يقف بجانب السرير، فقال له: «كم الساعة؟ من أنت؟».

فقال له الشيخ وقد بدا عليه الارتياح: «الحمد الله.. لقد عادت إليك الروح أخيرًا. ولكن يجب أن تظل راقدًا ولا تقوم..».

ثم تحسس جبينه بيده وقال له: «لقد ولت الحمى.. وكل شيء سيكون على ما يرام يا سيدي..».

فحملق فيه بروسبيرو ثم قال: «ولكن ما هذا الألم الذي أعانيه؟ كم الساعة الآن؟».

– لقد اقترب الظهر. واليوم يوم مولد القديس سانت لورنس. اليوم العاشر من أغسطس.

ففكر بروسبيرو هنيهة ثم قال: «لقد نسيت السنة يا سيدي..».

فضحك الرجل وقال: «ما دمت تمزح هكذا. فهذا دليل على أنك قد شفيت تمامًا..».

فسأله: «مم شفيت؟». وأجابه الشيخ وهو يبتسم: «من الطاعون طبعًا.. لقد مكثت هنا أسبوعين وأنت بين الحياة والموت. ولكنك فتى قوي البنية وقد قهرت الوباء ولله الحمد..».

– الطاعون ؟.. هل قلت إني مكثت هنا أسبوعين ؟... من أنت أولًا؟

– أنا أمبروجيو خادم المادونا «العذراء».

– المادونا؟ من تعني؟

وفي هذه اللحظة سمع حفيف ثوب، ثم دخلت الحسناء ربة الدار فقال لها أمبروجيو: «لقد استعاد وعيه.. ألم أقل لك أنه سوف يشفى..».

ولما رأها بروسبيرو أمامه بكل فتنتها قال لها:

– لقد استغلت كرمك يا سيدتي. فإني كنت قد رجوت أن تأويني ليلة واحدة وإذا بي قد مكثت أسبوعين.

فارتاعت من ضعف صوته وقالت له همسًا:

«صه.. يجب أن تستريح. وسنتحدث معًا حين تستعيد قواك..»

وقد استرد قوته بأسرع مما كان يرجوه، والفضل في ذلك لحسن التغذية وعناية أمبروجيو وبونا، وكانت الفتاة صاحبة الدار تزوره كل يوم ومعها أزهار يانعة تزين بها غرفته، فيحرص على أن يرمقها بنظره لا يحيد به عنها كي لا يفوته شيء من فتنتها. لكنه كلما أراد أن يفتح معها باب الحديث كانت تسكته خوفًا عليه من التعب، وتعده بأن تتركه يتحدث كما يشاء حين يشفى تمامًا. وكان ذلك وحده كافيًا لأن يتوق إلى الشفاء وأن ينفض عنه كل أثر للمرض بأسرع ما يستطيع.

وأخيرًا جاءت إليه يومًا وقد عاد أشبه ما يكون به يوم تسلق سور الحديقة. وكان أمبروجيو قد حلق له لحيته وساعده على ارتداء بذلته. وما إن دخلت الغرفة ووجدته قائمًا حتى انبته على تركه الفراش قبل الأوان، فابتسم لها وتقبل تأنيبها راضيًا. ثم قالت له: «لقد صبرت على مرضك صبر الشهيد..».

– صبر الشهيد الذي دخل الجنة.

– إن الطريق إليها يمر بأبواب الموت وقد أغلقت دونك.

– كلا.. بل الطريق إليها كان بتسلق سور.

فقالت له: «ما أعظم ثروتك من الكلام.. لكأن ألفاظك قلائد».

فنظر إليها وقال: «إني مدين لك بفضل لا يقدر؟ ومع ذلك لست أعرف اسمك. لابد أنه جميل مثلك..».

فقالت: «إن أصدقائي يسمونني جيانا..».

فقال لها: «إذن.. دعيني أنا أيضًا أهتف بهذا الاسم.. إنك لي أكثر من صديق.. وإنني.. إنني بمثابة طفلك الذي حنوت عليه. ولقد أنقذت حياتي مرتين..».

فابتسمت وهي تنظر إليه في حنو، وقالت له:

– فليكن ذلك يا بني... بشرط أن ترعى واجبات البنوة.

فقال لها: «سأكون لك الابن البار المطيع..».

ومكثت معه مدة أطول في ذلك اليوم.. وفي اليوم التالي تناولت معه طعام الغداء في المضيفة، وكانت بونا وأمبرجيو يقومان على خدمتهما.

وانقضت على هذه الحال سبعة أيام وهو يخيل إليه أنه في حلم من الأحلام السعيدة. وكان ذلك القصر الهادئ بمثابة واحة وسط المدينة الموبوءة. وكانت تصل إلى سمعهما أنباء الحالة السياسية، وقد بدأت الحرب تميل كفتها ضد فرنسا لصالح الإمبراطور شارل الخامس إمبراطور إسبانيا. وشاع أن الأميرال أندريا دوريا خرج على طاعة ملك فرنسا، وأنه مكث في قصره بليريسي ينتظر حتى تجهز سفنه الحربية بالعتاد والرجال. وكانت إيطاليا كلها ترقبه وتتساءل عما يعتزمه.

وضحك بروسبيرو حين سمع ذلك وقال لصاحبته:

– إني أعرف ما يعتزمه.. سيقبض أجره من الإمبراطور ويعيد جنوا إلى حماية إسبانيا.

فقالت له:

– ألا ترى أن حكمك عليه إنما يصدر عن بغضك إياه؟

– وهل تلومنني إذ أبغضه بعدما قلته لك؟

– لعلك لا تريد أن تعلم وجهة نظر الأميرال... إن ملك فرنسا قد حنث بعهوده له فيما يتعلق بجنوا.. هذا ما يقوله دوريا ليبرر تقلبه.. أفتصدقينه؟

– إنه لم يخطىء نحوي حتى يتأثر رأيي بذلك..

فقال لها:

– هناك مثل يقول: إن ما يريده الشعب يريده الله. فهل أهالي جنوا يصدقونه؟

– إنهم يصدقونه حين يطرد الفرنسيين من جنوا وبذلك يصلح خطأه الماضي.

– إذن ثقي بأنه سيطردهم... لكي يستعيد ثقة الشعب به ويصبح رجل الدولة من جديد؟

– إنك تقسو في حكمك عليه.

– ألأني أعده بلا مبدأ؟ أليس لي الحق في ذلك؟ ألم يحنث بعهده لي حتى اضطر أبي إلى الهرب ومات يأسًا وكمدًا.

– لقد كان ذلك من عمل آل فريجوزو.

– إن آل فريجوزو ليسوا شيئًا مذكورًا دون معاونة دوريا لهم.. وما كانوا ليفعلوا شيئًا وحدهم. تصوري أنه جعل من «أوثافيوني» رئيسًا للدولة.. ما أبدعه من رئيس.. تصوري أنه قد اجتمع على جنوا هذا الرئيس والطاعون والأميرال دوريا.

فوضعت يدها على ذراعه كيلا يسترسل في الكلام وقالت له:

– إني أدرك شعورك ولكن.

وأرادت أن تقول شيئًا ثم أمسكت. وبعدئذ قالت له:

– لست أرى معنى لأن تجعل الانتقام غايتك من الحياة.. إن الضغينة تفسد القلب.

فلم يزد على أن تنهد... ثم قال لها:

– إنه واجب في عنقي لآل بيتي المنفيين في الخارج..».

فقالت له:

– لقد نفوا لأنهم كانوا ضد حكم الفرنسيين. وسيعودون متى زال هذا الحكم.. أليس هناك مجال للصلح.

فصعد الدم إلى وجهه وقال: «الصلح؟». لكنه كتم شعوره وقال:

– يجب أن يكفروا عن سيئاتهم نحونا أولًا..

وسكت لحظة ثم قال لها:

– لا ينبغي لك أن تشغلي نفسك بشجوني يا جيانا. إني قادر على حمل همومي وحدي.

وكان وهو يقول ذلك يشعر بأن واجبه ليس هنا في الراحة والحب. ولكن واجبه في نابولي مع أمير أورانج، بوصفه ضابطًا من ضباط الجيش الإمبراطوري. وأن خروج دوريا على ملك فرنسا وسحب أسطوله قد يتطلب قائدًا بحريًا. على أن واجبه الأول نحو أمه، فعليه أن يزورها في فلورنس. وقد صارح جيانا بذلك في اليوم التالي، ولم يبالغ إذ قال لها:

– لكأني أنتزع روحي من جسدي..

وكان الوقت مساء، وقد جلسا وحدهما في السلاملك. فلم تجب على ما قاله وإنما أمسكت عودًا وأخذت تغني الأغنية التي كان قد ألفها ليلة جاء إلى تلك الدار أول مرة. فأخذ يستمع إليها بمزيج من الدهشة والفرح والحزن معًا..

ثم تركت العود جانبًا وقالت له:

– إنها ألفاظ جميلة صغت منها عقدًا. ألفاظ زاهية كالخرز الزاهي..

فهز رأسه وشحب وجهه وقال بلهجة الجد:

– كلا يا جيانا..... إنها ليست ألفاظًا ولا خرزًا.. إنها لآلئ.. إن اللآلئ صنو الدموع.. وما هذه الأبيات إلا دموع طاهرة نقية كأصدق ما تذرف الدموع.. ولكن كيف

وقعت على هذه الأبيات من الشعر؟

– لقد وجدتها مكتوبة على رقعة من الورق في صباح اليوم الذي مرضت فيه. وكان عنوانها «إلى السيدة ذات الثواب الفضي». وحسبتها أولًا خطابًا مثلك كتبته إلي.

– لقد كانت كذلك في الواقع. ثم ماذا؟

– ثم قرأتها فتمنيت لو كانت موجهة إلي..

– تمنيت؟..

وكأنما أدركت أنها أقرت بأكثر مما تريد، فبان عليها الخجل، وغاض الدم من وجهها، وأرخت بصرها. فقال لها برقة:

– يا جيانا إذا كان ذلك حقًا، واسأل الله أن يكون كذلك، فلن نحتاج إلى كلام.. لقد صرت لك وصرت لي منذ الساعة السعيدة الأولى التي ألتقينا فيها.

فقالت له دون أن ترفع بصرها إليه:

– لقد كان أول شعور لي هو أن الأغنية كاذبة. وإنك لم تهرب كما ورد فيها من الموت إلى الحياة. ولكن هربت من الموت إلى الموت. ولما ولى عنك الخطر صار خوفي أشد من قبل.. فقد خفت أن تكون تلك الأغنية ليست أكثر من نزوة.

فغمغم قائلًا:

– يا مهجة القلب. ليس لي من الفن ما أعبر به عن كل عاطفتي.. ولكني سأحاول.. وإذا كان لي أن أؤلف الأغاني فإني سأغني الآن كما يغني البلبل من النشوة.

– ولكنك تريد الرحيل؟

– وا أسفاه... على واجب أؤديه.. وإلى أن أنجزه لست ملك نفسي، ومتى أتممته عدت إليك. أفتنتظريني يا جيانا؟

فرفعت نحوه بصرها ببطء وقالت له:

– انتظرك؟ حتى تأخذ بالثأر؟ انتظر حتى تعود إلى وقد لوثت يداك بالدم؟ أهـذا ما تدعو الله به؟

فارتاع من قولها هذا وأجاب قائلًا:

– هل اجرؤ على المجيء إذا كان ذلك مقدرًا لي؟

صمتت برهة ثم قالت له:

– لقد قلت لي إنك تحبني يا بروسبيرو

– بل أنا أعبدك كما تعلمين.

– وقد قلت إن لي حقًا عليك. بل طلبت إلى يومًا أن أعدك ولدي لأني أنقذت حياتك مرتين فكأني ولدتك مرتين.

– أجل... وحياتي قد أصبحت ملكًا لك.. فأفعلي بها ما تشائين.

– أأنت صادق في هذا القول؟ إذا كنت صادقًا يا بروسبيرو فإني أريد منك أن تترك فكرة الانتقام.

– ولكن شبح أبي يطاردني في هذه الحالة.

– إن الموتى في سكون وأمان ولا تزعجهم أخطاؤنا.

– ولكن هناك أحياء.. وإذا لم أنتقم من آل دوريا فإن كل فرد من بيت أدورنو سينظر إلى نظرة احتقار. فهل ترضين الزواج برجل محتقر؟

– بل أكون فخورة بذلك، لأنه يكون رجلًا شجاعًا.. أما الانتقام فهو مكروه من الله.

فابتعد عنها قليلًا وقال لها:

– لقد حطمت قلبي يا جيانا.. لشد ما يؤلمني أن أرفض أول رجاء لك، وأنا الذي أود لو أضحي حياتي في سبيلك.

– إني أطلب إليك ما هو أقل من ذلك كثيراً.

– بل ما هو أكثر.. إنك إنما تطلبين أن أضحي بشرفي.

– كلا.. بل أطلب أن تضحي سوء فهمك للشرف.. إن الانتقام لا شرف فيه.. على إنه إثم كبير

– قد يكون كذلك ولكني أقسمت أمام نعش أبي لأنتقمن له.

– يستطيع أي قسيس أن يحلك من هذا القسم.

– ولكني لا أقدر أن أحل نفسي منه. آه يا جيانا.. يا عزيزتي جيانا.

وارتعشت شفتاها تأثرًا من توسله. ثم قالت له:

– لا تطلب مني ما لا طاقة لي به.. فكر في الأمر عسى ألا نكون قد ألتقينا لنفترق.

– هذا لن يكون.. أتحسبين أن لقاءنا كان مصادفة؟ لقد أراده لنا القدر.

– إذا كان الأمر كذلك فلا تفعل شيئًا ضد مشيئة القدر.. إن الأمر في يدك يا عزيزي.

– أتخيرينني بين هذا وذاك؟

– وا أسفاه... إنني لا أستطيع غير ذلك.. ولكني سأدعو الله أن يلهمك الصواب في الاختيار.

ونهضت جيانا فتقدم نحوها يريد أن يعانقها ولكنها أبت قائلة له:

لم يحن الوقت لذلك يا عزيزي طهر روحك أولًا من ذلك الشر. ثم أطلبني حين تشاء.

فرمقها بنظرة حزينة وقال لها:

– إنك تدفعينني إلى اليأس.. يا ليتك تركتني لأموت.

– سأذهب الآن لأصلي لك ولنفسي يا بروسبيرو... وإذا استطعت أن تختار بين فكرة الانتقام وبيني، فأخبرني قبل أن ترحل.. وإلا.. فالله في عوننا.. إني أعلم أني وقتئذ سأحتاج إلى التماس القوة منه جل شأنه.

ومضت تريد الخروج فاندفع وراءها قائلًا:

– جيانا.. سأراك قبل أن أرحل.

– لنوفر على نفسينا الألم فإن عندنا الكفاية منه الآن.

– أأنت قاسية إلى هذا الحد؟... كنت أحسبك أرق من ذلك كثيرًا.. بل حسبت أنك الرقة مجسمة.

– إن ما طلبته منك ليس قسوة.. فكر في الأمر يا بروسبيرو.. قد يساعدك التفكير على أن تنظر إلى المسألة بمثل ما انظر إليها.

وخرجت على إثر ذلك، فلم يحاول منعها أو اللحاق بها.. ولكنه بقى ينظر إليها وهي تمضي في الحديقة كما فعل ليلة وصوله إلى الدار. على أن الفارق كان كبيرًا بين الحالين، ففي المرة الأولى كان ينظر إليها في عجب ونشوة.. أما في هذه المرة فإن في نفسه مزيجًا من الألم والكدر معًا، لا يدري أيهما أشد من الآخر.

مهمة صعبة

غادر بروسبيرو دار جيانا في صباح اليوم التالي، ولم يرها قبل رحيله في ذلك اليوم، فلما بلغ باب الحديقة أخرج رقعة مكتوبة وسلمها إلى أمبروجيو ليسلمها إلى سيدته، وكان قد كتب على هذه الرقعة أغنيته العشرين وعنوانها: «وداعًا يا سعادتي..».

ومضى في طريقه مستقلًا الجواد الذي أعد لسفره عليه، وكان قلبه يخفق بشدة، وصدره يغلي بالرغبة في الانتقام من آل دوريا، وقد أضاف فشله في حبه، جريمة جديدة كبرى إلى جرائمهم العديدة في حقه وحق ذويه.

وفكر في موقف جيانا منه. ولم يلبث حتى ولى عنه كدره منها، وأيقن أنها تطلب إليه ما طلبته إلا لنبلها وطهر نفسها، فزاد إيمانًا بأنها ملك هبط من السماء.

ولم يصادف في طريقه أي حادث، حتى وصل في مساء يوم من أيام أغسطس إلى مدينة فلورنس، فقصد إلى بيت متواضع كانت أمه قد سكنته وعاشت فيه على إحسان آل شروتزى، عيشة لا تليق بمن كانت مثلها منبتًا ومركزًا.

وقد استقبلته بحنان وقالت له:

– لقد مكثت انتظرك أسابيع بعد أن جاءتني رسالة من ألفونسو أنبأني فيها بفرارك. ولما انقضت أيام عديدة بدأت أقلق.. ثم أخذت تحادثه عن سوء معيشتها، وتأثرها بسوء معاملة فليبينو له. واختتمت حديثها قائلة: «إن ما أصابك يتصل اتصالًا وثيقًا بحياتك كجندي.. أما الذي أصابني فلا ذنب لي فيه سوى أنني تزوجت رجلًا ضعيف العزيمة وولدت ابنًا نشأ مثل أبيه..».

وقد سكت على لومها له، ولكنه دافع عن ذكرى أبيه، وأراد أن يرضيها فقال لها:

– إني منتظر فرصة مواتية لأنتقم من آل دوريا.

فقالت له: «إن الرجل ذا العزيمة لا ينتظر الفرص بل يخلقها خلقًا..»

ولما حدد موعد رحيله بعد يومين ضمته إلى صدرها وبكت بكاء مرًا.

ثم ذهب إلى ليجهورن، واستقل منها سفينة إلى نابولي. وقد تفادى السفن التي تحاصرها بالسير في ظلام الليل. على أن الحصار لم يكن محكمًا فقد بدأ ينهار، وإذا كان «لوتريك» قد أصر على بقائه بعناده المعهود فإن جنوده كانوا قد انتشر بينهم الطاعون فقل ضغطهم على المدينة. وكانت سفن البندقية قليلة الجدوى تحت قيادة «لاندو» الذي كان عليمًا بضعفها فأغراه ذلك بالتهاون.

واستقبله أمير أورانج في قلعة «نوفو» بالترحاب والدهشة معًا. وقال له:

– لقد جئت في الوقت المناسب.. فهناك سفن قد شحنت بالزاد والمؤونة في «بيومبنيو»، لتفرغ حمولتها في نابولي كي تقضي على الجاعة بها. وقد جمع الضابط دون رامون فارجاس أسطولًا صغيرًا من السفن الحربية لحماية تلك السفن، وزودت خمس منها بالرجال والعتاد، ولكن ذلك الضابط لا خبرة له بالبحر، وليس لمثل هذه المهمة غير ضابط بحري كفء مثلي يا بروسبيرو. فإذا استطاعت أن تقتحم الحصار البحري المضروب على نابولي فإنك تؤدي بذلك خدمة جليلة للإمبراطور وقضيته، لأننا متى قويت جيوشنا بتلك المواد الحربية أمكننا أن نصمد حتى يفت في عضد الفرنسيين تمامًا.

وقبل بروسبيرو تلك المهمة بغير تردد.. وبعد يومين كان مع «فارجاس في «بيومبنيو. » ووجد كل شيء على ما يرام... وكان فارجاس قد أضاف في آخر لحظة سفينة سادسة إلى تلك السفن الخمس التي ذكرها أمير أورانج. وكانت سفن المؤونة ستًا كذلك مشحونة بالقمح وغيره من الزاد إلى أقصى ما تحتمله حمولتها.

وبهذا الأسطول غادر بروسبيرو ذلك الميناء توًا، وساعده الريح حتى وصل إلى جزيرة بروسيدا في شمال نابولي، فأعتصم بها ليلًا حتى لا تشعر به سفن البندقية. وكان مرساه بالجانب الشمالي من تلك الجزيرة مخبأ صالحًا لسفنه. ثم سمح للمجذافين بالنوم خمس ساعات. أما هو فنزل إلى البر ووقف برأس روشيوزا يستعرض ذلك الخليج الفسيح

ويدرس المضايق التي بين تلك الجزيرة والأرض الرئيسية. ومكثت هناك كأنه ديدبان حتى الساعة التاسعة صباحًا إذ أبصر أسطول البندقية الذي يحاصر نابولي وهو يسير حول رأس بوزيلينو. وعد عشر سفن قدر معدل سرعة كل منها بما لا يزيد على ميلين في الساعة.

ولما عاد إلى سفنه، دعا فارجاس ووضع تحت قيادته ثلاثًا من سفنه وأوضح له خطة العمل بالتفصيل.. وبعد ساعة تقريبًا، أي حوالي الساعة العاشرة صباحًا، أبحر أحد الضباط الذين يعملون تحت إمرة لاندو، سفينة نقل ثلاث سفن حربية خارجة من مضيق بروسيدا، فعجب من ذلك وقال لنفسه: «إذا كانت هذه السفن إسبانية قاصدة إلى نابولي فإن تهورها يدعو إلى الإعجاب حقًا..».

وفي تلك اللحظة صدرت إشارة من سفينة القيادة بالتحرك لملاقاة تلك السفن، فأعمل الأسرى مجاذيفهم، وسارت سفن البندقية نحو بروسيدا وقد أخذت تكون نصف دائرة لتحيط بالسفن الإسبانية القليلة.

وكانت سفينة النقل الإسبانية تقترب من رأس ميزنو، وقد انحرفت نحو الشرق كأنما لمحت سفن العدو بعد فوات الوقت، بينما سارت وراءها السفن الحربية الثلاث في اضطراب ظاهر، ومضت في جنوبي بروسيدا قاصدة إلى مضيق أيشيا للفرار عن هذا الطريق.

وأخذ «لاندو» في مطاردتها، ولكنه خشى أن يكون في الأمر مكيدة. إذ ربما تقوده تلك السفن الإسبانية حول الجزيرة وهي سابقته بمسافة، ثم تمضي إلى الخليج توًا عبر مضيق بروسيدا.. وبذلك تجد الطريق مفتوحًا أمامها إلى نابولي.. وقد حسب أنها فكرة شائقة حقًا ولكي يفسدها على العدو ترك أربعًا من سفنه تحت قيادة ضابط بحري قدير يدعى فيليسياني ليقوم بالطواف في البحر، بينما واصل المطاردة بالسفن الست الأخرى.

ودخلت سفينة النقل في المضيق الذي بين الجزيرتين ثم أسرعت بمساعدة الريح على طول شاطىء أيشيا، سابقة السفن الثلاث التي تحرسها بمسافة غير قليلة. ولما وصلت

سفن البندقية إلى مدخل المضيق كانت السفن الإمبراطورية قد غابت عن النظر، فكان من الواضح أنها اتجهت نحو شمال بروسيدا. ومعنى ذلك أنها كانت تنفذ الخطة التي توقعها لاندو إذ تستدرج سفنه حول الجزيرة ثم تجري إلى نابولي. فحمد لاندو لنفسه ذكاءه، وعزم أن ينقض على مؤخرتها بينما يقطع فيليسياني عليها الطريق من أمام، وبذلك يسهل عليه أسرها.

وفي الوقت نفسه دخلت سفن فيليسياني القناة الشرقية، وكان قد لازم شاطىء الجزيرة كي يستر سفنه عن أنظار العدو. فلم ير السفن الثلاث التي سارت حول رأس شيوبيتو حتى كادت تنقض عليه. وقد أيقن من أول نظرة أن هذه السفن ليست هي التي راح لاندو يطاردها، لكنه تذكر أن سفنه تزيد عليها عددًا. فأمر على الفور بإعداد المدافع الثقيلة للضرب وقد جعل وجهتها نحو البر.

ولعل هذه الخطة كانت تنجح حيال عدو أقل عزمًا وسرعة من بروسبيرو... ولكنه أمر بإطلاق المدافع من سفنه الثلاث دفعة واحدة على سفن البندقية، مع جعل هدفها واطئًا. وكان لا يفرق بين الأسطولين سوى مسافة ثلاثمائة ياردة تقريبًا... وكانت النتيجة مروعة فقد أصيبت سفينة فيليسياني نفسه وفتحت ثغرة كبيرة في سفينة ثانية فأقعدتها عن الحركة. وانقضت سفن بروسبيرو الثلاث على السفينتين الباقيتين.

واجتمع أهالي الجزيرة ليشهدوا القتال من المرتفعات الواقعة بين روشيولا وشيوبيتو، وإذا بالسفن الست المحملة بالمؤونة قد جاءت حول الرأس الأخير تتبعها السفن الحربية الثلاث التى تحت قيادة فارجاس. ومضت هذه السفن في طريقها قدمًا نحو ميناء نابولي طبقًا للخطة المقررة من قبل.. ثم جاءت سفينتان من السفن الحربية الثلاث فاشتركتا في القتال الدائر ووصلت إلى نتيجة حاسمة. أما السفينة الثالثة فاشتبكت مع إحدى السفينتين التابعتين للبندقية وكانت قد تهيأت القتال بعد ما أصابها من ضرر. أما سفينة فيليسياني فقد أخذت تغوص في الماء.

وكان لاندو لا يزال وراء الجزيرة على بعد ميلين أو أكثر، لكنه لم يعد يضحك

ساخرًا، فقد سمع طلقات المدافع، وأدرك أنه خدع شر خدعة. فأعمل سياطه فوق ظهور الأسرى ليسرعوا في التجذيف، وأسرع بسفنه حول رأس شيوبيتو.. وهناك وجد نفسه أمام ست سفن إمبراطورية واقفة في صف واحد، بينما لم ير من سفن فيليسياني الأربع سوى ثلاث سفن مصابة وقد وقعت في أيدي الأعداء. وفي الوقت نفسه رأى سفنًا تجري نحو ميناء نابولي دون أن يعوقها حائل، فأراد اللحاق بها وأصدر أمره بالتجذيف، لكن الأسرى كانوا قد استنفدت قواهم ودميت ظهورهم من وقع السياط، فلم يلب نداء أحد منهم وانكفأ أكثرهم على المجاذيف وقد كفوا عن الحركة. أما الأقوياء منهم فقد هرعوا إلى جرادل الماء ليطفئوا ظمأهم.

أما بروسبيرو فلم ير داعيًا للاشتباك مع سفن لاندو، بعد أن وصلت سفن المؤونة إلى بوزيلينو ولم يبق شك في أنها ستدخل ميناء نابولي. غير أنه لم يرد أن يدع للعدو أية فرصة، فأمر بالاتجاه نحو نابولي ومعه السفن الثلاث الأسيرة. ولم ير «لاندو» أن يلاحقه خشية الهزيمة المحققة.. وهكذا تبع بروسبيرو بعد ظهر ذلك اليوم، سفن المؤونة إلى نابولي.. وقد أستقبل هناك استقبالًا لم ينعم به قائد بحري من قبل، واشترك في استقباله الأهالي الذين أنقذهم من المجاعة جميع نوتية سفن المؤونة التي كانت راسية بالميناء.. ثم نزل عند اللسان الذي يعلوه برج «سانت فنسنت» فوجد أمير أورانج في استقباله: وقد عانقه كما يعانق الأخ أخاه.

وقال له الأمير وهو يهنئه: حقًا إنه لعمل نادر، أن تخرج إلى البحر بست سفن وتعود بتسع بعد أن تهزم أسطولًا هو ضعف أسطولك عددًا... وأن طريقة انتفاعك بالجزيرة لهذا الغرض تستحق أن تسجل في تاريخ الحروب... إنها قصة سوف تبهج الإمبراطور حين يسمعها، وسأبعث إليه بها الآن، لصالحك وصالحي، وقد كان لي فخر اختيارك لهذه المهمة.

الإغراء بالصلح

لم يأت شهر سبتمبر حتى كان العالم يردد ما قاله أورانج من كلمات الإعجاب ببروسبيرو أدورنو. وقد وصل نبأ ذلك النصر الباهر إلى الإمبراطور في مدريد فكان نبأ سعيدًا وسط أنباء كثيرة محزنة عن الحالة في إيطاليا.

وسمعت به أيضًا والدة بروسبيرو وهي في فلورنس فملأ قلبها فخرًا بولدها وذاع النبأ كذلك في جنوا ففرح أهلها لانتصار سفنهم على سفن البندقية ولكون بطل تلك المعركة واحدًا منهم. وقد عاد اسم أدورنو فجأة إلى الظهور وبات الناس يلومون آل دوريا لكونهم السبب في نفي أولئك الأمجاد، ولم تمض أيام حتى كانت جنوا كلها تنادي بعودتهم إليها.

وعلم بالنبأ فليبينو دوريا وهو في ليريس، فاشتد حقده على بروسبيرو وتذكر ما سمعه من عمه الأميرال أندريا دوريا حين علم منه أنه جعل بروسبيرو يعمل على مجذاف كحثالة الأسرى، فقد استاء الأميرال يومئذ واستشاط غضبًا وقال له: «هل جننت ؟.. ألا تعلم أنه لا فائدة من التشافي والانتقام سوى زيادة العداوة والبغضاء؟ لقد أتيت عملًا وحشيًا..».

ولما حاول تبرير عمله هذا مذكرًا عمه بأنه هو نفسه اتخذ مثل هذا الإجراء مع الريس ياقوت، رد عليه الأميرال بأن هناك فرقًا بين هذا وذاك، فالريس ياقوت عدو أجنبي مبين ما في ذلك شك، أما بروسبيرو فمواطن له ولأسرته أنصار كثيرون، وكان ينبغي لهذا كسب مودته بالمعاملة الحسنة بدلًا من الإمعان في إهانته إلى هذا الحد وإضافة ثأر جديد إلى ما له ولأسرته من ثأرات لدى آل دوريا.

وقد تذكر الأميرال نفسه كل ذلك، حين ذهب إليه فليبينو شاكيًا من ارتفاع مكانة بروسبيرو في جنوا بعد أن حاز فخر ذلك الانتصار في واقعة بروسيدا.. فقال لابن أخيه

في غضب واستياء: «هذا ما كنت أخشاه، وقد حذرتك من قبل..». ثم أوصاه بترك الحقد والضغينة، وبألا يشغله بعد ذلك بالحديث في مثل هذا الشأن.

والواقع أن الأميرال أندريا دوريا كان لديه وقتئذ ما يكفيه من الشواغل، فقد كان عليه أن يجهز أسطولًا من السفن على حسابه.

وقد يئس من أن يعوضه ملك فرنسا عن النفقات الطائلة التى أنفقها في خدمته، فعمد إلى وسيلة أخرى لجمع المال اللازم له بقبول افتداء كبار الأسرى المسلمين، وكان الريس ياقوت في مقدمة هؤلاء، فأطلق سراحه لقاء ثلاثة آلاف دوكات افتداه بها خير الدين بربروسا «ذو اللحية الحمراء» وعجب بروسبيرو حين سمع بذلك وهو في نابولي، لأن ياقوت أسيره هو، وقد سبق له أن عرض على الأميرال عزمه على إطلاق سراحه لقاء فدية فرفض الأميرال ذلك معللًا رفضه بأن المصلحة العامة تقضي بالاحتفاظ به أسيرًا حتى لا يعود إلى مثل المعارك البحرية التي انتهت بأسره بعد قتال عنيف.

وكان انتصار بروسبيرو قد قضى على الحصار المضروب على نابولي، فاضطر لاندو إلى الانسحاب بما بقي من أسطوله خشية أن ينقض عليه بروسبيرو بسفنه بعد أن يتم إصلاحها وهكذا أصبح بروسبيرو مسيطرًا على الميناء والترسانة، وبذلك انقلب الوضع فصار أتباع الإمبراطور سادة البحر، يتلقون المؤن والإمدادات، ويحولون دون وصولها إلى المحاصرين.. وقد ساءت حالة الفرنسيين وتضعضعت روحهم المعنوية من أثر الطاعون، خصوصًا بعد أن راح قائدهم المارشال دي لوتريك فريسة له.. وعلى هذا طووا خيامهم وبدأوا ينسحبون وفي أثرهم جيوش أمير أورانج تنكل بهم وتنزل بهم الخسائر الفادحة.

وكان ذلك ختام سيادة الفرنسيين على إيطاليا، ويرجع الفضل فيه إلى بروسبيرو أدورنو. وقد كافأه الإمبراطور بأن عينه قائدًا لأسطول نابولي. وكتب إليه صديقه المركيز دل فاستو من مدريد يهنئه ويقول له إنه محل تقدير الإمبراطور وإعجابه.

وجاءت من جنوا أنباء من نوع آخر، فقد عقد أندريا دوريا اتفاقًا مع الإمبراطور شارل الخامس، وعينه هذا قائدًا أعلى للأساطيل الإمبراطورية في البحر الأبيض المتوسط..

وعلى إثر ذلك تحرك الأميرال من قلعته في ليريسي وأنزل قوة في جنوا بادرت إلى الاستيلاء عليها لضعف المقاومة التي لقيتها. ثم أحدث تعديلًا في الحكم. ونشر بيانًا ذكر فيه أنه ترك خدمة ملك فرنسا لنكثه بعهوده، وأكد أنه ليس له من غاية سوى تحرير بلاده من الحكم الأجنبي. وكان رد الفعل سريعًا لدى الشعب فقد عده منقذ الوطن، وعرض عليه تاج الرياسة لكنه رفضه قائلًا: «إنني أوثر أن أخدم الجمهورية في البحار..».

ووضع الأميرال دستورًا جديدًا يحد من سلطة الرئيس ويجعله في الواقع تحت سلطة خمسة أوصياء ينتخبون لفترات معينة، وكان هو نفسه أحد أول ثالث الأوصياء.. وما لبث قليلًا حتى انتخب وصيًا مدى الحياة وبذلك صار في الواقع سيد الدولة دون أن يتحمل تبعات الحكم.

وكان تعيين بروسبيرو قائدًا لأسطول نابولي يؤدي إلى وضعه تحت رياسة دوريا من جديد، ولذلك بادر إلى تقديم استقالته إلى أمير أورانج، ولكن هذا رفضها مبينًا له أن آل دوريا في حاجة إلى مصالحته في الظروف الجديدة.

وقد أصر بروسبيرو على ألا يمد يده إليهم لولا أنه حدث ما لم يكن في حسبانه.. وذلك أن جيانتينو دوريا، ابن أخي الأميرال، رسا بثلاث سفن حربية من رأس أيشيا، ثم انتقل في يوم من أيام أكتوبر إلى نابولي، وسارع إلى زيارة بروسبيرو مبديًا له جانب المودة والتواضع قائلًا:

– لقد جئت إليك يا سيد بروسبيرو لكي أشارك جنوا كلها في فخرها بك، وإني إذ أقدم لك تهنئتي الصادقة، يسعدني أن أبلغك الآن أن عمي الأميرال أندريا دوريا قد ثبتك في منصب القائد العام لأسطول نابولي، وكلفني أن أعبر عن سروره بتجديد التعاون مع قائد كفؤ شجاع مثلك.

وعجب بروسبيرو من تغير مسلك جيانتينو نحوه وقال له بشيء من الجفاء:

– شكرًا لك على تهنئتك. أما المنصب الذي تفضل به الإمبراطور علي فقد ثبتت فيه من قبل.

ولم يغضب جيانتينو من ذلك، ولا شك أن عمه أوصاه بألا يدع مجالًا للغضب، فرد قائلًا:

– أسمح لي بأن ألاحظ، بكل احترام يا سيد بروسبيرو، أن عمي هو صاحب السلطة العليا بعد الإمبراطور في كل ما يتعلق بالقوات البحرية.

فقال بروسبيرو: «إن تعييني جاء من قبل الإمبراطور نفسه.

وكان أمير أورانج حاضر هذا الحديث فسارع إلى التدخل وقال لبروسبيرو: «ما دمت ستعمل تحت إمرة الأميرال أندريا دوريا فلا شك أنك تقدر ترحيبه الودي بك حق قدره».

فرد بروسبيرو قائلًا: «إنك تعلم يا صاحب السمو إني لا أريد الاستمرار في الخدمة..».

فقال الأمير: «ما زلت آمل أن تعدل عن رأيك هذا؟. ولعل السيد جيانتينو يساعدني في إغرائك بالبقاء في الخدمة» ثم ألتفت إلى جيانتينو وقال له ضاحكًا ليخفف من وقع كلامه:

– حقًا يا سيد جيانتينو.. هناك عقبات في سبيل الوفاق، وربما وقع على أسرتك بعض الذنب فيها.

وحسب بروسبيرو أن جيانتينو سيرد على ذلك ردًا شديدًا ولكنه بالعكس قال بلطف وانكسار:

–وا أسفاه.. هل أنا لا أعرف ذلك؟. غير إني لم أجئ بالصبر وحده بل جئت بالندم والتكفير كذلك.

فالتفت أمير أورانج إلى بروسبيرو، وقال له: «هل سمعت؟ أليس في هذا ما يرضيك؟» ولكن بروسبيرو أراد أن يسمع المزيد، فسكت بينما استطرد جيانتينو قائلًا له:

– إنك تعلم يا سيد بروسبيرو أن الأمور قد تغيرت منذ.. وتردد في القول، فانتهز

بروسبيرو هذه الفرصة وقال: «منذ قيدني ابن عمك بالأغلال وجعلني أكدح على مجذاف. أو منذ أراد أن يسلمني إلى السلطات البابوية لتشنقني.. أو منذ حنث الأميرال أندريا بعهده لي وطرد أبي من منصب الرئيس ليضع أحد صنائعه محله..»

فامتقع وجه جيانتينو وقطب جبينه... وهنا تدخل أمير أورانج نائب الملك مرة أخرى وقال له:

—يا عزيزي بروسبيرو. ما فائدة العودة إلى هذه الذكريات؟

– أتريد مني يا صاحب السمو أن أدير خدي الأيسر؟

– لا محل لذلك. فإن جيانتينو قد مد يده للصلح لا للضرب.

وسارع جيانتينو إلى القول: «وهي ليست باليد الفارغة. لقد جئت إليك رسول صلح. ونحن نعترف بأخطائنا الماضية.. على إنك لو تأملت في كل ما ساءوك من الأميرال أندريا دوريا لأدركت أنه إنما توخى صالح الدولة في كل ما فعله.... إنك تتهمه بأنه نكث بعهده معك.

وسكت لحظة ثم قال: «لقد جئت ببرهان على حسن نياتنا نحوك. هناك مسألة افتداء ياقوت، وقد...».

فقطع بروسبيرو كلامه قائلًا: «لقد قبض الأميرال فدية له قدرها ثلاث آلاف دوكات من خير الدين بربروسا.. أليس كذلك».

وأخرج جيانتينو الصك وسلمه إلى بروسبيرو، فأخذ يفكر في الأمر، ورأى أن هذا المبلغ حق مشروع له، غير أن الباعث على نزاهة دوريا في هذا الأمر إنما هو باعث سياسي محض.

واستطرد جيانتينو قائلًا:

– إن عمي الأميرال كلفني أن أقدم لك هذا الصك دليلًا على حسن نياته نحوك، وقد كانت نياته دائمًا كذلك برغم جميع الظواهر.. ومن رأيه أن رجلًا مثلك حاز ذلك

الانتصار الباهر في بروسيدا لا يصح أن تخسر الدولة خدماته. ولذلك يا سيد بروسبيرو فإن بيتك في جنوا ينتظر عودتك، ولا ينبغي لآل أدورنو أن يبقوا مبعدين عن الوطن. والأميرال مسئول عن أن يستقبلوا في جنوا أحسن استقبال.

فقال بروسبيرو بلهجة ساخرة: «إنك يا سيدي تغدق علي الأفضال بعضها فوق بعض..».

وكظم جيانتينو غيظه، وسارع الأمير مرة أخرى إلى معاونته فقال لبروسبيرو: «أرجو يا صديقي ألا تقيم الصعاب.. ولتضع في حسبانك صالح الإمبراطورية. ولا تنس أن جنوا هي وطنك. ضع السيف في غمده فإنك أنت ودوريا الآن على سفينة واحدة.

– لقد ذكرني السيد جيانتينو بذلك. ولكنه ليس ضمانًا لي إذا بدل آل دوريا الجانب الذي يخدمونه مرة أخرى.

وهنا لم يقدر جيانتينو أن يكتم غضبه وقال: «هذا تعريض بنا لا يليق..». ولكنه استدرك وقال: «إذا لم يكن خروجنا على الفرنسيين وعودتنا إلى الولاء للإمبراطور ضمانًا كافيًا لك، فإليك هذا الضمان.. لقد توقعنا ألا تثق بنا، ولذلك رأى الأميرال أن يعرض عليك مصاهرة بيتنا. فهو لذلك يعرض عليك يد ابنة أخيه ماريا جيوفانا ومعها صداق قدره ثلاثون ألف دركات ومزارع باراكوني الخصبة. فهل هذا ضمان كافٍ لك؟».

وكانت دهشة بروسبيرو من ذلك شديدة حتى كاد لا يصدق اذنيه.... وربت أمير أورانج كتفه وقال له: «ثلاثة آلاف دوكات فدية ياقوت، وعودة آل دورني إلى بيتهم وممتلكاتهم، وعروس صداقها كصداق أميرة. يجب أن تغمد سيفك أخيرًا يا بروسبيرو..».

وسكت بروسبيرو هنيهة مفكرًا، ثم قال: «لقد قرأت يومًا على سيف صنع في طليطلة عبارة ما زلت أذكرها وهي: «لا تجردني دون داع ولا تغمدني دون شرف..».

ففزع جيانتينو وقال: «ليس فيما أعرضه عليك ما يتنافى مع الشرف؟

وتدخل أمير أورانج وقال لجيانتينو: «لقد فوجىء بروسبيرو بما عرضته عليه. إنه لا

يقدر بعد مدى هذا العرض.. وليس من العدل أن يبت في الأمر توًا. فأترك له مهلة ليفكر..».

وفي صباح اليوم التالي حينما قابل بروسبير وأمير أورانج طبقًا للموعد المتفق عليه، قال له هذا:

– حقًا لقد عرضوا عليك أكبر ضمان مستطاع لحسن نياتهم نحوك.. فابتسم بروسبيرو ابتسامة ماكرة وقال: «أتظن ذلك ؟.. هل لم يخطر ببالك أن هذا الزواج الذي عرضوه لم يقصدوا به ضمان حسن نيتهم نحوي بل ضمان حسن نيتي نحوهم ؟..».

فقال له الأمير: «هذه مبالغة منك يا بروسبيرو..».

وانتهت المقابلة بأن صرح بروسبيرو للأمير نائب الإمبراطور بأنه قبل ما عرضه عليه آل دوريا.

وبعد أسبوعين من ذلك سافر بروسبيرو إلى فلورنس حيث أنبأ أمه بالاتفاق الذي انتهى إليه مع آل دوريا. فقالت له: «سوف يسميك أهلك بعد ذلك يهوذا أدورنو..».

وكان قد دبر أمر سفره إليها وسط شواغله لكي ينشلها من وهدة الفقر التي هي فيها ويعيدها إلى بيتها في جنوا مكرمة معززة، ولكنها بدل أن تفرح بذلك قالت له:

– أهكذا تم الصلح بينك وبين أولئك القتلة؟

أهكذا وضعت يدك في أيديهم الملطخة بدم أبيك؟ كيف تصاهر تلك الأسرة الحقيرة. وكيف بلغت بك الجرأة أن تصارحني بذلك؟.

وجعلت تلومه وتقرعه وهو يرد عليها بضعف وتخاذل مبينًا لها فوائد ذلك الاتفاق الذي عقده مع بيت دوريا وفي مقدمتها انتشالها من المعيشة التي تعيشها. ثم بكت من فرط الها حتى لم يستطع كتمان سره فقال لها:

– إن لومك لي هو ظلم لا أستحقه.

– وهل كنت تنتظر مني أن أثني عليك وأشكر لك العار الذي جلبته؟

– كان من حقي أن تثقي بي برغم كل الظواهر.. لقد سميتني «يهوذا» وأنا أستحق هذا الاسم ولكن من الجانب الآخر لا من جانب بيت أدورنو.

ثم أجلسها بجانبه وقال لها همسًا وكأنه يخشى أن يسمعه أحد: «لست استحق فقد ثقتك بي يا أماه.. إن الخطبة التي دعوني إليها ضمانًا لحسن نيتهم نحونا هي في الواقع ضمان لبقائي في صفهم.. إن آل دوريا قوم ماكرون وأنا قد استعرت شيئًا من مكرهم السيء. وعلى ذلك ستتم الخطبة، ولكن لن يكون ذلك الزواج الذي يريدونه، وسوف أنتحل عذرًا بعد عذر لإرجائه إلى غير حد.. والآن يا أماه قد أفشيت لك مكنون صدري. فهل أنت مطمئنة؟

فقالت له: «لماذا لم تقل لي ذلك منذ البداية؟ ولماذا عذبتني بمقدمة القصة دون نهايتها؟» فقال لها: «من الخطر أن يتحدث الإنسان بمثل هذه المسائل. إني أكاد أخاف مجرد التفكير فيها لذلك أسألك يا أماه ألا تفكري فيها منذ الآن؟».

فابتسمت وقد علا وجهها البشر وقالت له: «أطمئن. ولتثق بي... أما طلبك ألا أفكر في هذه المسألة فذلك ما لا أستطيعه... ولسوف فكر على الأقل في أن أولئك الحمقى قد عرضوا فتاتهم للهوان الذي استحقوه..».

فقال لها: «كلا يا أماه.. إن تلك الفتاة البريئة لا يصح أن يصيبها منا أذى... وإني لأسف إذ يجعلها القدر واسطة لانتقامي..».

المفاجأة

كان فصل الصيف قد حل حين عاد بروسبيرو إلى جنوا. وما كان ليعود وقتئذ لولا أن الحوادث لم تدع له مجالًا لإرجاء جديد. وكان قد أنجز عمله في أحواض السفن والترسانة في نابولي. فلو أرجأ الخطبة بعد ذلك لساء ظن آل دوريا بنيته. وفضلًا عن ذلك كانوا قد وجهوا إليه دعوة إلى الحضور؟

وكان الإمبراطور شارل الخامس في طريقه إلى البندقية، وقد دع جميع قادة الأسطول إلى المدينة لاستقباله، إذ كان المتوقع أن يصدر أمره بشن حرب شعواء على السفن التركية في البحر الأبيض المتوسط التي يقودها خير الدين برباروسا.

وكان برباروسا قد وطد سلطانه على إقليم الجزائر كله، ولكن مدينة الجزائر نفسها كانت على مدى طلقات المدافع الإسبانية من جزيرة بالخليج، فكان ذلك شوكه في جنبه إذ كانت يداه مغلولتين من نقص المدافع الضخمة عنده.. وعلى هذا عمد إلى أسر بعض السفن الحربية الفرنسية واستولى على ما بها من مدافع، كما استطاع ياقوت عقب فك أساره أن يأسر أسطولًا للبندقية ويستولى على سلاحه ومؤونته. وهكذا سد خير الدين النقص الذي كان يعانيه وصار ملكًا على الجزائر دون منازع. وقد حاصر جنوده قلعة بنون عشرة أيام حتى سقطت في أيديهم، وأسروا نحو خمسمائة جندي إسباني بقوا من حاميتها وسخروهم في هدم تلك القلعة.. ثم أقاموا من أحجارها لسانًا في البحر ليكون وقاء للسفن التركية.

وجاءت تسع سفن إسبانية محملة بالجنود والمؤونة والأسلحة لإمداد الحامية الإسبانية في تلك القلعة أمام مدينة الجزائر، وجعلوا يبحثون عنها عبثًا حتى حسبوا أنهم ضلوا الطريق، وفيما هم كذلك دهمتهم سفن برباروسا وأحاطت بهم إحاطة السوار بالمعصم، وكان يومًا من أيام الإسلام التاريخية إذ أسر الأتراك والعرب بقيادة بربروسا.

وقد ثارت إسبانيا كلها لهذا النبأ، واهتم الامبراطور بالأمر حتى قدمه على كل أمر آخر، وعزم على أن يسير كل قواته للقضاء على خير الدين وسفنه. فأمر بتجهيز حملة بحرية لم يسبق لها مثيل، في مدينة جنوا تحت قيادة الأميرال أندريا دوريا، وصدر الأمر إلى بروسبيرو أدورنو بأن يأتي مع أسطول نابولي لينضم إلى تلك الحملة. وهكذا اضطر بروسبيرو إلى العودة إلى جنوا حيث أعلنت خطبته إلى مادونا ماريا جيوفانا سليلة آل دوريا.

ولما ذاع نبأ تلك المصاهرة كسب به الأميرال أندريا دوريا مزيدًا من المكانة، فقد تذكر الناس العداء القديم الذي بين بيتي دوريا وأدورنو، وعدوا ذلك الارتباط بينهما دليلًا على تسامح الأميرال ونبله. وكان قد حصل من الإمبراطور على لقب «دوق ملفى» كما تزوج أرملة واسعة الثراء، ومنحته الدولة قصر فاسولو الفخم ليقيم به.

وقد هرع بروسبيرو لزيارة أمه في قصر من رخام صارت تقيم به منذ عودتها إلى جنوا. ووجد معها صديقه القديم سيبيوني دي فيشي ينتظر قدومه. وكان هذا قد أمضى الشهور الماضية في استخدام قدرته على الدس والوقيعة في سبيل تحقيق مطامعه، وما كاد يسمع بالصلح الذي تم بين بروسبيرو والأميرال أندريا دوريا، وبخطبة الأول لابنة أخي الثاني حتى أدرك ما يقصده آل دوريا، وما يقصده بروسبيرو أيضًا من وراء هذا الصلح.

ولما سمع بروسبيرو يعرب لأمه عن اغتباطه باستقبال أهالي جنوا له بالهتاف الحار بحياته وحياة آل أدورنو، قال له سيبيوني:

– إذن ينبغي لك أن تنتهز الفرصة قبل فواتها.

فسأله بروسبيرو:

– أية فرصة تعني؟

وأجاب سيبيوني متظاهرًا بالدهشة:

– أية فرصة؟.. إن أهالي جنوا هم اليوم أنصارك.. وما عليك إلا أن تقودهم.. فأنت

رجل الساعة.

فأدرك قصده ورد عليه قائلًا: «إن الوقت لم يحن بعد؟ بل إن الظرف الحاضر هو أسوأ الظروف، لذلك فبعد يومين يأتي الإمبراطور وليس من الحكمة أن أستقبله بثورة.

فقال له سيبيوني: «إذا أنت أحكمت قيادة الثورة فإنها يمكن أن تتم في هذين اليومين.. وعندنا الوسائل لطرد آل دوريا..».

– إن طردهم ليس يسيرًا إلى هذا الحد.. فالأميرال قد وطد سلطانه.

فقال له سيبيوني: «هذا يكون صحيحًا لو أني لم أرتب الأمور.. إنني واثق من تأييد فرنسا..».

– هذا ما حسبته حين ذكرت أن لديك الوسائل.. أما أنا فإني أوثر الإمبراطور على ملك فرنسا، ولذا لا أرضى أن أستقبله بثورة حين يجيء.

ودار بينهما جدل طويل حول المفاضلة بين الاثنين، وأخيرًا قال له سيبيوني غاضبًا: «أتراك بعت نفسك لآل دوريا؟ لقد آثرت الفراش الوثير على الانتقام لأبيك وأسرتك؟».

فقال له بروسبيرو: «إني عند الضرورة يمكنني أن أثبت لك إنى كنت على صواب..».

– بل أنت الآن قد أثبت لي ما كنت أجهله عنك؟ لقد وجدت أن صالحك يقتضيك أن تطعم من اليد التي ذبحت أباك؟ عسى أن تختنق يومًا بهذا الطعام.

وكان الغضب قد بلغ منه مبلغه فقام ليخرج، ولكن مادونا أوريليا أم بروسبيرو قفزت من مقعدها وصاحت به: «انتظر يا سيبيوني..».

فقال لها ولدها: «دعيه يذهب..». بينما أغلق سيبيوني الباب وراءه بعنف، فقالت السيدة لابنها: «هذه بداية العاصفة.. لقد كان ينبغي لنا أن نصارحه بالحقيقة..».

فقال لها: «كلا.. لا أريد أن يعرفها العالم كله. دعي الناس يعتقدوا في ما يحلو لهم..».

استطاع الأميرال دوريا أو دوق ملفي أن يجمع في قاعات قصره الفخم جميع رؤساء الأسر الكبيرة في جنوا، ولكن آل أدورنو فيما عدا بروسبيرو تعمدوا التخلف عن ذلك الحفل برغم دعوتهم إليه. لقد رضوا بأن تقوم هدنة بينهم وبين آل دوريا، ولكنهم لم يروا من اللائق بكرامتهم أن يجيبوا تلك الدعوة، وأن يشهدوا إعلان قبول عميدهم مصاهرة أعدائهم الألداء.

وتوجه بروسبيرو إلى قصر الدوق مرتديًا أزهى حلله، فاستقبله هذا بالعناق قائلًا له: «مرحبًا بك في بيتي وفي قلبي يا بروسبيرو. إني أدعو الله أن يكلأ هذا الارتباط بين بيتينا لصالح الوطن..».

ثم جاء جيانتينو فرحب به كذلك وقال له: «إذا كانت هناك أخطاء في الماضي فلننسها ولا ندعها تؤثر في صداقتنا..».

فابتسم بروسبيرو وصافحه قائلًا: «ليكن هذا اليوم بداية عهد جديد..».

ثم جاءت قرينة الأميرال، مادونا بيريتا، وقد أصبحت تدعى دوقة ملفي. وكان يصحبها ابنها من زوجها الأول، واسمه ماركانتونيو دل كاريتو، لكنه أضاف أخيرًا اسم دوريا إلى لقبه. وقدم بروسبيرو إليها فأنحنى لها احترامًا وقبل يدها التي مدتها إليه. ثم ازدحم الحاضرون حول بروسبيرو ليحيوه، وأخذوا يكيلون له كلمات الإعجاب والثناء.

وبينما هو واقف مع الأميرال أمام ذلك الجمع الحاشد، إذا بمادونا بيريتا قد عادت ومعها فتاة مرتدية ثوبًا فضيًا طرزت عليه رسوم عربية سوداء، وكانت في عنفوان شبابها، طويلة القامة، وعلى صدرها الأبيض عقد من اللألىء تدلى حتى وسطها. وكانت تنظر إلى بروسبيرو بعينين يكاد الدمع يسقط منهما، بينما ارتسم على شفتيها شيء لا تدري أهو ضحك أم بكاء.

ولما رأها بروسبيرو حبس أنفاسه وصعد الدم إلى خديه، فقد عجب إذ وجدها هي نفسها غادة الحديقة «جيانا» ذات الثوب الفضي.. تلك التي أحبها ولم ينسها لحظة واحدة.

وكان الأميرال أندريا يرقبه عن كثب فقال له: «إنها فاتنة. أليست كذلك؟».

ورد بروسبيرو ردًا آليًا إذ قال: «إنها أجمل من رأيت..».

فضحك الأميرال وقال له: «إذا كنت لا تزال تعتقد أن آل دوريا قد آذوك، فإن هذه خير عوض لك. والآن هيا حي عروسك..». ثم أمسك الأميرال يده وأوقفه أمام الفتاة وجهًا لوجه، فتلقته هذه بابتسامة رقيقة لكنها لا تخلو من تحفظ ووقار. وقال لها الأميرال: «هذا خطيبك بروسبيرو الذي أخترته لك..».

ومدت إليه يديها فقبلهما واحدة بعد أخرى، ولكن بطريقة آلية إذ كان لا يزال في ذهول من تلك المفاجأة. وقد راعه جمالها الذي بدا أبهر ما يكون في تلك الساعة. ووقف أمامها صامتًا لا يجد ما يقوله. فقالت مادونا بريتا لقرينها الأميرال:

– تعال يا أندريا.. إنهما في خجل لوجودنا معهما.. دعهما وحدهما ليتحدثا بما يشاءان.

ثم طلبت إلى بقية المدعوين أيضًا أن يتركوهما، فأمتثلوا وأكتفوا بالتطلع إليهما من بعيد.

وعلى إثر ذلك تكلمت الفتاة فقالت له: «لقد تركتني انتظرك وقتًا طويلًا يا بروسبيرو. وقد قضيت شهورًا طويلة وأنا أروض نفسي على الصبر..».

ثم سكتت وهي تتفرس في وجهه. وكان جادًا رزينًا. فقالت له: «أليس لديك ما تقوله لي؟».

فقال لها بصوت متهدج:

– لدي من القول ما لا تكفيه الحياة كلها.

– أليست هذه الخطبة هي ما كنت تتمناه؟

– من عجائب القدر أنه جمعنا ثانية. من ذا الذي كان يتصور وقوع هذه المصادفة؟

– لا أحد بالطبع، لأن الأمر لم يكن مصادفة مطلقًا.. وليس من حيل القدر ولكنه حيلتي أنا.. وكيف لم تقدر ذلك؟. أليست لك ثقة بي؟ وكيف خطر ببالك إنهم عرضوني عليك لتتزوجني مصادفة؟

وهنا تذكر أنه سمع من أمه، أو من سيبيوني أن أندريا دوريا فرض اسمه على ابن زوجته من زوجها الأول وعلى ابنه أخيها كذلك. كما تذكر أن اسم جيانا هو تصغير لاسم جيوفانا وإنها ابنة أخي المركيز دي فينارو الذي كان الزوج السابق لمادونا بيريتا.

ووقف ساكتًا لا يحير جوابًا. يخشى الاعتراف بأنه لم يتوقع أن تكون هي خطيبته مع ما يتطلبه هذا الاعتراف من إيضاح.

وقد أراحته هي من حيرته هذه إذ قالت له: «أرى إنك لم تقدر أني أنا التي دبرت هذا الأمر. وحين أقص عليك الأمر كله ستعود أشبه ببروسبيرو الذي عرفته.. أما الآن فأنا لا أكاد أرى فيك مؤلف الأغاني الشعرية في الحديقة..».

ولم يجد ما يقوله سوى عبارات جوفاء، ثم قادته من يده إلى حديقة غناء تطل على البحر، حيث أجلسته بجانبها وقالت له:

– إن القدر أتاح لنا فرصة لضمان سعادتنا فانتهزت هذه الفرصة، وقد كان الأميرال في وقت ما شديد الألم من انقلاب أهالي جنوا عليه، وزاد في عدائهم له نبأ انتصارك في معركة بروسيدا. وكانت عمتي مدام بيريتا قد أصبحت زوجة للأميرال، فانتقلت معها إلى قصر فاسولو لنقيم معًا، وسرعان ما أولاني ثقته ورعايته فتبناني وجعلني أتخذ لقبه، وصار يحدثني بمكنون صدره. ولما عرفت منه أن العداء الأسبق الذي قام بين بيتي دوريا وأدورنو إنما نشأ من نكث الفرنسيين عهودهم له، وليست من أحاديثه أنه يتمنى أن يحل الصفاء بينكما انتهزت هذه الفرصة واقترحت عليه أن يعرض عليك الصلح، على أن تؤيده مصاهرة بين البيتين لا تكون ضمانًا للمودة بينهما.

وبقى بروسبيرو ساكتًا، فواصلت جيانا كلامها قائلة: «وقد ااقتنع الأميرال بصواب هذا الرأى، لكنه أعراب عن أسفه لأن آل دوريا ليس لهم ابنة يعرضون عليك زواجها،

فقلت له: «بل لك أنت ابنة تصلح لهذا الأمر وستجدني ابنة طائعة..».

ثم ذكرت لبروسبيرو كيف اعترفت في تلك اللحظة بما كان بينها وبينه للأميرال بالتفصيل، منذ أوته في بيتها وسهرت عليه وهو مريض بالطاعون إلى أن افترقا بعد ذلك لأن ذلك العداء بين الأسرتين وقف حائلًا بينهما من غير أن يعلم بروسبيرو أنها تمت إلى آل دوريا بأية صلة.

وقال لها بروسبيرو أخيرًا: «إذن.. كان الأمر كله من تدبيرك.. لقد بان الخفاء.. وهذه المعجزة مثل كل المعجزات، لها تفسير معقول..» وقد تبينت في لهجته شيئًا من المرارة لم تدرك له سببًا، والواقع أنه حقد على نفسه إذ ذاك لأنه كان يعتقد أن آل دوريا وجدوا أنفسهم في حاجة إلى صداقته فأذلوا كبرياءهم وقصدوا إليه بالهدايا، ثم أدرك أن العكس هو الصحيح، وأن الأميرال إنما قدمه هو نفسه هدية إلى الفتاة التي تبناها، لكي يسرها ويسعدها بتحقيق أمنية صرحت له بها.

ورأها تنظر إليه نظرة حيرة وتساؤل. ثم قالت له: «ألا تزال بارد العاطفة نحوي يا بروسبيرو؟ لقد كنت أتوقع منك الثناء على الدور الذي قمت به. ولكنك لم تعبر حتى عن سرورك..».

فابتسم ابتسامة مغتصبة وقال لها: «أنت مسرورة يا جيانا؟».

فقالت له بسذاجة: «إني مسرورة كل السرور، لا من أجل نفسي فقط، بل من أجلك أيضًا لأني استطعت أن أريح عبء الانتقام الذي كان يثقل كاهلك..».

فسألها: «أتعتقدين أنك استطعت ذلك حقًا؟».

فأجابت قائلة: «إنك ما كنت لتقبل هذه المصاهرة لولا أنك مخلص في الصلح مع بيت دوريا وحين وافق الأميرال على هذه الفكرة قال إن هذا الزواج ضمان لحسن نيتهم نحوك..».

فقال لها: «لقد قلت أنا لأمير أورانج: «إن هذا الزواج ضمان لحسن نيتي نحوهم

أيضًا..» فقالت له: «نعم. إنه ضمان متبادل يكفل ثقة كل من الأسرتين بالأخرى، ويتم على الجميع نعمة الصفاء والسعادة..».

وسكت بروسبيرو، وأخذ يتطلع إلى البحر وهو مستغرق في التفكير، فقالت له: «أيشغلك شيء؟ إنك غريب الأطوار هذه الليلة... بل أنت مسرف جدًا في الرزانة أو برود العاطفة..».

– كلا يا جيانا.. وإنما أنا في ذهول مما حدث. أما إني رزين فإن الظرف يتطلب الرصانة. ثم أنا هنا على مرأى الناس.

فقالت له: «صدقت.. غير أني لم أتصور أن لقاءنا يكون هكذا بعد ذلك الفراق الطويل.. تعال غدًا لأطلعك على جمال هذه الحديقة التي لا تذكر إلى جانبها حديقتنا التي عشنا فيها زمانا..».

فرد قائلًا: «لقد كانت تلك الحديقة جنتي..».

فأشرق وجهها وقالت: «أخيرًا تكلم «آدم» الذي أعرفه.. ألم تلحظ ثوبي يا بروسبيرو؟ إنه صنو الثوب الذي كنت أرتديه حين رأيتني أول مرة.. لقد حرصت على أن ألبس هذا الثوب الفضي. وسرني أن رأيتك أيضًا مرتديًا بذلة فضية..».

وهنا وافاهما الأميرال وقال لهما: «لقد غبتما عن الحفل مدة طويلة، والمدعوون يريدون أن تكونا معهم».

وكان هذا بمثابة نجدة لبروسبيرو، فقد كره أن يخدعها وإن خدع الناس جميعًا، لا لأنها أعز عليه من نفسه فحسب، ولكن كذلك لطهرها وإخلاصها. ولكن لا مناص له من أن يستمر في هذا الخداع لأنه لو صارحها بالحقيقة لازدرته وأبغضته.

ثم جلس الجميع إلى مائدة العشاء، وكان دوق ملفي تتوسط قرينته الدوقة وجيوفانا ماريا، بينما جلس بروسبيرو إلى يسار خطيبته وعلى شفتيه ابتسامة لتدل على سعادته الكاذبة. وكان كذلك متكلفًا في حديثه معها أو مع أسقف بالرمو الجالس عن يساره.

وكان موقفه كذلك مربكًا حين جاء في اليوم التالي لزيارة جيانا كما طلبت إليه، لكي تريه بدائع الحديقة. ولم يكن ذلك إلا حيلة منها لتنفرد به. وكان لم ينم طول ليلته من التفكير في ورطته، وقد أنجده الأميرال إذ وافاهما عند تمثال نيتون «إله البحر» المقام في الحديقة، وقد راعى المثال الذي صنعه أن يجعل له وجه الأميرال نفسه، وكان الأميرال لطيفًا وديعًا مع بروسبيرو في ذلك اللقاء. وقد أخبره أنه زار السفن في الصباح وأبدى إعجابه بإصلاحها وإعدادها للقتال ثم قال له: «إن الإمبراطور سيصل إلى جنوا يوم السبت، أي بعد غد، وكل شيء قد تم إعداده..».

وبعدئذ قال له: «الآن لنتحدث عن شيء أقرب إلى قلبيكما.. إن الوقت قصير. وزيارة الإمبراطور هي بمثابة الإشارة بإبحار الأساطيل. وهناك مسألة زواجكما.. وأنتما بالطبع لا تريدان الانتظار..».

فلم يحر بروسبيرو جوابًا، ونظر ناحية البحر فقال له الأميرال: «لا شك إنك فكرت في الموضوع وأن لك فيه رأيًا. أليس كذلك؟».

فقال بروسبيرو: «نعم فكرت فيه ولكن هناك الحملة...».

فقال الأميرال: «هذه الحملة نفسها تقتضينا الإسراع في إنهاء هذا الأمر.. وأظن أن الإسراع يسركما. أليس كذلك؟».

فقال له: «إني ليسعدني حقًا أن يتم ذلك بأسرع ما يستطاع. ولكن هناك الحملة..».

– لقد قلت ذلك من قبل.. فماذا إذن؟

– إن الحملة تتضمن أخطارًا لا شك فيها.. وقد يقدر لي ألا أعود.. فكيف أقدم على الزواج بابنة أخيك يا سيدي في هذه الحال ؟. ألا ارتكب بذلك ذنبًا نحوها؟

فجذبته من كمه برقة وقالت له: «لا تدخل ذلك في حسبانك. فإني أوثر أن أكون أرملة لك على أن أكون زوجة رجل آخر..».

فأجابها بروسبيرو، بإخلاص هذه المرة: «يا عزيزتي جيانا. إن أي رجل ليس أهلًا لأن

تقولي له ذلك. وينبغي لي أن أحميك من نفسك؟

فغمغم الأميرال وردد بصره بينهما ثم قال: «ماذا إذن؟».

فتنهدت جيانا وقالت: «فليكن الأمر كما يريد بروسبيرو. إني لا أقدر أن أحول رأيه عما يعتقده حقًا وصوابًا..».

ولكن الدوق لم يرضى بأن يقف الموضوع عند هذا الحد فقال لها: «إن الأمور يا عزيزتي لا تجري وفق رأيه... لقد تركت الناس جميعًا يعتقدون أن الزواج سيتم فورًا... وكنت أحسب أن بروسبيرو يتعجله..».

فقال بروسبيرو: «إني أوثرها على نفسي، ولذلك أرجىء الزواج إلى ما بعد الحملة، وليكن الأمل فيه وترقبه دافعًا لي إلى أعمال المجد حتى يكون ذلك الزواج أحسن جائزة لي... ثق يا سيدي الأميرال إني بذلك الأمل سأكون جنديًا مقدامًا في الحرب القادمة..».

وعاد الدوق فردد بصره بين الاثنين متعجبًا... ولما رآهما متفقين على إرجاء الزواج قال لهما: «يا لكما من حبيبين باردي العاطفة..».

وكان ذلك بالنسبة لبروسبيرو ختام الجدال ولكن لم تنته به شجونه.

ولما عاد إلى بيته بعد ظهر ذلك اليوم وجد فيه عاصفة توشك أن تهب، فقد كان هناك عمه جيو فاشينو أدورنو الذي كان أسقف سانتا باربارا، وعمه الآخر رينالدو أدورنو مع ولديه الطويلي القامة أنيبالى وتاديو. وقد سمع أصواتهم العالية حين اقترب من البيت وأدرك الموضوع الذي يتناقشون فيه بهذه الحدة، غير أنه كان على أهبة لهم.

وقد رأى بالأمس أمثلة مما ينتظره في قصر فاسولو، فإن واحدًا من أسرة جريماني قد أدار له ظهره وتغافل عن تحيته. وكلمه أجوسينو سبنيولا بصراحة الجندي الذي لا يعرف المواربة، إذ قال له: -إذن راح أبوك النبيل في زوايا النسيان. ولكن هكذا العالم حين ينادي داعي المصلحة. ومع ذلك ما كنت انتظر أن تكون أنت كذلك يا بروسبيرو.

ولما رد عليه بأنه ليس بحاجة لأن يلبي داعي المصلحة، قال له أجوسينو: «هذا أدعى

إلي ألا تقبل أيدي أعداء أبيك». وعبثًا حاول أن يقنعه بأنهم في الواقع ليسوا أعداء، وبأن ملك فرنسا هو الذي حنث بعهده لهم، ثم قال له أجوسينو: «هكذا يزعمون ومن صالحك أن أن تصدقهم..». فاضطر إلى أن يسكت على هذه الإهانة من رجل كان الصديق الحميم لأبيه.

ودخل داره ليواجه ما يكون في جرأة.. ولما رأته أمه قالت له:

– الحمد لله على أن أتيت أخيرًا لتدافع عن نفسك فقد سئمت الدفاع عنك.

– لم يكن ثمة ضرورة لذلك فإني دائمًا أحمل تبعات أعمالي بنفسي.

فصاح به عمه رينالدو: «أنت الآن في حاجة لأن تفسر تصرفاتك..».

وغمغم الكاردينال شيئًا فقال له أخوه: «هذا أمر لا يخص القساوسة ولا النساء..»

ثم قال لبروسبيرو: «ما هذا الكلام عن مصاهرتك لبيت دوريا؟»

فقال له بروسبيرو بهدوء: ما دمت قد علمت النبأ فلماذا تسألني عنه؟ لقد أعلنت ليلة أمس خطبتي لمادونا جيوفانا ماريا مونالدى. أهذا ما تعنيه؟ ألا يسرك ذلك؟».

– يسرني ؟.. أتسخر مني؟ إن ابن أخي يتزوج فتاة من بيت جلاد أخي، وأنت تسألني أيسرني ذلك؟

وهنا تدخل الكاردينال وقال لأخيه: «إنك تبالغ رينالدو، لم يكن هناك دم سفك..».

وقال بروسبيرو: «إن العروس من بيت مونالدى وليست من بيت دوريا..».

وقال الكاردينال: هناك فرق بين الحالين يا رينالدو..».

ولكن رينالدو صاح بهما قائلًا: «أتريدان المراوغة. ألم تصبح قربة أندريا دوريا بزواج عمتها به؟ ألم تتخذ لنفسها لقب دوريا؟».

وأرادت مادونا أوريليا أن تنهي هذا الجدل، فقالت لأخي زوجها: «إنك تنسى

وجودي هنا بينكما، أرجو ألا تصرخ هكذا فإن صراخك يسبب لي الصداع..».

– إنك تخشين الصداع على رأسك، ولكنك لا تخشين العار على أسرتك.

واشتد رينالدو في كلامه فقال له بروسبيرو أخيرًا: «إنك تنكر الصلح الذي عقدته مع بيت دوريا، مع إنك أفدت منه.. ألم تكونوا جميعًا في المنفى، لا تجرؤون على الاقتراب من جنوا أو المطالبة بأملاككم؟

وبادر الكاردينال إلى تأييده فقال لأخيه: «فكر في ذلك يا رينالدو».

وهنا قال تاديو لابن عمه بروسبيرو: «حين رفع النفي عنا هل كنا نعلم أنه بهذا الثمن الشائن؟» فقال له بروسبيرو: «لم تكونوا تعلمون. والآن قد علمتم فماذا أنتم فاعلون؟ أتريدون أن تعودوا إلى المنفى، مهاجرين لا مثوى لهم، أم تبقوا هنا لتطعموا من الخبز الذي تأتيكم به خيانتي؟ أم يقتضيكم واجبكم أن تسلكوا مسلكًا آخر للبطولة؟ إنني إلى أن تختاروا أي هذه الطرق أراكم أهلًا للازدراء الذي تفضلتم به علي، لأن اللص الذي يقف يحرس الباب شر من اللص الذي يسرق من داخل الدار..».

وعندئذ خرج رينالدو مع ولديه غاضبين، فقالت مادونا أوريليا لولدها: «لقد أحسنتت الرد يا بروسبيرو، ولكن حججك هي كما قال تاديو أشبه بحجج محام بارع في المغالطة..».

– إنها على الأقل قد أفحمتهم.

وعندئذ قال الكاردينال: «أنت مخطئة يا مادونا أوريليا... لقد أفحمتهم حجه لأنها الحق.. إني قسيس، وأنا أخون تعاليم الدين إذا أيدت فكرة الانتقام.. وثقي بأن رأي القس أقرب إلى الحق ومثل هذه الأمور من رأي الرجل العادي..».

ولما خرج الكاردينال قالت لوالدها: «كان يجدر بك أن تقول لهم الحقيقة..».

فقال لها: «إذن كانوا ينشرونها على العالم أجمع..».

وقد أيقن بروسبيرو مما قاله الكاردينال إنه هو الوحيد القادر على إخراجه من مأزقه،

فقد اشتدت به الحيرة بين القسم الذي أقسمه على نعش أبيه، وبين حبه لجيانا وما سمعه منها عن حسن نيات الأميرال مما يذهب بكل داع للانتقام.

ومن أجل ذلك بادر إلى زيارة الكاردينال في قصره، وجلس معه في الحديقة وقص عليه كل شيء، وقد اعترف له بأنه كان يعتزم عدم إتمام الزواج بسليلة بيت دوريا ليكون ذلك وسيلة الانتقام منهم.. ولكنه لم يكن يعلم أن خطيبته التي أختاروها له هي الفتاة نفسها التي تعلق بها قلبه. ومن ثم أصبح في حيرة لا يدري لنفسه مخرجًا... ثم ختم حديثه إلى عمه الكاردينال قائلًا: «إن فخامتك من بيت أدورنو كما إنك قس.. فما الذي تشير به علي؟».

فقال الكاردينال: «إن الانتقام من شأن الله وحده..».

– لو كنت من آل أدورنو فحسب ولم تكن قسًا، أكنت تنصح لي بالصفح عن آل دوريا؟ فابتسم الكاردينال وقال: «لعلي كنت عندئذ لا أنصح لك بالصفح... ولكن ثق بأني في تلك الحالة أكون على خطأ.. وأنا الآن إن كنت قسًا فلا أزال من آل أدورنو... ولكني أقسم لك أني لا أشعر بأية ضغينة نحو آل دوريا حتى ولو كان هناك دم مسفوك فعلًا –وهو ما لم يحدث. إن أباك قد مات – على أسوأ فرض –من جراء أعمال أتاها آل دوريا ولكنهم لم يقصدوا موته. وإني لموقن أن أندريا دوريا ما كان ليتردد في الدفاع عنه.

ثم أكد له الكاردينال أن الأصل في كل ما حدث هو نكث ملك فرنسا بعهده للأميرال وإنه هو نفسه قد استوثق من ذلك وأدرك أن أندريا دوريا لم تكن له يد في كل ما حدث لآل أدورنو.

ولما استفتاه بروسبيرو في قسمه قال له: «إنه لا قيمة له لأنه يخالف تعاليم الدين التي تدعو إلى الصفح والمحبة ولا تقر فكرة الانتقام بحال..».

وهكذا خرج بروسبيرو من لدنه وقد أزيح عن كاهله عبء ثقيل.

خطاب الأميرال

كان بروسبيرو واقفًا في المكان الذي عينه له دوق ملفى، بين الطليعة من كبار الضباط ورؤساء العائلات الكبيرة الذين كانوا في انتظار وصول الإمبراطور شارل الخامس إلى الميناء. ووصل الإمبراطور ونزل إلى البر عند رأس كارينيا بين قصف المدافع ودق الطبول ونفخ الأبواق وهتاف الأهالي المحتشدين خلف صفوف الحراس والجنود. وقد أقيم هناك قوس نصر كتبت عليه عبارة «جنوا ترحب بأقوى ملوك الأرض» وفرشت درجات سلم السفينة بالسجاجيد، وعند أسفل تلك الدرجات وقف دوريا مع النبلاء، ومن خلفهم الرئيس الجديد في ثيابه المذهبة ومعه الشيوخ بملابسهم القرمزية، وثلاثون من نافخي الأبواق لابسين ثيابًا حريرية حمراء بيضاء.

ووقف الإمبراطور الشاب بقامته المديدة بين رجال حاشيته وقد ارتدى بذلة سوداء لا يزينها سوى وسام جزة الصوف الذهبي على صادره وصفوف من اللالىء على ياقة معطفه. ثم مد يده إلى دوريا لينهضه من سجوده عند قدميه، وبعد أن استمع لخطاب الترحيب الذي ألقاه أسقف جنوا باللغة اللاتينية، رد عليه بكلمات مقتضبة صادرة من أنفه.. ثم تقدم خطوة إلى الأمام عن رفيقيه الكاردينال جراشيادى لويازا الذي يعترف له، وألفونسو دافالوس أو المركيز دل فاستو.. وقد ابتسم الأخير لبروسبيرو حين وقع نظره عليه.

وقدم دوق ملفى الإمبراطور ابني أخويه: جيانتينو وفلبينو، ثم قدم له بروسبيرو أدورنو قائلًا:

– إن السيد بروسبيرو أدورنو قد حاز تقدير جلالتكم.

وأردف المركيز قائلًا: «هذا يا مولاي هو أدورنو الذي كسب معركة بروسيدا فنال بذلك إعجابكم..

فالتفت الإمبراطور إلى بروسبيرو وقال له: «إني أهنئ نفسي بكونك بين ضباطي.. وأحب أن أعرفك عن كثب..».

ثم مضى وبجانبه دوريا، فحياه الرئيس، ثم الطبقات الأخرى بعده، وكان هتاف الشعب يشق عنان السماء. وفي تلك الليلة احتفلت جنوا بضيفها بالأضواء والمرح. وأقام دوق ملفى مأدبة عشاء فاخرة تلتها حفلة تنكرية ثم حفلة راقصة. وفي تلك المأدبة جلس بروسبيرو إلى المائدة وعن يمينه جيانًا، وعن يساره سيدة من بيت جيوستنيانو. وكان قليل الكلام حتى عجبت خطيبته من أمره، ثم رقصا معًا، لكن رقصه كان آليًا كمن هو مشغول الفكر. ثم جاءه المركيز فاصطحبه إلى الإمبراطور الذي سأله عن معركة بروسيدا وعن أسطول نابولي وعدد سفنه ورجاله ونوع أسلحته ومدافعه. ولما أجابه عن كل ذلك أبدى اعجابه بمقدرته وعجب من أهالي نابولي إذ استطاعوا إعداد ذلك الأسطول وتجهيزه. فابتسم بروسبيرو وقال:

– لم تفرض عليهم ضرائب فادحة لهذا الغرض يا مولاي، فإن سبع سفن من الاثنتى عشرة سفينة هي ملكي الخاص وقد صنعت وجهزت على حسابي.

ولما عجب الإمبراطور من ذلك قال له المركيز دافالوس:

– إن صديقي بروسبيرو إنما يتبع في ذلك عادة القادة البحريين في إيطاليا، شأنه في ذلك شأن دوق ملفي.

فقال الإمبراطور موجهًا الكلام إلى بروسبيرو:

– إن دوق ملفي مرتبط معنا بإتفاق بمقتضاه نستخدمه وسفنه، لكنك أنت لست مقيدًا بمثل هذا الإتفاق.

فرد بروسبيرو قائلًا: «معذرة يا مولاي.. أن هذا الارتباط قائم فقد عقد معي أمير أورانج إتفاقًا باسم جلالتكم وبه استأجرني وسفني لمدة خمس سنوات. وكل أملي أن أبقى في خدمتكم ما دمت أستطيع أن أضع قدمي على ظهر سفينة..».

ثم سأل الإمبراطور عن معركة أمالفي، فبين له المركيز أنها برغم تفوق العدو في العدد كاد بروسبيرو يحوز النصر لولا جبن قائدي السفينتين الذين فرا من المعركة في اللحظة الحاسمة.

وأخيرًا قال الإمبراطور لبروسبيرو: «كنت أعرف أن لي في جنوا أول قائد بحري في العالم.. والآن أعرف أن لي فيها القائد الثاني كذلك..».

وقد أثار تقدير الإمبراطور لبروسبيرو غيرة الكثيرين، لكن أحدا منهم لم يجرؤ على الإفصاح عنها. أما أفراد أسرته فإنهم لم يكتموا إزدراءهم له حتى القدر قال له ابن عمه تاديو بعد تلك الحفلة:

إنك تزيد ورمًا كل يوم يا ابن العم، مثل الضفدعة في الخرافة المشهورة. ولكن ثق أن الماء الذي يأتيك بهذا الورم هو الذي أغرقت فيه شرفك.

فكظم بروسبيرو غيظه وضحك قائلًا: «لكنك يا ابن العم تشرب كل يوم من هذا الماء..».

وفي يوم آخر قال له أحد ذوي قرباه: «إننا نخلع لك قبعاتنا الآن لأنك عالي المكانة عند الإمبراطور والأميرال دوريا، وإن كنت في المكانة السفلى عند الشرفاء..».

وفي الليلة الأخيرة التي مكثها الإمبراطور في جنوا، أقام دوق ملفي حفلة باهرة على ظهر سفينة. وقد اجتمع في تلك الحفلة بروسبيرو بخطيبته جيانا، فأبدت له عجبها من تخلف والدته عن هذه الحفلة وعن المآدب السابقة، ومن كونها لم تقابلها قط. واعتذر هو عن والدته بأن صحتها ضعيفة. فقالت له جيانا: «إن ضعف صحتها قد يفسر غيابها عن الحفلات والمآدب، لكنه لايفسر عدم سماحها لي بزيارتها كما هو واجبي.. ألا يجدر بك أن تصارحني بالحقيقة يا بروسبيرو؟».

فتناول كأسه وقال لها وقد قطب جبينه: «يمكنك أن تخمني..».

فقالت: «أنا أفهم من هذا أن مادونا أوريليا ليست موافقةً على زواجنا.. أن

عداءها لبيت دوريا لا ينقص مع الزمن..».

فقال لها بروسبيرو: «لا تنسي أنها قاست كثيرًا..». فقالت له: «لم أنس ذلك قط.. لكنك أنت أيضًا قاسيت ما هو أشد..».

فتنهد بروسبيرو، وقال لها: «نعم يا جيانا، ولكن لي عزمًا أشد من عزمها..».

وهنا سألته: «هل محوت أنت كل أثر للضغينة في نفسك؟». فأجاب في صدق وإخلاص: «لقد دفنت سيئات الماضي كلها..».

وبعد انتهاء الحفلة وجدها الأميرال دوريا بادية الفرح فقال لها: «إن عينيك تشعان بالسعادة يا جيانا.. وإن هذا ليسعدني.. إن خطيبك بروسبيرو أهل لك وهذا أعظم ثناء مني عليه. وسأعيده إليك بعد الحملة سالمًا وعلى رأسه إكليل الغار؟».

وفي اليوم التالي أبحر الإمبراطور شارل الخامس قاصدًا إلى بولونيا ليتلقى من يدى البابا التاج المقدس، وكان قد اختير للبس هذا التاج بعد أن دفع رشوة كبيرة.

في اليوم التالي أبحر الأسطول قاصدًا شاطئ إفريقية، وقد رفعت الأعلام على سفن الأسطول الثلاثين، وعلى سفن النقل والزوارق المختلفة الأنواع والأشكال. وكانت خمس عشرة سفينة تابعة لدوريا وسبع سفن لبروسبيرو يقودها من سفينة اسمها « لابروسبيرا» وثلاث سفن أسبانية تحت قيادة دون الفارو دي كارباجال، وهو قائد بحري كان الإمبراطور يقدره أكبر تقدير.

وكان بروسبيرو قد أصبح مطمئن النفس مرتاح البال بعد أن ترك فكرة الانتقام من آل دوريا وأحله عمه الكاردينال من اليمين التي أقسمها أمام نعش أبيه. ولم يرد أن يكسب غضب أمه عند رحيله فتركها تعتقد أن صلحه مع آل دوريا صلح ظاهر، ولم ينبئها قط بأن الخطيبة التي اختاروها له، مادونا جيوفانا ماريا مونالدي دوريا، هي نفسها فتاة الحديقة ذات الثواب الفضي التي حدثها بحكايته معها من قبل.. ولما ارتاح باله راح يقرض الشعر ويؤلف الأغاني في خلال رحلة الأسطول إلى الشاطئ الإفريقي.

وكانت خطة دوريا أن ينقض بذلك الأسطول القوي على الجزائر، ليضرب عاصمة مملكة خير الدين بربروسا ضربة مفاجئة تقصم ظهره وتشل حركته. على أنه في أثناء رحلة الأسطول بالبحر الأبيض المتوسط صادف سفينة فرنسية علم من ربانها أن نبأ الحملة وصل إلى بربروسا بواسطة إدارة مخابراته البارعة، فاستعد للقائها بأسطول قوي كبير.

وكان دوريا قد أصبح على مسافة مائتين وخمسين ميلا من جنوب غربي سردينيا، وأقل من مائة ميل من الجزيرة، فجعله ذلك يقف قليلًا ريثما يجمع مجلسًا حربيًا على ظهر سفينة القيادة (جريفوني) فضم هذا المجلس بروسبيرو أدورنو، وخمسة قواد آخرين. ولما بين لهم دوريا خطر الموقف وعدم إمكان مفاجأة خير الدين بربروسا، استقر الرأى على العدول عن مهاجمة الجزائر في ذلك الحين، والاكتفاء بقطع الطريق على ما يتلقاه من المدد والمؤونة، وذلك بمهاجمة أسطول ياقوت في ثغر شرشل.

وفي يوم من أيام أغسطس، وتحت وهج شمس إفريقية، دخل الأسطول الإمبراطوري إلى خليج شرشل، وكان الميناء مفتوحًا لاتسده حواجز، ولم يجد أية مقاومة، إذ لم تكن هناك سوى بضع سفن ماكادت تلمح الأسطول قادمًا حتى أغرقت نفسها كيلًا تقع في قبضته أو لكي تعوق تقدمه. ولكن دوريا ومن معه استطاعوا وهم على ظهور سفنهم أن يتبينوا حركة ناشطة داخل المدينة يصحبها دق الطبول ونفخ الأبواق. كما شوهدت جموع من الأهلين يمرون في الطرق صوب القلعة ليحتموا بها ومعهم حميرهم وبغالهم وجمالهم وماشيتهم، إذ لم تكن للمدينة أسوار يحتمون وراءها.

ولما اقترب الأسطول من الميناء، أمر دوريا بإطلاق المدافع، وسرعان ما رددت التلال صدى قصفها، ثم أمر دوريا بوقف الضرب حين جاوبت القلعة باطلاق مدافعها، وإتجه بسفنه شرقًا إلى نقطة هناك تحتمي بها من مدافع الأتراك. ثم أنزل إلى المدينة ألفا ومائتين من الجنود، منهم خمسمائة من أبناء جنوا، وأربعمائة من الأسبانيين، وثلاثمائة من أسطول نابولي الذي تحت قيادة بروسبيرو. وجعلهم قسمين: أحدهما مكون من جنود أسبانيا وجنوا بقيادة جيانتينو، والآخر مؤلف من جنود نابولي بقيادة بروسبيرو.

وقد فوجىء قرة مانلي القائد التركي لحامية شرشل، بنزول جيش الفرنجة إلى البر، وكان قد اعتصم بالقلعة مع جنوده واللاجئين من الأهالي، مقدرًا أنه لن يحتاج إلى الدفاع عن غير القلعة، إذ لم يتوقع نزول الأعداء في تلك النقطة الشرقية من الشاطىء. وكانت هناك قلعة أخرى على الشاطئ أصغر حجمًا، وبها حامية من جنود الإنكشارية لا يزيد عددهم على أربعمائة، فرأى قائدها أن يفاجىء جيش الفرنجة عند نزوله إلى البر، وسرعان ما هجم على القسم الأول الذي يقوده جيانتينو، ولكن هذا تمكن من الصمود بجنوده أمام ذلك الهجوم. ثم انقض بروسبيرو بجنوده على جناح الحامية الإنكشارية، فنقص عددها إلى النصف وقتل قائدها، فارتد بقية جنودها إلى القلعة التي أتوا منها. ورأى جيانتينو أن يثأر لما أصاب فرقته من خسائر فسير في إثرهم الفرقة الأسبانية تحت قيادة ضابط يدعى سارمنتو، وبقى هو ليشرف على نقل الجرحى من جنده إلى إحدى السفن.

وكان الأسطول المغير قد بدأ يتحرك صوب الميناء ليعاود ضرب القلعة بالمدافع، على حين يهجم جيش الفرنجة من البر، وهكذا أمل دوريا بهذا الهجوم برًا وبحرًا أن يقضي على المقاومة في وقت وجيز، وبدأ قصف المدافع من الجانبين يهز الكان هزًا، وكانت المدافع التركية قليلة الجدوى، ولكن القلعة متينة البنيان، فلم تكن الخسائر كبيرة لدى الجانبين.

وبينما كان سارمنتو وجنوده يطاردون فلول الإنكشارية، توجه بروسبيرو وجنوده إلى حافة الخندق الذي أمام القلعة الصغرى، وهناك سمعوا من وراء سور القلعة صيحات عالية وأصوات استغاثة تقول: «باسم المسيح أنقذونا..».. وتساءل جيانتينو مستغربًا: «ما هذا النداء؟». فرد أحد ضباطه قائلًا: «لابد أنهم المسيحيون الذين اسرهم الأتراك في غاراتهم على الجزر والموانيء». ولكن جيانتينو خشى أن يكون في الأمر خدعة. فقال له بروسبيرو: «أحسب أن من السهل اقتحام هذه القلعة، لأن الخندق حاف كما ترى..».

فقال له جيانتينو: «ليس من المعقول ألا يكون عليهم حراس، فكيف تركوهم

يصيحون هكذا؟.. إني لا أريد أن أقع في كمين نصبه الأتراك..».

فقال بروسبيرو: «لعل حراسهم تركوهم لكي يقاتلونا.. إني داخل لأنقذهم..».

فتساءل جيانتينو: «والقلعة الكبرى؟». فأجابه بروسبيرو: «يجب أن ننقذ إخواننا هؤلاء أولًا.. وبعدئذ نقتحم القلعة الكبرى بعد أن نعزز بهم قوتنا..».

فقال له جيانتينو: «إن تعليمات الأميرال صريحة باقتحام القلعة الكبرى..». فرد عليه قائلًا: «لو كان هنا لغيرها..».

فقال له جيانتينو: «إن اعتدادك بنفسك سيقودك يومًا إلى حتفك، وأخشى أن يكون ذلك اليوم قد حان؟».

فقال بروسبيرو: «فليكن.... إن المكتوب لابد أن يكون كما يقول أعداؤنا..».

ولم يسع جيانتينو إزاء ذلك إلا أن يتمنى له النجاح في خطته الجريئة الخطرة، ثم مضى هو ورجاله، وتركه يهيىء فرقته لانقاذ الأسرى الذين بالقلعة الصغيرة.

وكان الأمر كما توقعه بروسبيرو، فقد وجد فناء القلعة خاليًا من الجنود، وسمع من وراء باب موصد هناك أصواتًا تطلب النجدة، فأمر جنده بتحطيم ذلك الباب، وسرعان ما اندفع منه الأسرى وأخذوا يعانقون منقذيهم ويقبلونهم وهم أشبه بالعراة، وقد قيدوا بالأغلال، وطال شعر رؤوسهم ولحاهم، ولا يقل عددهم عن تسعمائة رجل.

وأخذ بروسبيرو يتأمل حالهم راثيًا لما أصابهم، ثم أمر رجاله بفك قيودهم، فلما انتهوا من ذلك نظمهم صفوفًا، ثم أصدر أمره بمغادرة القلعة على أن يمشي نصف جنوده أمام الأسرى ونصفهم الآخر وراءهم وما كاد الأسرى يخرجون إلى الطريق حتى أصر أكثرهم على الانتقام من آسريهم بالانضمام إلى القوات التي تهاجم القلعة الكبيرة. ولم يسع بروسبيرو إلا تركهم وما يشاءون، فانطلق حوالي مائة منهم نحو القلعة الكبرى معتزمين الحصول على السلاح اللازم لهم من البيوت التي يصادفونها في طريقهم.

وفي الوقت نفسه كان الجيش الذي يقوده جيانتينو قد استحوذ على البلدة، فأخذ

جنوده ينهبون ويسلبون تاركين اقتحام القلعة الكبيرة إلى ما بعد ذلك، وبعد قليل انضم إليهم أولئك الأسرى، وكانوا أعرف بمواطن الثروة والمال، فتقدموا حملة السلب والنهب، بينما مكث جيانتينو في ميدان السوق ومعه حوالي ستين من رجاله في انتظار عودة تلك الحملة. واكتفى الجنود الذين معه بما غنموه من فاكهة وحلوى تركية وسلم مختلفة كانت في السوق..

وفي خلال ذلك كان بروسبيرو قد وزع بقية الأسرى الذين أنقذهم على سفنه الست الراسية عند ذلك الرأس. ثم استقل قاربًا، قاصدًا إلى السفينة جريفوني ليقدم تقريره إلى الأميرال. وكانت تلك السفينة قد تقهقرت إلى مؤخرة الأسطول إذ أصيب صاريها وشراعها. وكان الأميرال دوريا واقفًا مع دون الفارو دي كارباجال، فلما رأى بروسبيرو قال له:

– ما الذي جاء بك إلى هنا بعد أن أمرت بأن تبقى على البر؟.. هل كل واحد هنا يتحدى سلطتي؟.. قبل أن ننهي من هذه الحملة، سأريكم من هو القائد.

وكان من المنتظر أن تثور ثائرة الأميرال، ولذا أدرك بروسبيرو أن غضبه هذا لابد أنه نتيجة جدل سابق مع دون الفارو، ولذلك رد مبتسمًا:

– لقد جئت ياسيدي لأقدم تقريري، فقد كان من حسن حظني أني استطعت فك إسار نحو ألف مسيحي كانوا معتقلين بالقلعة الصغيرة.

ثم ذكر كيف وزعهم على السفن وأنه جاء ليتلقى أوامر الأميرال بشأنهم. فلما سمع الأميرال ذلك ولى غضبه وقال لدون الفارون:

– هل سمعت؟.. لقد أنقذ ألفًا من إخواننا.. أفتقول بعد ذلك أني أبدد البارود عبثًا هنا؟

وفي هذه اللحظة أطلقت المدافع من السفن التي في المقدمة، وكان دويها كقصف الرعد. ولكن لم تجاوبها القلعة. فجعل الأميرال يتساءل: «أكفت القلعة عن الضرب لنفاد

ذخيرتها؟.. أم أنها خدعة من الأتراك ليستدرجونا إلى الاشتباك معهم؟».

وأمر بروسبيرو بأن يبقى هنيهة حتى يستوضح الأمر.. ثم أصدر أمره بالكف عن الضرب. وبعد قليل أنقشع الدخان عن زورق جاء مسرعًا من الناحية الشرقية، ثم نزل منه جاويش يطلب مقابلة الأميرال توًا. ولما لقيه كان يلهث من التعب وقص عليه قصة عجيبة، دلت على أن القائد التركي «قره مانلي» لم يكن غبيًا ولا جبانًا. فقد كان يرقب من القلعة ما يحدث في المدينة من أعمال النهب والسلب، والفوضى التي أصبح فيها جنود الفرنجة من جراء ذلك، ورأى في ذلك فرصة سانحة، فدهمهم بقوة ألفها من خمسمائة رجل من جنود الحامية والأهالي حيث أعملوا فيهم القتل والذبح.

وبينما كان الجاويش الأسباني يروي ما حدث، رأى الذين على ظهر السفينة جريفوني جماعات من الجنود يهربون نحو السفن، ومن خلفهم جنود الأتراك يسوقونهم إلى البحر. وسرعان ما تقدمت السفينة «ليجوريا» لإنقاذهم غير مبالية خطر ضربها من القلعة. فاستطاعت بقية جنوده وعددهم يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة بينهم الجنود الذين كانوا معه في السوق.

وطلب جيانتينو إلى قائد السفينة ليجوريا أن يذهب به إلى سفينة القيادة، وهناك وقف أمام عمه الأميرال يلهث من التعب ويتصبب منه العرق ويسيل الدم من جراحه ويرتعش من السخط والرعب معًا.

وكان بروسبيرو ودون الفارو ما زالا مع الأميرال فسمعا جيانتينو وهو يذكر له كيف وقعت الكارثة، ثم سمعا الأميرال يقول غاضبًا:

– لقد أنقذ بروسبيرو ألف أسير من غير أن يفقد سوى رجل واحد. أما أنت فلم تفعل شيئًا ومع ذلك فقدت نصف قوتك.

فرد جيانتينو غاضبًا: «ما كان لي أن أتوقع ما حدث؟ إن أولئك الجنود المتمردين، بل أولئك اللصوص قد راحوا ينهبون ويسلبون..».

فقال له الأميرال: «كان جديرًا بك أن تمنعهم وأن تواصل الهجوم على القلعة..».

فقال جيانتينو: «كيف كنت أستطيع أن أمنع سيلًا من الجنود بيدي؟».

وهنا قال له دون الفارو: «ليس بيديك ولكن بسلطانك. أليست لك سلطة عليهم؟».

فتدخل بروسبيرو قائلًا: «إننا إذ نقف لنتجادل هنا، قد نهيىء للأعداء فرصة ذبح الجنود الذين أسروهم. وعلى هذا أستأذن سيدي الأميرال في أن أذهب لأحاول إنقاذهم.. إن جنودي لا يزالون على اللسان بجانب السفن، وهم يستطيعون أن..».

فقاطعه جيانتينو قائلًا: «ليس لدينا متسع من الوقت.. إننا جميعًا في شرك الآن. وإذا تأخرنا ضاع الأسطول... لقد صرح لنا أسير مسلم بأن النكبة لا تلبث قليلًا حتى تحل بنا، لأن خير الدين ومعه ياقوت والريس سنان وكاشا ديابلو في الطريق بأسطولهم كله لنجدة القلعة الكبرى..».

فسأله أندريا دوريا: «أتقول أسطول بربروسا كله؟

فرد جيانتينو: «نعم.. وهو مؤلف من حوالي مائة سفينة..».

ورفع الأميرال بصره بغتة وقال: «رباه.... إنها آتيةُ حقًّا..».

ونظر الحاضرون إلى الأفق الشرقي حيث نظر الأميرال، فإذا بهم يرون السفن القادمة وكأنها طيور تحلق علاًّ إنخفاض، وليس بينهم وبينها إلا حوالي ستة أميال.

وعندئذ قال بروسبيرو: «إن مجيء سفن الأعداء أدعى إلى أن أسرع لإنقاذ أولئك الأسرى، فأذن لي في ذلك يا سيدي الأميرال..».

فقال له دوريا: «لقد فات الأوان يا بروسبيرو.. عد إلى سفينتك وأقلع توًا بأسطولك..».

فقال بروسبيرو: «ألا أحاول إنقاذ أولئك البائسين الذين على البر؟..».

فصاح به دون الفارو: «دعهم إلى مصيرهم..».

وردد دوريا بصره بين الاثنين وقال: «علي أن أنقذ الأسطول.. أما أولئك الجنود فعليهم أن يتحملوا عاقبة طيشهم.. وسأعطي الآن إشارة الرحيل وعليهم إذ يسمعونها أن يشقوا طريقهم إلى البحر بقدر ما يستطيعون..».

فقال له بروسبيرو: «وإذا لم يستطيعوا المجيء؟... أعني إذا كانوا الآن معتقلين، فما العمل؟.. إن في تركهم هكذا ما لايتفق مع الإنسانية..».

فرد الأميرال قائلًا في عنف: «إن مهمتي هي قيادة الأسطول.. هيا إلى سفينتك..».

ثم أصدر أمره بالرحيل، فأطلقت ثلاث طلقات إنذارًا بذلك، وسمع على أمواج البحر والأثير صوت خافت لصيحات الجنود والأهالي المسلمين، وقد وقفوا على ربوة لايصل إليها مدى طلقات المدافع، وكانوا يهللون ويكبرون وعاد الأميرال يأمر بروسبيرو بالذهاب إلى سفينته، لكن هذا أصر على الذهاب إلى الشاطيء لانقاذ الأسرى من جنود جيانتينو. فعنفه الأميرال وقال له: «عليك أن تطيع الأوامر؟».

فرد قائلًا : «من العار أن أطيع هذه الأوامر، كما أن من العار عليك أن تصدرها..».

فاشتد الغضب بالأميرال وقال له: «إن هذه الإهانة المنبعثة عن جهل لا ترقى إلى..».

ثم تغلب على غضبه وقال له: «فكر في الوقف جيدًا.. لدى عشرة آلاف جندي على ظهر هذه السفن.. أتريد أن أعرض حياتهم للخطر في سبيل انقاذ أربعمائة؟.. أم تريد أن أضيع الأسطول من أجل أربعمائة جندي ربما كانوا الآن قد قتلوا عن آخرهم؟.. لقد كسبت يا سيد بروسبيرو شيئًا من الشهرة بوصفك قائدًا بحريًا.. والآن تجعلني أتساءل: كيف توصلت إلى ذلك ؟..».

وكان بروسبيرو قد تولاه الغضب فرد هذه الإهانة بمثلها وقال له: «وصلت إلى ذلك بعدم الفرار من الخطر كما رأيت أنت في معركة جوالاتا..».

وإذ قال ذلك قفز إلى الزورق فصاح دوريا قائلًا: «أمسكوه..». وصاح به دون الفارو قائلًا: «أنت مخطيء يا دون بروسبيرو». بينما قال جيانتينو وهو يضرب الأرض بقدمه: «يا له من كلب وقح متمرد.. لعل هذه خاتمة حياته.. لقد كان يجدر بنا أن نوقن بأنه لا صلح مع هذا الأحمق المغرور..».

وسكنت ثورة غضب الأميرال إذ تذكر في تلك اللحظة قوله لجيانا: «سأعيده إليك بعد الحملة سالمًا».

وكانت سفن بربروسا قد اقتربت حتى بانت أشرعتها الكبيرة المثلثة، ولم يخف على الأميرال أندريا دوريا أن تلك السفن يبلغ عددها ثلاثة أضعاف سفنه. ولم يبق أمامه إلا الفرار بأسطوله بأسرع ما يستطيع.. فأصدر أمره إلى سفن أسطوله بالاتجاه إلى جزر البليار.

لم تخف على أسطول الأتراك حركة انسحاب أسطول الفرنجة بقيادة الأميرال أندريا دوريا وسرعان ما تبعه خير الدين بربروسا بالجانب الأكبر من أسطوله، بينما اتجه ياقوت بعشر سفن من الأسطول إلى خليج شرشل ليرى ما هناك وقد وجد الميناء خاليًا من السفن ما عدا سفينة إمبراطورية واحدة بها عدد من الأسرى الأتراك وليس بها من يحميها. وكانت الوحيدة الباقية من السفن الثلاث التي قادها بروسبيرو إلى ذلك اللسان ثم تركها ونزل إلى البر لينقذ الأسرى المسيحيين، بينما ترك السفينتين الأخريين اللتين يمكنهما أن تذهبا مع أسطول دوريا وعليهما الأسرى الثمانمائة الذين أنقذهم من القلعة الصغرى قبل ذلك.

وقد استولى ياقوت على تلك السفينة الباقية، ثم نزل مع جنوده إلى المدينة حيث اتجهوا إلى الملعب الرومانى بها، وهناك وجدوا قوة من الإفرنج وقد أحاطت بهم جماعات العرب والأتراك. وكانت تلك القوة، من جنود بروسبيرو وقد انضم إليهم بعض الأسرى

الأسبان.

وكان من اليسير على ياقوت الملقب بسيف الإسلام أن يغلب رأيه على رأي الحاكم التركي، وسرعان ما أمر بجلب المدافع على ظهور الثيران من القلعة ليقضي على تلك القوة الباقية من الحملة. ثم بعث إلى من بالملعب رسولًا يحمل علمًا أبيض ليطلب منهم التسليم. ولم يرد بروسبيرو أن يبت في الأمر وحده، وسأل أتباعه عما يريدون، وكانوا قد رأوا المدافع التي جلبت وأيقنوا بالهلاك، فتشبثوا بالفرصة التي أتيحت لهم للبقاء على قيد الحياة، وآثروا عذاب الأسر وذله لعلهم يجدون فرصة أخرى للخلاص.

وهكذا طرحوا أسلحتهم أرضًا، وخرجوا من موقعهم مستسلمين. فأحاط بهم جنود ياقوت وساقوهم إلى حظائر أعدوها لهم حتى يحين أوان بيعهم في سوق الرقيق.

وكان آخرهم بروسبيرو وقد امتلأ قلبه حزنًا على مصيره ومصير هؤلاء الجنود الذين جاء ينقذهم فانتهى به وبهم الأمر إلي هذا المصير، وكان شديد الحقد على أندريا دوريا إذ خذلهم وفر بأسطوله بدل أن ينجدهم. ونسب ذلك إلى الأثرة المعهودة في آل دوريا وقال لنفسه. «حقًا.. لقد كنت أبله إذ حسبت أن العداء القديم مع أولئك القوم قد زال..».

وقد خرج وحده من الملعب الروماني ووقف يواجه الجموع وهي تكيل له السباب وتهز أسلحتها في وجهه، وهناك رأي الريس ياقوت في مركز القائد الأعظم، وقد ارتدى قفطانًا من سندس أخضر، يتدلى من حزامه سيف عربي ذو مقبض من الذهب والعاج. وعلى رأسه عمامة من حرير أخضر تجللها خوذة مدببة تلمع في الشمس كالفضة المصقولة. وفي الوقت نفسه لمحه ياقوت، فنظر إليه وقد ارتسمت على شفتيه القرمزيتين ابتسامة خفيفة، ثم تقدم منه وهو يزيح الناس من على جانبيه، وبعد أن حياه تحية حسنة قال له ضاحكًا: «هكذا تقلبات الحرب، مرة أخرى يا سيد بروسبيرو..».

وقد كلمه بلغة الفرانكا التي هي مزيج من عدة لغات ويعرفها أهالي شواطيء البحر الأبيض المتوسط. ورد عليه بروسبيرو قائلًا: «مادمت قد قدر لي أن أقع في الأسر، فإني يسرني أن أكون أسيرك أنت..». ثم أخذ يفك حزامه ليقدم سلاحه إلى ياقوت ولكن هذا

منعه من ذلك قائلًا له: «كلا.. أبق عليك سيفك يا سيد بروسبيرو.. تكفيني منك كلمة الشرف..».

فحنى بروسبيرو له رأسه وقال: «إنك شهم كريم يا سيد ياقوت..».

فرد ياقوت قائلًا: «إني أعامل الناس كما يعاملونني... وقد لقيت منك حسن المعاملة حين كنت أسيرك.. وأقسم برب العزة لتلقين مني مثلها ما دام القدر قد رماك بين يدي.. والواقع أني لم أكن أتوقع أن أجدك بين أتباع ذلك القرصان الوغد أندريا..».

فقال بروسبيرو: «هكذا تقلبات الحرب كما قلت ياسيد ياقوت. إن حياة الجندية مملوءة بالمصادفات..».

فقال له ياقوت: «بل كل شيء بإرادة الله.. لقد كتب الله لي أن أسترد الثلاثة الآلاف دوكات التي إفتديت بها نفسي من الأسر.. وإلى أن يتم ذلك يجب أن تعد نفسك ضيفي يا سيد بروسبيرو..». وهو يشير بالثلاثة الآلاف دوكات إلى أن بروسبيرو سيفتدي بمثلها.

والحق أن بروسبيرو لم يجد أي سبب للشكوى أثناء وجوده ضيفًا على ياقوت في شرشل ثم في الجزائر. وقد علم منه أن أندريا دوريا استطاع الإفلات من مطاردة خير الدين والعودة بأسطوله سالمًا إلى جنوا، فعلق بروسبيرو على ذلك قائلًا: «كان خيرًا له لو أنه واجه عدوه ولم يهرب..».

فرد ياقوت قائلًا: «لعل سيده الإمبراطور ليس من هذا الرأى، وإني أحمد الله على أني لست جبانًا، لكني لا أشتبك في قتال أتوقع منه الهزيمة..إن ذلك لا يعد شجاعة بل هو سوء قيادة..».

وعلى هذا لم يجد بروسبيرو غضاضة على نفسه من أن يوفد إلى الأميرال دوريا رسولًا ليقابله في جنوا ويعود من عنده بثلاثة آلاف دوكات ليفتدي بها حريته ويعود إلى وطنه.

وكان دوريا قد وصل إلى جزيرة ماجوركا بعد أن فقد سفينتي نقل تأخرتا في الطريق وأسرهما خير الدين، كما فقد من رجاله سبعمائة في مقابل الثمانمائة الذين أنقذهم بروسبيرو من الأسر. وفي طريقه بعد ذلك صادف أربع سفن جزائرية قاصدة إلى مصر فأسر إحداها وحرر من كانوا فيها من الأسرى المسيحيين. وبذلك رأى أنه فعل ما يمكنه من رفع رأسه حين يعود إلى موطنه.... أما بروسبيرو فافترض الجميع أنه لقى حتفه في "مغامرته لانقاذ جنود جيانينو الذين تخلفوا في شرشل، وقال دون الفارو دي كاربا جال في تقريره عنه: «أنه مات ميتة الأبطال». أما الأميرال دوريا فقال عنه: « لقد راح ضحية عمل من أعمال الشجاعة التي يكتنفها التهور..».

على أنه كان شديد الألم إذ لم يعد إلى جيانا بخطيبها كما وعدها.. وقد خشى أن يلقاها وهو الذي لا يخاف أحدًا.. فلما لمحها واقفة مع قرينته مادونا بيريتا في الطليعة بين مستقبلية بالميناء، راعه ما اعتراها من تغير فقد كانت شاحبة الوجه زائغة البصر. وعجب لأنها لم تسأله عن خطيبها كما كان ينتظر، ثم قال لها أخيرًا وهو يقبلها قبلة أبوية : «عندي لك نبأ خطير »لكنها بقيت ساكتة ولم تسأله عن هذا الخبر؟. وكانت مادونا بيريتا واقفة بجانبها وقد أمسكت بيدها مواسية. فأخذ الأميرال يقص عليها نبأ خطيبها مشفقًا من أن يصعقها النبأ، ولكنها قالت في هدوء: «إني أحمد الله على أن نهايته كانت هكذا نهاية شريفة..».

ولما وقف الأميرال على خافية الأمر أخذته الدهشة واستبد به الألم.. ذلك أنه بعد سفره في تلك الحملة البحرية، ومعه بروسبيرو أدورنو، اشتد سخط آل سبينولي عليهما ورأوا في عقد الصلح والمصاهرة بين بيتيهما خطرًا على مطامعهم.. وهكذا لم تمض على بدء تلك الرحلة أيام حتى تصدى فابيو سبينولى للشاب تاديو أدورنو متعمدًا إهانته. فلم يسع هذا إلا أن دعاه إلى المبارزة وقتله... وفي اليوم التالي سلط آل سبينولي من حاول اغتيال تاديو أدورنو أخذًا بالثأر.. فتوجه والده إلي مادونا أوريليا والدة بروسبيرو، وقال لها:

– إن خيانة ابنك لنا قد بدأت تؤتي ثمارها. ولا يبعد أن يموت ولدي من الجروح التي أصيب بها في محاولة قتله.. ولكني أقسم بالقديس لورنس لأجزين بروسبيرو على ذلك حين يعود، باستلال دمه قطرة قطرة من عروقه.

فامتقع وجهها وقالت له: « أتهددني بقتله؟، فأجابها غير متمالك نفسه: إن القتل وحده لا يكفي قصاصا منه، إنه وحده المسئول عم أصاب ولدي.

فقالت له: «أحسب أن الأجدر بك أن تثأر لولدك من آل سبينولي الذين حاولوا اغتياله».

فقال لها: «لن يفوتني ذلك، ولكنني في الوقت نفسه لن أدع ولدك يفلت من القصاص جزاء على خيانته التي جلبت العار على بيتنا كله.. لقد بعثت انيبالي في أثره لهذا الغرض..».

ففزعت وقالت له: «بعثت بولدك انيبالى وراء بروسبيرو ليقتله؟ لا شك أنك جننت... وكذلك ولدك..إنك لا تدري ما أنت فاعله أيها الأحمق..».

ولما هم بالإنصراف منعته من ذلك وقالت له هامسة : «إنك أعمى البصر والبصيرة يا رينالدو.. إن الأمر ليس كما تظن.. وإذا نفذت وعيدك فستندم على ذلك إلى آخر حياتك.. ألا ترى أيها الغبي أن بروسبيرو ما كان يمكنه أن يفعل غير ما فعل؟».

فضحك ساخرا منها ولكنها صاحت به قائلة: « اسمع أيها الأعمى الأحمق.. ماذا كان آل أدورنو يستطيعون أن يعملوه وهم في المنفى؟.. قبل أن نسوي حسابنا مع آل دوريا كان لزاما علينا أن نعود إلى جنوا. وكيف كان يمكن ذلك إلا إذا جعلناهم يطمئنون إلينا؟».

ثم أوضحت له أن الصلح الذي تم بين بروسبيرو وآل دوريا ليس سوى صلح ظاهري أراد به خداعهم. وقد قبل ما عرضوه عليه لكي يكون أقدر على الإنتقام منهم، ففتح رينالدو فاه من الدهشة وتساءل قائلًا: «ولكن كيف يصل به الأمر إلى أن يخطب

جيوفانا ماريا دوريا؟.. أحسبك قد نسيت ذلك.. كلا.. إني لا أصدق ما تقولينه».

فقالت له: «بل هو الصدق.. وأقسم لك بالكتاب المقدس.. فقال: «هذا عجيب جدًا..، وتلك السيدة التي خطبها؟».

فابتسمت مادونا أوريليا ابتسامة تنم عن القسوة وقالت: «تلك الخطيبة؟.. سوف تكون موضع السخرية ويشركها فيها آل دوريا جميعا..».

فارتاع رينالدو وقال: «إذا صح هذا فإن بروسبيرو يكون بذلك قليل الشرف، كما لو كان قد خان أسرته..

فقالت له محتدة: «إذن أنت غير راض عنه في الحالين؟ ولا أدري ما الذي يرضيك إذن؟».

فقال لها: «هناك حدود يا سيدتي.. الإنسان لا ينبغي له أن يسحق إمرأة في سبيل الانتقام، بل يجب أن يثأر من عدوه مباشرة..».

فسخرت منه وقالت: «إذن.. لماذا لم تجذب أنت الحية أندريا دوريا حين كان هنا؟.. ولماذا لا تنتقم بنفسك من بعض رجال أسرة دوريا الآخرين؟». ثم تركته ينصرف، وتحقق ما خشيته من إفشائه ذلك السر، فزارتها بعد ثلاثة أيام دوقة ملفي (قرينة الأميرال) ومعها ابنة أخيها جيوفانا ماريا (جيانا) خطيبة بروسبيرو، وحيتهما عند الباب بقولها: «لقد شرفتها بيتي..». ثم مضت أمامهما إلى غرفة الإستقبال. وهناك قالت لها الدوقة : «ما دامت صحتك قد حالت دون تشريفك بيتنا، فقد رأيت أن واجب بنت أخي يقتضيها أن تزورك.

فردت مادونا أوريليا قائلة: «لقد تأخر أداء هذا الواجب قليلًا فيما أظن..».

وهنا قالت جيانا برقة :«لكني لم أقدر أن أؤخر أداءه يوما آخر..».

وكانت والدة بروسبيرو تواجه زائرتيها وكأنها مشتبكة في مبارزة، ثم قالت الدوقة: «إني أقر يا مدام بأني كنت أسائل نفسي: أصحتك هي التي أبعدتك عنا أم هناك سبب

آخر؟ وقد زاد إرتيابي حين رأيتك تستقبلين خطيبة ابنك استقبالًا غير حار..».

فردت مادونا أوريليا قائلة: «كنت أستقبلها الاستقبال الحار لو أنني كنت قد اخترتها لولدي... ولكن هذا ما لا أدعيه... ويحسن بنا أن نكون صريحات..».

فقالت لها جيانا: «أأنتِ الآن صريحة يا سيدتي؟ لقد سرت في المدينة قصة يُقال إنك مصدرها.... إنها قصة كريهة.. قصة شائنة.. وقد بلغ من قبحها وشناعتها أن عمتي مترددة في سؤالك عنها.. ولكن سامحيني يا سيدتي إذا لم تكن لي لباقة مادونا بيريتا.. وأنت تقدرين ولا ريب شدة حاجتي إلى الوقوف على الحقيقة من غير مواربة أو خفاء.. إن تلك القصة تقول..».

وكانت مادونا أوريليا قد تغلب الغضب على اتزانها فقاطعتها قائلة: «إني أعرف تلك القصة ولا حاجة بك إلى تكرارها... لقد ذكرت قبح تلك القصة وشناعتها وما فيها من إهانة.. ولكن ألم تكن شر إهانة لنا آل أدورنو أن تتصوروا أن ولدي يصاهر قاتل أبيه؟».

فارتاعت الدوقة ولم تزد على أن قالت: «رباه..».

أما جيانا فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت: «إن تلك الإهانة أقل كثيرًا من أن يُنسب إلى بروسبيرو أدورنو مثل هذا الخداع..».

– إن وجهات النظر تختلف.. ونحن نقدر أن نحتمل هذه الاهانة.. ثم صاحت بها الدوقة قائلة: «لقد فهمت أن تلك القصة الشنعاء صادقة.. أشكر لك مصارحتنا بالحقيقة..».

وقامت تريد الانصراف قائلة لابنة أخيها: «تعالي يا بنيتي.. لقد تلقينا الجواب الذي جئنا نسأل عنه؟». ولكن جيانا قالت: «لا يمكن أن يكون الأمر كذلك..». إنها أكذوبة ناشئة من الحقد علينا والرغبة في إيلامنا..» ثم وجهت كلامها إلى والدة بروسبيرو قائلةً: «هل نسيتِ يا مدام أن ابنكِ ذهب يقاتل، وأنه إذا لقي حتفه بقيت ذكراه ملوثةً بهذه الفرية التي لا يصدقها إلا الحمقى؟».

فضحكت مادونا أوريليا ضحكة تنم عن قسوة وقالت: «إذن أنت تؤثرين أن تبقى في جنتك الوهمية؟.. ألم يمكث بروسبيرو مدة طويلة في جنوا ؟ فكيف إذن لم يتزوجك في خلالها؟.. ما الذي منعه؟.. لعلك تدركين الآن لماذا كان بارد العاطفة نحوك كلما لقيك».

وعندئذٍ فقط أدركت جيانا الحقيقة، فامتقع وجهها وتولتها رعدةً شديدةً.. ثم قادتها عمتها الدوقة من يدها لتخرجا وهي تقول لمادونا أوريليا: «إن ابنك يا مدام جدير بأمه الفلورنتينية».

وقد روت الدوقة لزوجها الأميرال كل ذلك فلم يرد أن يصدق في البداية، ولكن ابني أخويه كانا حاضرين، فقال له فلبينو: «لقد كنت على صواب إذ جعلته في الأسر يكدح على مجداف».

وقال جيانتينو: « وكنت مصيبًا كذلك حين عارضت فكرة مصاهرته لبيتنا».

وكان صبر الأميرال قد نفد فقال لهما: « أتريدان أن تقولا إني أحمق وأنكما وحدكما العاقلان؟ ولكن لا تنس يا فلبينو أن مسلكك نحوه هو الذي جعل الحقد في قلبه مستعرا لا يخمد».

– أتريد أن تلتمس له عذرًا حتى الآن؟

– إني لا ألتمس له عذرًا... ولكني أحمدُ الله لقد انتهى أمره.

فقال جيانتينو: «كنت أفضل أن تكون خاتمته على يدي لا بأيدى الأتراك..».

وبعد بضعة أسابيع من ذلك كان الأميرال غائبًا عن جنوا، وكان جيانتينو بالقصر، فجاءه أحد ضباط الميناء بشاب عربي يدعي يعقوب، وذكر أنه وصل على سفينة ومعه كتاب إلى الأميرال دوريا، فلما سأله جيانتينو عمن أرسله علم منه أنه مرسل من الريس ياقوت، وأن الأمر يتعلق بافتداء بروسبيرو أدورنو. وعندئذٍ أسرع جيانتينو إلى فض ذلك الخطاب فقرأ فيه ما يلي وكان بلغة إيطالية لا بأس بها:

«سيدى الدوق.. يسرك أن الله تعالى قد شاءت إرادته أن يبقى على حياة الكابتن

الافرنجي بروسبيرو أدورنو الذي هو أسيرى الآن. وأنا بكل سماحة لا أقدر فديته بأكثر من الثلاثة الآلاف دوكات التي دفعها لك سيدي خير الدين فدية لي.. ومتى دفع هذا المبلغ فسأطلق سراحه وأعيده إليك سالمًا في جنوا.. وفي خلال ذلك يبقى رهينةً لسلامة رسولي إليك يعقوب بن آذار».

وبعث جيانتينو في طلب ابن عمه فلبينو، وأخذا يتشاوران فيما ينبغي عمله. وكان من رأي الأول دفع الفدية كي يأتي بروسبيرو إلى جنوا ويشنق علنًا بتهمة العصيان والتمرد. ولكن ابن عمه كان أخبث منه فقال له:

– إن دل فاستو صديق بروسبيرو، وسيدافع عنه عند الامبراطور، كما أن دون الفارو دى كارباجال سيشهد بأن تمرده لم يكن إلا عملًا من أعمال الشهامة، وعلى هذا أفضل أن أقتله في مبارزة فلن يوجد من يلومني عندئذ.

فقال له جيانتينو: «ولكن إذا قتلك هو؟». فأجابه قائلًا: «في هذه الحالة تبقى أنت لتبارزه، وإذا قتلك أيضًا فهناك عشرات من آل دوريا عليهم أن يبارزوه حتى يقتله أحدهم..».

وبعد جدال اتفق رأيهما على أسر رسول ياقوت ووضعه في إحدى سفن الأسطول حيث يكدح كبقية الأسرى، وبذلك يبقى بروسبيرو أسيرًا لدى الأتراك وما عليهما إلا أن يكتما نبأ ذلك الخطاب عن الأميرال.

العاصفة

قضى أندريا دوريا طول أشهر الشتاء يعمل جاهدًا لإعداد حملة جديدة قوية لتحطيم أسطول خير الدين بربروسيا وياقوت، ولما جاء الربيع كان كل شيء معدًا لهذه الحملة الجديدة. وكان الإمبراطور يكتب إلى الأميرال حاثًا اياه على الإسراع، لأن سفن ياقوت اشتدت غاراتها على الشاطىء الجنوبي من ريجيو إلى نابولي. وفي الوقت نفسه كان خير الدين قد شن على فوندي غارة جريئة حاول فيها أن يختطف الأميرة الحسناء «جوليا جونزاجا» كما اختطف غيرها من نساء «كالابريا» لكنها تمكنت من الفرار ليلًا على ظهر جواد وليس على جسدها سوى جلباب النوم.

وكان الأميرال دوريا أشد رغبة في إنجاز حملته الجديدة كي ينتقم لنفسه بعد أن فقد في تلك الغارة المفاجئة أسطول نابولي وفيه السفن الست المملوكة لبروسبيرو، إذ كانت قد ضمت إلى الأسطول الإمبراطوري بعد أن حسب في عداد الأموات، وجعلت تحت قيادة دون الفارو.. ولم تفلح محاولات دوريا قبل ذلك لضم هذه السفن إلى أملاكه الخاصة بوصفه صهرًا لصاحبها المفقود.

وجاءت الأنباء على إثر ذلك بأن أسطول ياقوت استولى على المراكز الأسبانية في أفريقية وهي سوسة وصفاقس وموناستر، فصار اسم ياقوت أشد رهبة في الصدور من اسم خير الدين نفسه.. وما علم الإمبراطور بذلك حتى دعا إليه الأميرال دوريا في برشلونة، حيث باحثه بنفسه في الأمر وزوده بتعليماته فيما يختص بالحملة الجديدة.

وفي مستهل الصيف، أقلع الأسطول الإمبراطوري الضخم قاصدًا إلى مهدية حيث أشعل فيها النار وأعمل في أهلها السيف، ثم استأنف رحلته على طول شاطيء أفريقية الشمالية وكأنه شبكة منصوبة لصيد السمك، وكلما مضى الوقت اشتدت حماسة دوريا وجنوده وقوى أملهم في القضاء على أسطول بربروسا وياقوت متى وجدوه.

وبينما كان دوريا مشغولًا بهذه الحملة في أفريقية الشمالية، وصل إلى ميناء جنوا زورق متين يقل بروسبيرو وأربعة من جنود نابولي، ويتولى قيادته ملاح من أهل جنوا يدعى فيروشيو، وكان ياقوت قد أطلق سراحهم على أن يرسل إليه بروسبيرو فديتهم بعد عودتهم إلى وطنهم. وقد فعل ياقوت ذلك تقديرًا لحسن معاملة بروسبيرو له حين كان أسيره من قبل.

لا شك أن زمالتهما في الأسر كان لها أيضًا أثر في ذلك، وكان بروسبيرو موضع تكريمه وهو أسير عنده، لكنه لم يكن يتوقع أن يطلق سراحه وزملاءه على هذا النحو، ولاسيما بعد أن علم بأسر يعقوب بن آذار الذي أرسله إلى دوريا في شأن إفتداء بروسبيرو.

وقوبل وصول بروسبيرو إلى جنوا بالدهشة من أهلها جميعًا، إذ كانوا يحسبون أنه مات، حتى أمه نفسها ما كادت تراه أمامها حتى أغمي عليها.. فلما أفاقت وقصت عليه الحديث الذي دار بينها وبين قرينة الأميرال وجيوفانا كاد يغمى عليه بدوره، ثم سارع إلى قصر فاسولا ليطلب لقاء مادونا جيانا.

وفيما هو في الطريق إلى القصر، خطر بباله موضوع أسر الرسول العربي الذي أرسله ياقوت إلى دوريا. فرأى أن يقصد أولًا إلى الميناء لعله يجده هناك بين الأسرى. وكان من حسن حظه أن عرفه حارس الأسرى فرحب به، وسرعان ما حقق له رغبته فجاءه بالأسير العربي يعقوب من السفينة التي يكدح فيها. وما إن رأى هذا بروسبيرو حتى أيقن بالخلاص من الأسر، وأخذ يجيب عن كل سؤال وجهة إليه، فعلم منه بروسبيرو أن الذي استقبله وتسلم منه الخطاب لم يكن الأميرال دوريا بل كان جيانتينو.

وصل بروسبيرو إلى قصر فاسولو بعد ذلك، كانت الدوقة هي التي استقبلته. ولم تقم من مقعدها حين دخل وإنما نظرت إليه نظرة صارمة. فانحنى لها باحترام وقال لها:

– أحسب أنه لا ضير من البعث بعد الموت أحيانًا، فإن الأحياء كثيرًا ما يفيدون من ذهاب الموتى.

فأجابته قائلة: «إن الموت يجعل الحي أدنى إلى الصفح من الميت..».

فقال لها: «إني لم آت أطلب الصفح يا مدام..».

فقطبت جبينها وقالت له: «ماذا؟ أما زلت متعاظمًا؟».

فقال لها ««بل أنا يا سيدتي في منتهى التواضع، لأني أعرف أني لست أهلًا للصفح».

فسألته: «لماذا جئت إذن؟».

فأجاب قائلًا: «لقد جئت لكي أذكر الحقيقة فلعل ذنبي عندئذ يبدو أقل شناعة مما هو».

فقالت الدوقة: «ما أظن أن ابنة أخي ترضي لقاءك.. وإذا رضيت فيجدر بك أن توفر عليها هذا الألم الجديد بعد ما قاسته من جراء مسلكك».

فقال: «أتعنين أنها تؤثرني ميتًا؟».

فقالت: «أيدهشك ذلك؟».

إنها إذ تحسبك ميتًا قد تفكر فيك بشئ من العطف».

فقال لها: «لو أنها سمعت مني الحقيقة لقل غضبها علي، ولهذا أتوسل إليك اسيدتي أن تدعيني أقابل ابنة أخيك».

فقالت له: كيف تصر على ذلك بعد أن ذكرت لك أن لقاءها إياك سيفتح في قلبها جرحًا لعله اندمل؟».

فقال لها: «لو كنت أتوقع ذلك لما طلبت لقاءها.. إني أحبها أكثر من الحياة ومن الشرف ومن كل شيء في الوجود».

واستمر يستعطفها حتى لأن قلبها أخيرًا وقالت له: «سأدعك تقابلها ولكن في حضوري..».

وبعد دقائق كانت جيانا أمامه وبجانبها عمتها الدوقة. وكان أول ما قالته له أن سألته:

– لماذا جئت؟.. لماذا بقيت على قيد الحياة؟

فأجاب قائلًا: «كان هذا.. لأن قرصانًا من الأعداء أبدى نحوي من الشهامة والكرم ما لم أجده من السادة المسيحيين الذين تركوني مرتين لكي أموت.. مرة حين لبيت داعي الشرف وأردت انقاذ مئات من جنودنا، ومرة أخرى حين أخفوا الرسول الذي بعث إلى جنوا ليطلب فدية عني».

وهنا تحدته الدوقة قائلة: «عمن تتكلم؟». فقال لها على الفور:

«إنني يا سيدتي أتحدث مع الأسف عن بعض السادة من بيت دوريا..».

فامتقع وجهها وقالت له: «لقد خدعتني.. فإني حسبتك جئت لتطلب الصفح عنك لا لتتهم الناس..».

فقال لها: «صبرًا يا سيدتى.. إني لا أتهم ولا ألوم وإنما أذكر الحقيقة.. ويمكنني أن أجيئك بذلك الرسو.؟ إنه شاب عربي يدعى يعقوب بن آذار وقد وجدته بين الأسرى صباح اليوم».

فقالت له الدوقة: «لكن كيف أثق بصدقه؟». فقال لها: «إذا لم تصدقيني بعد أن أجيئك بشاهد عيان فكيف بالله تصدقين ما سأقوله لك وليس لدي من برهان عليه سوى كلمة الشرف؟».

وهنا قالت له جيانا: «هل كلمة الشرف توضح ما كان؟.. إني لا أقدر أن أصف ما حدث منك... لماذا تبقى هنا الآن يا سسيد بروسبيرو؟.. إنك تضيع وقتك».

وهنا قال لها: لا قيمة لوقتي إلى آخر حياتي إذا لم أوضح لك خافية الأمر.. ولابد أن أبقى هنا حتى أداوي ما جرح من كرامتك».

فقالت له بشدة: «كرامتي؟ أتظن أنك لم تجرح إلا كرامتي؟».

فقال لها: «إنما أريد أن أبين لك مدى ذنبي على حقيقته».

فقالت له: «إنه معروف.... فليس هناك ما يحتاج إلى إيضاح».

فقال بروسبيرو: «إن الظواهر كثيرًا ما تكون خداعة.. وقد ذكرني عمي الكاردينال بذلك حتى لجأت إليه واستفتيته فيما كان من آل دوريا نحو آل أدورنو».

ثم أخذ يقص عليها وعلى عمتها الحقيقة بحذافيرها، من غير أن يخفي شيئًا.. فذكر قسمه على نعش أبيه، ثم قبوله الصلح ظاهريًا وموافقته على خطبة الفتاة المجهولة من آل دوريا، وعزمه على أن يرجىء الزواج بها إلى ما لا نهاية انتقاما منهم وإذلالًا لكبريائهم، ثم دهشته وحيرته حين رأى أن تلك الخطيبة المجهولة هي نفسها جيانا التي أحبها من كل قلبه.. ثم ذكر التجاءه إلى عمه الكاردينال الذي أحله من قسمه، ثم تركه فكرة الإنتقام منذ ذلك اليوم، دون أن يخبر أمه بالتغير الذي اعتراه لأنه يدرك أنها لا توافقه على الصلح والصفاء.

وكانت جيانا وعمتها تصغيان إليه وتقاطعانه أحيانًا ببعض الأسئلة فيجيب عنها في صراحة وإخلاص وأخيرًا قالت له الدوقة:

– سواء أكان الذنب ذنب الأميرال أم جيانتينو فإنه عمل ما أحسبه في صالح جيانا. ولكني لا أبرره.. كذلك لا ألومه.. ولكني أريد منك ألا يداعبك أمل في إمكان إتمام هذا الزواج.. فإن آل دوريا لن يثقوا بك مرة أخرى.. وليس لك حق في لومهم على ذلك.

فقال بروسبيرو: «إني لا ألومهم.. إن العداء الذي أردت إزالته قد اتسع مداه.. ومع ذلك يمكن تجديد الخطبة إذا وافقت جيانا».

فردت الدوقة قائلة: «إن هذه الخطبة تكون سبة لآل دوريا وآل أدورنو على السواء».

فقال لها: «إنهم ليسوا العالم كله.. دعي الأمر لمشيئة جيانا».

فقالت جيانا والدمع يترقرق في عينيها: إني خائفة يا عزيزى..

إن ما قالته عمتي هو الحق، فأنت بهذه الخطبة إنما تثير ثائرة قومي وقومك فتسحق سحقًا بينهما».

فقال بروسبيرو: «إن عظامي يابسة لا تسحق».

وفي هذه اللحظة جاء أحد الخدم يعلن قدوم السيد لامبا دوريا ابن عم الأميرال.. فأمرته بإدخاله غرفة جلوس أخرى حتى توافيه بعد لحظة.

ثم قالت لبروسبيرو:

– يجب ألا يراك هنا أو يعلم بوجودك.

وأراد أن يعارض، ولكنها أسكتته وذكرته برعونة لامبا وعدم كظمه الغيظ، وتوسلت إليه أن يذهب مراعاة لها ولجيانا معًا.

وهكذا إبتدأ ذلك اللقاء تحت سحابة سوداء، وانتهى تحت ضياء شمس مشرقة..كان لامبا دوريا قد علم من حارس الأسرى أن بروسبيرو عاد إلى الحياة وأنه موجود في جنوا. فجاء إلى الدوقة ينبئها بذلك وهو لا يعلم أنها عالمة به. ولما طلب إليها أن تحجز بروسبيرو إذا جاء إليها.. سألته عن الداعي إلى ذلك فأجاب قائلًا: «لكي نسوي حسابنا معه».

وكتمت جيانا ما بها من فزع وقالت له: «أتعني أنك تريد قتله؟».

وعندئذ أقر بأنه وكل رجل من آل دوريا سيتربصون له وأنهم لابد قاتلوه.

وأرادت الدوقة وجيانا أن تثنياه عن ذلك، ولكنه خرج من عندهما صاخبًا متوعدًا.. ثم ضم إليه شابًا من ذوي قرباه يدعى فلافيو دوريا، وأربعة من أتباعه، ومضوا ليلتين يتربصون لبروسبيرو في الظلام أمام قصر أدورنو، وفي الليلة الثالثة لمحوه قادمًا مع فيروشيو الملاح الذي جاء به من عند ياقوت وسرعان ما أشار لامبا على رفاقه بالهجوم عليهما، فجرد هذان سيفيهما واستندا إلى جدار ليدافعا عن نفسيهما. وكان فيروشير لا يقل عن

بروسبيرو شجاعة وبراعة في المبارزة. ولم تمض دقائق حتى جرحا واحدًا من أعدائهما، ثم جندل بروسبيرو رجلًا ثانيًا، فبقي من الجماعة أربعة. واشتد القتال بين الفريقين ولمعت السيوف والخناجر وسط الظلام، وسمع صليل السيوف وسط سكون الليل ففتحت أبواب البيوت وعلت الأصوات. وكان لامبا لم يقصد مثل هذا القتال بل رام قتل بروسبيرو غيلة ولكن يقظة الأخير فوتت عليه هذا الغرض، فلما خشي عاقبة تجمهر الناس سارع إلى الارتداد مع رجاله وهربوا وسط الظلام حاملين جريحهم معهم. أما القتيل فخلفه وراءهم.. ولما جيء بالنور اتضح أنه فلافيا دوريا.. فلم يأسف عليه أحد من الأهلين الواقفين حول جثته. وقال شيخ منهم: «هذه نهاية عادلة لمن أراد الاغتيال..».

وشكر بروسبيرو لمنقذيه، ثم أسرع مع فيروشيو صوب الميناء واستقلا زورق فيروشيو من مرسياه عند الباب المسمى باب البقرة. وقال الأخير: «لقد أشرفنا الليلة على الموت، وقد لا يوافينا مثل هذا الحظ الحسن مرة أخرى، وثق بأن لامبا سيعاود الكرة وقد زاده حقدًا مقتل قريبه فلافيو..».

وبات بروسبيرو ليلته مع صاحبه في الزورق.. وفي الصباح علم أن جماعة مسلحة يقودها لامبا هاجمت بيته ليلًا ولما لم تجده هناك اقتحمت دار الكاردينال باحثة عنه.. فلما لم تجده هناك أيضًا.. خرج لامبا مع رفاقه، وهو يقسم ليقتلنه حيثما يجده.

وجلس بروسبيرو برهة يفكر، ثم أدرك أنه لابد أن يغادر جنوا لأنه إن بقي فيها صار في خطر الإغتيال كل لحظة.. وخطر بباله أن يدعو لامبا دوريا إلى المبارزة، لكنه أيقن أنه لن يقبل مثل هذه الدعوة.

وكان عليه قبل أن يستقل الزورق مع فيروشير، أن يذهب إلى بنك سانت جورج بنفسه ليحصل على مال يشترى به مؤونة لهما في سفرهما.. وفيما هو يغادر البنك لمحه حمالان هناك فعرفه أحدهما برغم تغطيته أكثر وجهه بحافة قبعته، وسرعان ما تبعه من حيث لا يشعر حتى وصل إلى الزورق أخيرًا، فتركه مسرعًا إلى لامبا دوريا وأبلغه أمره، وكان لامبا قد تعهد بأن يعطي عشرين دوكاتا لمن ينبئه بمقر بروسبيرو.

وفي الوقت نفسه، بلغ النبأ إلى الدوقة وجيانا، فأرادت أولاهما أن تبعث رسولًا إلى بروسبيرو ليحذره، ولكن جيانا تطوعت للقيام بهذه المهمة وأصرت على ذلك قائلة لعمتها: «إنني لا أثق بأحد نبعثه في هذه المهمة».

وفي مساء ذلك اليوم وصلت جيانا إلى مرسى الزورق عند باب البقرة راكبة بغلًا وقد أخفت وجهها بحيث لا يعرفها أحد واستطاعت بسهولة أن تعرف الزورق برأس القطة المذهب المثبت على مقدمته، وكان معها خادمان، وقد بدأ الظلام ينشر وشاحه على المدينة والميناء، وأخذ المطر يتساقط مدرارًا. ولم يكد بروسبيرو يسمع صوتها وهي تناديه حتى أسرع لاستقبالها وقال لها: «أية معجزة جاءت بك إلى هنا يا جيانا؟».

وكانت شديدة الخوف عليه، فما رأته حتى ارتمت بين ذراعيه وذكرت له ما جاءت من أجله قائلة:

«يجب أن تذهب الآن من غير أن تضيع دقيقة واحدة.. إن لامبا ومن معه قد عرفوا مقرك».

فابتسم وقال لها: «إن لامبا يستحق مني الشكر إذ دلني على مكانتي في قلبك».

ثم أخذ ينظر إليها نظرة وله وغرام واحتضنها وهو يقول لها: «أريدك هادئة مثل هدوء فتاة الحديقة ذات الثوب الفضي في تلك الأيام الهانئة الخالية».

فقالت له: «كيف أهدأ يا بروسبيرو ما دامت حياتك في خطر؟.. لو كنت تحبني حقًا لذهبت توًا بسفينتك حتى أطمئن عليك».

فقال لها: «لقد فكرت في ذلك من قبل وأعددت العدة للرحيل. وفي نيتي أن أذهب إلى إسبانيا حيث لا يعوزني الأصدقاء.. وقد أخذت معي من الذهب ما يكفي لسد حاجتي».

فسألته: «ولماذا إذن لم تذهب؟».

فقال لها: «لأني في اللحظة الأخيرة عدت فكرهت أن أبعد عنك ثانية».

فقالت له: «أتريد أن تمكث لكي يقتلوك؟.. هل في ذلك راحة لي أو عزاء ؟.. هيا.. ارحل توًا ودعني أشرح كل شيء للأميرال حين يعود كي يوافق على زواجنا».

فقال لها: «إني موقن أن الأميرال وقومه لن يوافقوا على ذلك بأي حال».

فقالت له: لسنا بحاجة إلى موافقتهم ؟.. إنني لست سليلة بيت دوريا إلا بالتبني.. وقد اتخذت لنفسي لقبهم إجابة لرغبة عمتي.. وإني لنادمة على ذلك فقد كان أصل الشر كله، ولكني ما زلت جيوفانا ماريا مونالدي وسيدة نفسي ومالكة للثروة التي خلفها علي أبي. وأنا حرة التصرف في نفسي وفي مالي، كما أشاء.. فإذا كنت لا تقدر على العودة إلى جنوا لكي تطلب يدي، فلا شيء يمنعني من أن أذهب إليك حيث تكون».

فقال لها في حزم: «لا شيء يمنعك من الإبحار معي الآن.. فحملقت فيه دهشة، وبدا عليها شيء من الخوف.. ثم استطرد قائلًا: «إنها رؤيا سعيدة تراود نفسي يا جيانا. ومجيئك إلى الآن بشير بتحقيقها، ولماذا نقاسي فراقًا جديدًا بيننا لا يدري إلا الله متى ينتهي أمده؟ أني أقسم بالله لا افترقن عنك بعد اليوم، وفي يدك الآن أن أبقى مهما تكن العاقبة، أو أن تذهبي معي فورًا».

فقالت له: «هل جننت يا بروسبيرو ؟.. كيف تطلب مني ذلك؟».

فقال لها: «إني إنما أطلب إليك أن تتزوجيني توًا وسيعقد قراننا عمي الكاردينال، وهو لحبه أياى لا يبالي أن يتحدى آل دوريا بذلك. وبعد حين يمكننا أن ننال رضى الأميرال. ولك أن ترفضي ذلك فأبقى هنا».

وكان المطر يتساقط على سقف الديوان الذي كانا به، وكانت يدها ترتعش في يده، وقد اشتد الظلام حتى صار عسيرًا على كل منهما أن يرى الآخر.

وفيما هو كذلك إذا بهما يشعران بالسفينة تتحرك وقد تركت مرساها، ويسمعان صوت فيروشيو وهو يقول لهما: «تحركا أيها المحبان».

ولم يصبر فيروشيا حتى يستأذن سيده، فقد كان منذ لحظة في حانة ورأي لامبا دوريا

وعصابته هناك يحتسون الخمر ويسألون عن زورق شراعي اسمه «جاتا» فلم يمكث فيروشيو حتى يسمع المزيد وجاء يجري إلى الزورق حيث أسرع بالابتعاد به عن المرسى قبل أن يأتي أولئك القتلة.

ولما ابتعد الزورق قليلًا نظر بروسبيرو إلى حيث أشار فيروشيو فرأى وسط العتمة جماعة لا يقل عددها عن اثني عشر رجلًا قادمين مسرعين نحو رصيف الميناء. فصاح به قائلا: «أوقف الزورق.. أنهرب من أولئك الكلاب؟».

فرد عليه فيروشيو قائلًا: «أتريد أن نبقى لكي يقتلونا.. هناك وقت يحسن فيه القتال، ووقت يحسن فيه الفرار».

ولما ابتعد الزورق وقف لامبا دوريا على البر وهو يلوح بسيفه ويكيل السباب صائحًا:

– لن تفلت مني أيها الكلب أدورنو وسوف أطاردك ولو إلى الجحيم.

واستقل لامبا وعصابته زورق صيد، وأراد بروسبيرو أن يواجههم ولكن فيروشيو أبى إلا السير قدمًا إلى عرض البحر فقال له بروسبيرو:

– انتظر.. إن معنا هاهنا سيدة يجب إنزالها إلى البر.

فقال فيروشيو: يجب أولًا أن نفر من مطاردة هؤلاء الكلاب، وبعدئذ ترسو عند «سان بيردارين»، أو عند «بورتوفينو» أو حيث تشاء».

وساعدت الريح الشراع حتى ابتعد عن زورق الصيد بمراحل وصار من المحال على هذا أن يدركه. وكانت جيانا قد احتمت من المطر بالديوان الصغير في الزورق، فقال لها بروسبيرو:

– إني لا أبالي أن يفخر أي مجرم بأني هربت.. والفضل في ذلك عائد إلى فيروشيو وإليك... ولكني سأنزلك إلى البر عند «سان بيردارينا». وهناك أجد وسيلة لإرجاعك إلى قصر فاسولا

وما أتم عبارته هذه حتى هبت عاصفة هوجاء مزقت الشراع وكادت تقلب الزورق بهم لولا يقظة فيروشيو وبراعته. وكان الزورق نفسه متين الصنع فصمد للعاصفة، ومضى في سبيله قدر ما يستطيع.

خطة الانقاذ

كان ياقوت قد استقر بأسطوله في «مهدية» حيث حصنها وضمها إلى أملاكه الخاصة؛ ولما بلغه نبأ الحملة البحرية الكبيرة التي أقلعت من برشلونة للقضاء عليه وعلى أسطوله، ضحك ملء شدقيه وقال: «ما دام الأميرال الشهير قد جاء بقوة أكبر من المرة السالفة فستكون هزيمته التالية أشد بعون الله..».

وكان ياقوت لا يزال يحس في ظهره أثر السوط حين كان أسيرًا على إحدى سفن دوريا، ولذلك اعتزم أن يثار منه لنفسه. ولما كان الأميرال فيما بين الستين والسبعين من عمره فأرغامه على التجديف هو بمثابة قتل له.

وكان السلطان سليمان قد أعجب ببسالة القرصان الشيخ خير الدين بربروسا بقدر ما ساء ظنه بمقدرة القواد البحريين الأتراك، فولاه القيادة العليا للأسطول الضخم الذي أعده لدعم سيادة تركية في البحار، وأمره بأن يأتي بأسطوله إلى القرن الذهبي. ولم يستطع بربروسا أن يمد ياقوت بشيء من سفنه، فتركه يدبر أموره بما يراه، مطمئنًا إلى حكمته، وإلى أنه لابد منتصر على الأميرال أندريا دوريا برغم ضخامة أسطوله.

وبقي ياقوت في الجزائر بعد أن رأى أسطول خير الدين يبحر قاصدًا إلى الأستانة، ثم بلغه وهو هناك أن دوريا وصل بأسطوله إلى «مهدية» وأحرقها وأعمل السيف في أهلها، فأهمه ذلك النبأ، لأنه كان يطمح إلى اتخاذ «مهدية» هذه قاعدة الملك الذي اعتزم أن يؤسسه لنفسه في تلك المنطقة. وفي ثورة غضبه لم يطق التريث، فأقلع بأسطوله الصغير لمواجهة أسطول دوريا الضخم لينتقم لما أصاب «مهدية» من حرق ونهب وتخريب.

وبينما كان دوريا يمسح بأسطوله البحر عند شاطئ إفريقية الشمالي باحثًا عن ياقوت، كان هذا يغير بسفنه على الشاطئ الجنوبي الغربي من جزيرة صقلية، ولم يمض أسبوع حتى كان عائدًا بالغنائم من ست مدن هاجمها، ومعه ثلاثة آلاف أسير من الرجال

والنساء، وقد وضعهم على ظهر سفينة من سفنه وبعثهم مع «يارين صباح» إلى الجزائر لكي يباعوا هناك في سوق الرقيق، ثم يصنع بأثمانهم سفنًا جديدة، على أن تلحق به هذه السفن في «جربة» حيث ينتظرها. وقد عزم على اتخاذ جانب الحيطة حتى يعزز أسطوله بهذه الطريقة.

وعلم ياقوت بعد ذلك من سفينة يونانية صادفها في البحر، أن دوريا يبحث عنه عند شواطئ صقلية.. وعلى هذا سارع إلى الابتعاد بسفنه نحو الشمال الغربي قاصدًا مضيق بونيفاس على أن يسير جنوبًا بعد ذلك. ولكن عاصفة هوجاء هبت بعد قليل فحطمت صارى سفينة له تحت قيادة سنان أغا أبرع ضباطه، وما لبثت هذه السفينة قليلًا حتى انفصلت عن بقية السفن وضلت الطريق فأخذت الأمواج تلعب بها صعودًا وهبوطًا، وقائدها يبذل جهده لكي يسير بها وسط الرياح المائية. وفيما هو كذلك لاحت له على مقربة منه سفينة شراعية صغيرة هي الزورق الذي استقله بروسبيرو مع جيانا وفروشيو، فأشار إليها لتقترب، ولم يسع من فيها إلا أن امتثلوا، فلما حازى زورقهم سفينة سنان، قفز إليه أحد رجاله مع اثنين من النوتية، وما رأى الرجل وجه جيانا حتى راعه جمالها، وسأل بروسبيرو الواقف بجانبها: «من أنتم، وأين تقصدون؟».

فأخبره بروسبيرو باسمه وبأنهم أبحروا من جنوا، وقد ضلوا طريقهم في العاصفة. فقال له الرجل:

– إذن اصعد إلى سفينتنا لنصل بك إلى حيث تريد.

فقال له بروسبيرو: «شكرًا لك.. يمكننا أن نواصل رحلتنا في زورقنا بعد أن هدأت العاصفة..».

وأدرك بروسبيرو أن وراء هذه الدعوة ما وراءها من الوقوع في أسر القرصان، ولم يكن هو نفسه يخشى الأسر فقد جربه من قبل، ولكنه خشي على جيانا أن تؤخذ سبية، وشعر في هذه اللحظة بأشد الندم على أتباعه نصيحة فيروشيو، وود لو بقي في جنوا وواجه أي خطر على حياته فيها. وفيما هو يهم بأن يجرد سيفه استعدادًا للدفاع، إذ سبقه الجندي

تابع سنان فنفخ في صفارة معه، وسرعان ما أنقض على الزورق جماعة آخرون ممن في سفينة سنان حتى لم يبق فيه مكان لقدم أخرى. ثم حملوا بروسبيرو ومن معه حملًا إلى السفينة الحربية... وقد عاملوا جيانا بمزيد من الرفق، ثم أدخلوها على سنان حيث كان جالسًا القرفصاء على أريكة في قمرته الخاصة بالسفينة، وكان من البدانة بحيث بدا كأنه كرة ضخمة ملفوفة في قفطان أحمر موشي بالذهب. وعلى رأسه عمامة بيضاء. فما وقعت عيناه عليها حتى بهره جمالها الفتان. ثم حاد ببصره عنها إلى صندوق جيء به من السفينة الصغيرة، ومد يده إلى داخله ثم أخرجها مملوءة بنقود ذهبية لامعة. وفي الوقت نفسه كان كبير أتباعه، واسمه حصار يجرد جيانا من عقد اللؤلؤ الثمين الذي حول جيدها وهي مستسلمة ساكتة. غير أنها لما بدا سنان يتحسس تلك اللآلئ كادت تقع مغشيًا عليها، إذ تذكرت في هذه اللحظة أنها كانت تلبس هذا العقد في الليلة التي بدأ فيها الحب بينها وبين بروسبيرو في حديقة قصر كاريتو، ومنذ ذلك الحين وهي تحرص على أن تلبسه حين تلقاه.

وأدرك سنان أن السيدة التي تحمل مثل هذه اللآلئ لابد أن تكون أميرة، فسألها بالإيطالية: «من تكونين؟».

فأجابت قائلة: «إنني ابنة أخي الأميرال أندريا دوريا. ويحسين بك أن تذكر ذلك حين تعاملنا.

فابتسم ابتسامة خبيثة حتى كادت عيناه تختفيان في وجهه المكتظ باللحم ثم قال: «حقًا أن القدر يأتي بالعجائب..». ثم تحدث مع حصار باللغة العربية، وبعدئذ انحنى هذا لجيانا وقادها إلى غرفة بالطابق الأدنى من السفينة، فسارت رابطة الجأش ولبثت حتى خرج حصار وأغلقت الكرة عليها وعندئذ أطلقت لدمعها العنان.

وفي خلال ذلك كان بروسبيرو ممددًا حيث وضعوه وسط السفينة عند جذع الصارى المحطم، بعد أن قيدت يداه وراء ظهره، وكان في حالة تشبه الذهول من سوء المعاملة التي لقيها وخوفه على مصير حبيبته. وعلى مقربة منه فيروشيو والبحارة الذين كانوا معه في في

زورقه وكلهم مقيدون مثله. وكان فيروشيو يتأوه متألمًا من جرح في رأسه، أصيب به حين حاول مقاومة آسريه.

بعد قليل توجه سنان الي حيث وضع بروسبيرو، وحياة في سخرية قائلًا له: «الحمد لله على السلامة.... إننا لم نكن نتوقع عودتك إلينا بهذه السرعة.. ولا ريب أن الريس ياقوت سيفرح بك. فهو في حاجة إلى أن يعرف مصير يعقوب بن آزار، ومآل الفدية التي طلبها عنك.. أما أنا فإني محتاج إلى أن أعرف نبأ أندريا دوريا.. فهيا أذكر لي كل ما تعرف عن أسطوله وحملته».

فقال له بروسبيرو: «ليس لدي ما أقوله».

فضحك سنان ساخرًا وقال له: «بل أنت كاذب.. والدليل على ذلك أنك تصحب ابنة أخته».

فقال له بروسبيرو في هدوء: «نعم هي قريبته، كما أني أعرف جميع أفراد أسرته. ولكنك تسألني عن حركاته وأنا لا أعلم عنها أكثر مما تعلمه أنت».

فابتسم سنان مرة أخرى ساخرًا ثم قال له مهددًا: «لعلك نسيتها.. ولهذا يحسن أن تعاونك على التذكر بأن نشعل عود ثقاب بين أصابعك مثلًا».

فنظر إليه بروسبيرو بازدراء واستهانة ورد عليه قائلًا:

– في هذه الحالة تضيع وقتك سدى.. ولكني أنصح لك بألا تستهدف غضب دوريا حين تأسرك قريبًا له. وثق بأني لا أحاول بهذا أن أخدعك، فإن أسطول دوريا لا يلبث قليلًا حتى تنتشر سفنه القوية الكثيرة هنا، ومن صالحك أن تحافظ على ابنة أخيه، لأن مصيرك سيتوقف على طريقة معاملتك لها، فإذا كنت بها رفيقًا فلا شك في أنه سيكون سمحًا معك. أما إذا أصابها أي أذى ففي هذه الحالة لابد أن يقتص منك بلا رحمة.

فقال له سنان بازدراء: «أتظن أني أخشى دوريا؟ إن عليه أولًا أن يأسرني. وهذا ما لم يقدر عليه طول السنين الماضيات..». ولما يئس من حملة على الإدلاء بمعلوماته عن

أسطول دوريا، أكتفي بأن ركله بقدمه، ثم تركه عائدًا من حيث أتى.

وحظ بروسبيرو أن السفينة غيرت اتجاهها، فأخذت تسير نحو الجنوب بعد أن كانت ماضية إلى مضيق بونيفاس. ثم مضى الليل كله وهو ورفاقه في أماكنهم بلا طعام ولا شراب، والأغلال تمنعهم من التحرك.

وفي صباح اليوم التالي عاد إليهم سنان ومعه ثلاثة من رجاله وزنجي من سوس يحمل دلو ماء وصحفة عليها خبز وبلح، وقال سنان لبروسبيرو: «لقد رأيت أن أفك أغلالكم وسأترك لكم حرية الحركة في النصف الأمامي من السفينة على أن أنذركم جميعًا بأن أي حركة من أحدكم تشتم منها إساءة استعمال هذه الحرية، سيكون فيها القضاء على حياته بقذفه في البحر فورًا؟».

وبعد ظهر اليوم التالي وصلت السفينة إلى بقعة جنوب صقلية، ولاحت على مسافة قريبة منها سفن ياقوت وفي مقدمتها سفينة القيادة التي تحمل علمه الأحمر الأبيض الذي يتوسطه هلال أزرق. وفي الوقت نفسه كان ياقوت قد رأى سفينة سنان فأدرك أنها إحدى سفنه التائهة، إذ كان قد فقد سفينتين أخريين وسط العاصفة.

ونظر بروسبيرو من مكانه فعرف سفينة ياقوت، وأمل خيرًا من لقائه برغم التهاون في رد رسوله وفي إرسال مبلغ الفدية.. وبعد قليل كانت السفن كلها قد رست في مرفأ طبيعي على الجانب الجنوبي من «بانتلاريا» وسرعان ما انتقل ياقوت من سفينة القيادة إلى سفينة سنان، فوقف هذا يستقبله مرتديًا قفطانًا من الحرير الأخضر ومزينًا بحلي ذهبية كثيرة وبقدميه حذاء أحمر من جلد قرطبة الفاخر وبه «شرابتان» من الذهب، وبعمامته البيضاء جوهرتان من الياقوت الثمين.

وأخذ ياقوت في تأنيب سنان لانفصاله بسفينته عن الأسطول، ولكن غضبه سرعان ما زايله حين أخبره سنان بأنه أسر سفينة صغيرة، ثم أبرز له الصندوق المملوء بالذهب وعقد اللآلئ، وقال له: «لك الذهب والعقد. أما أنا فأقنع بتلك الحسناء».

فضحك ياقوت وقال له: «أهي من الفتنة بحيث تجعل منك رجلًا».

فكظم سنان غيظه، إذ لم يكن يرتاح إلى النكات التي من هذا القبيل، ثم أجاب في رزانة: «إنها من الجمال بحيث تصلح درة في حريم السلطان سليمان. وسأقدمها هدية له».

فقال له ياقوت: «إنك عميق في مكرك يا سنان..». فابتسم سنان مغتبطًا وقال: «الواقع أنه لم يكن يليق بي أن أذهب إلى الباب العالي خالي اليدين.. وقد كان من حسن طالعي أن وجدت هذه الهدية الثمينة. فخذ الرجال والذهب واللآلئ ولكن أترك لي هذه الحسناء.

فقال له ياقوت: «كلا.. إذا كانت تلك المرأة مفتاحًا للحظوة لدى السلطان، فلماذا تستأثر بها دوني؟».

فرد سنان بخبث: «هل هذه الهدية تقبل منك؟».

فأدرك ياقوت ما يقصده وقال ضاحكًا: «صدقت.. ربما لا تقبل مني.. ولكن دعني أولًا أنظر إلى تلك الجوهرة التي تليق بالسلطان».

ولما رآها ياقوت وعرف أنها ابنة أخي الأميرال دوريا عجب من سنان كيف أخفى ذلك وقال له: «لا شك أنها ستزيد بذلك قيمة في عيني السلطان».

ثم راح ياقوت يستعرض الأسرى الذين وقعوا في يد سنان. ولما رأى بروسبيرو تولته الدهشة وقال له: «حمدًا لله الذي أوقعك في يدي مرة أخرى يا سيد بروسبيرو.. لقد كانت بيننا مسألة خاصة بفدية ترسلها إلي، وبرسول تعيده من جنوا».

فرد بروسبيرو قائلًا: «لست أنا الذي أحنث بعهدي ولكن الظروف تآمرت علي. على أنك يا سيد ياقوت تستطيع أن تأخذ الذهب الذي في صندوقي عند سنان.

فضحك ياقوت وقال له: «حفظ الله لك عقلك يا سيد بروسبيرو.. أتدفع فدية من غنيمة حرب؟ لا شك أنك ستطلب مني رد الباقي إليك».

فقال له: ما كنت لأطلب ذلك وإنما أسألك أن تعيد إلي سفينتي وبحارتها.. ويمكنك أن تحتفظ بصندوق الذهب».

فقال له ياقوت: «هناك أيضًا امرأة.. وأني لأعجب كيف لم تطلب إعادتها إليك كذلك».

فقال بروسبيرو: «هذا أمر مفهوم بالبداهة».

– مفهوم.. إذن أفهم هذا.. إن سنان حسن الطالع، وهو أسعد حظًا من خير الدين حين أراد أن يأخذ السيدة جوليا إلى حريم السلطان ففشل. ولكن هذه أجمل منها وسيفرح بها السلطان كثيرًا.. ففزع بروسبيرو إذ سمع ذلك وقال: «لكنها زوجتي..».

فقال ياقوت: «هل الأمر كذلك ؟.. هذا أمر يؤسف له، لأن السلطان كان يفضل فتاة عذراء، ولكنها على أي حال بارعة الحسن».

فترك بروسبيرو كبرياءه وجعل يتوسل إلى ياقوت قائلًا له: «حين كنت أسيري لقيت مني أحسن معاملة».

فقال له ياقوت: «ما كنت لأنكر ذلك، وقد عاملتك بالمثل حين كنت أسيري، وبذلك أكون قد دفعت الدين الذي كان لك في عنقي».

فقال له بروسبيرو: «لقد كنا رفيقين في الأسر، نكدح معًا على مجذاف واحد. أليس الألم الذي قاسيناه معًا قد عقد بيننا رابطة لا تنفصم؟».

فأجابه قائلًا: «لقد فصمتها أنت حين حنثت بعهدك لي».

فقال بروسبيرو: «إني لم أحنث بعهدي مطلقًا.. وثق بأني كنت سأرسل إليك الفدية. والآن أذكر الفدية التي تريدها ومهما بلغت فستنالها».

فضحك ياقوت ساخرًا، وقال له: «أتظن أني أثق بك مرة أخرى؟».

فقال بروسبيرو: «إني لا أطلب منك أن تثق بي، ولكنا سنبقى أسرى لديك حتى تصل إليك الفدية من جنوا، وسأجد وسيلة لذلك.. إن هؤلاء البحارة الذين معي يمكنهم أن يحملوا مني خطابًا إلى بنك سان جورج».

– أتظن أني أرضى مائة ألف دوكات فدية لابنة أخي دوريا.. وهل نسيت ما لقيته

من ذلك الوغد ؟.. إنه سوف يذكر سوء معاملته أياى حين يعلم أن ابنة أخيه ضمن حريم السلطان، وعندئذ يندم على أنه ربطني إلى مجذاف وسلط علي سوط الحارس.

– وهل لا قيمة لي لديك ؟ لقد قلت لك أن ابنة أخي دوريا هي زوجتي.

فهز ياقوت كتفيه وقال له: «إني الآن لست مدينًا لك بأي فضل، وحتى إذا كنت مدينًا لك فإن إرادة الله تقتضي أحيانًا أن يشترك البريء مع المذنب في العقاب.. إني أشفق عليك يا سيد بروسبيرو. ولكن لا تبلغ بي الشفقة عليك أن أحرم نفسي لذة الانتقام من دوريا بعد أن واتتني الفرصة».

وعندئذ لم يستطع بروسبيرو أن يتمالك نفسه فوجه إلى ياقوت أشنع السباب، ولم يرد عليه ياقوت حتى إذا هدأت ثائرته قال له: «أهكذا ؟.. إن الكلام لا يسفك دمًا.. والآن وقد لفظت ما لديك من شتائم، عسى بالك أن يهدأ.... وثق بأني كنت أحكم على غيرك بالكدح على مجذاف لأقل من ذلك. وقد أحكم عليك هذا الحكم إذا عدت ثانية إلى السباب.

وسكت لحظة ثم استطرد قائلًا: «أنت ورجالك ستنتقلون إلى سفينتي، ولن يصيبكم أذى ما دمتم حسن السلوك».

وبقيت بارقة أمل في نفس بروسبيرو خلال ظلمة البأس، فإنه ما دامت جيانا يراد أهداؤها إلى السلطان، فإنها ستلقى طول مدة الأسر معاملة حسنة ولن يمسها أحد بسوء.

***

قدر ياقوت قوة الأسطول الذي يطارده فرأى أن ينضم بسفنه إلى أسطول خير الدين في إستانبول. ولكنه كان ينتظر مددًا من الجزائر قبل أن يقدم على هذه الرحلة. واختبأت سفنه بخليج صغير بالقرب من ذلك الثغر.

وبعد قليل جاءه نبأ بأن أسطول دوريا يقترب من الشاطئ، وما لبث هذا الأسطول حتى وصل وألقى مراسيه خارج ذلك الخليج فأصبح ياقوت وسفنه في شبه مصيدة لا

يستطيع الخروج منها، وقد ملأه ذلك غضبًا وأصبح كالنمر الهائج الذي حبس في قفص.. وفرح لهذا النبأ ألفًا أسير مسيحي في قبضته، ولكن بروسبيرو كان أشدهم فرحًا، فقد قوي أمله في خلاص جيانا من الأسر ومما يتنظرها في حريم السلطان.

وسارع ياقوت إلى تحصين موقعه، فجلب المدافع الثقيلة من البلاد المجاورة، واستخدم أسراه وكثيرًا من الأهالي في إقامة الحصون والاستحكامات على البر.

وفيما هو منهمك في ذلك، توجه إليه بروسبيرو وقال له: «إنك بهذه التحصينات إنما تزيد باب سجنك متانة».

فالتفت إليه غاضبًا وقال له: «هذا ما تمني به نفسك الشريرة؟ امض عني قاتلك الله قبل أن أقذف بك إلى جهنم».

فقال له بروسبيرو في هدوء: «أما أنا فأسأل الله أن يهديك إلى الصواب.. وما جئت الآن إلا كي أحاول أن أنقذك من المأزق الذي أنت فيه».

– أي مازق؟ فليحاول الأميرال الأخرق الرأي أن يدخل في الخليج ليرى مصير أسطوله كله.

– أنه لن يحاول ذلك، وأغلب الظن أنه سيمكث خارج الخليج ما طاب له المكث وكأنه حارس على سجين.. ومن يدري لعله بعد حين ينزل قوة في شرقي جربة لتستولي على حصنك.

فضحك ياقوت وقال: «عسى الله أن يلهمه ذلك ليكون سببًا في هلاكه».

ثم قال له عابسًا: «كيف جئت إلى البر ؟.. إني إذا رأيتك مرة أخرى على البر من غير إذن مني فسأمر بوضع الأغلال في قدميك».

ومضت أيام بلغ فيها الضجر من ياقوت مبلغه، فقد مل الانتظار في ذلك الخليج من غير عمل؛ ولم يجرؤ على الخروج بأسطوله. ثم خطر بباله أن يدعو إليه بروسبيرو ليسأله عما كان معتزمًا أن يشير به عليه، فلما جيء به إليه وعرف بروسبيرو القصد من دعوته،

قال له:

– من حسن طالعك أن هذا المأزق الحرج الذي لم تقع في مثله، يمكن أن تخرج منه بثمن زهيد».

فسأله ياقوت: «ما هو هذا الثمن؟». فقال بروسبيرو بلهجة الحزم: «إن تعتق جيانا من الأسر».

– إنكم معشر الغربيين تقدرون نساءكم تقديرًا عاليًا.. ولكن كيف تكون امرأة واحدة فدية لأسطول بأجمعه؟

فقال بروسبيرو: «إني لا أطلب منك أن تصدق ذلك، ولكن يمكنك أن تختبره.

ولم يسع ياقوت إلا العمل بهذه النصيحة، فبعث في طلب جيانا من سفينة سنان، ثم أملي عليها خطابًا إلى الأميرال دوريا أنبأته فيه بأنها أسيرة في يد ياقوت، وبأن هذا لا يمانع في إرسالها إليه إذا أعطى كلمة الشرف بترك أسطول الأتراك يخرج من الخليج من غير أن يهاجمه.. ثم أرسل الخطاب إلى الأميرال دوريا مع رسول خاص، وجاء الرد بعد قليل فإذا هو يتضمن عبارات مهينة جعلت ياقوت يندم على عمله بنصيحة بروسبيرو.

وفي اليوم التالي استأذن بروسبيرو ياقوت في النزول إلى البر مرة أخرى لغرض في صالحه، وأقسم له على ذلك. فأذن له على أن يصحبه أحد رجاله، وأمر لهما بجوادين كما طلب.

وراح بروسبيرو في اليومين التاليين يستكشف المكان على ظهر جواده ومعه مراقب عربي.

ثم جاء إلى ياقوت وقال له: «لقد وجدت طريقًا لخروج سفنك من الخليج من غير أن تمس بسوء.

فقال له ياقوت: «لعلك لا تريد سخرية ولا خداعًا؟».

– ما عليك إلا أن تطلع على خطته وعندئذ تحكم لها أو عليها.. ولكني لن أبينها

لك إلا إذا وافقت على شروطي.

– شروط ؟.. أتساومني؟

– ألا تساوم على مثل هذه الخدمة الجليلة؟ إن أي ثمن قليل مقابل خروجك بسفنك سالمة من هذه المصيدة، بدل أن تؤسر السفن وتفر أنت إلى الجزائر طريدًا شريدًا.

ففكر ياقوت هنيهة ثم قال له: «إذن.. اشرح لي خطتك!».

– لقد نسيت ما قلته لك من أني لن أذكرها لك حتى توافق على شروطي.. إنك في هذه الصفقة التي نعقدها معًا لا تدفع الثمن إلا إذا أصبحت سفنك في عرض البحر.

– وما أدراني أنك لا تخدعني؟

– إنني في قبضتك، ويمكنك عندئذ أن تفعل بي ما تريد.

وأخيرًا طلب منه ياقوت أن يذكر شروطه. فقال له بروسبيرو: «كان في استطاعتي أن أطلب نصف أملاكك في مقابل إنقاذ أسطولك. وما كنت ترفض هذا الثمن.. ولكني متواضع في مطالبي: وأول شرط لي هو أن تحلني من دفع الفدية التي أنا مدين لك بها منذ أطلقت سراحي في شرشل.

– حسنًا... وماذا بعد ذلك؟

– وأن تعفيني كذلك من الفدية التي تستحقها الآن عني وعن زوجتي.

فقال ياقوت بشدة: «إن هذه المرأة ليست للافتداء.. فرد بروسبيرو قائلًا: «في هذه الحالة ليس لدي ما أقوله».

فأمسكه ياقوت من كتفه وقال له: «لدي وسائل تكره الإنسان على الكلام».

– إنها خير الوسائل لجعلي أبكم.

وعندئذ أخذ ياقوت يمشي على ظهر السفينة رواحًا وجيئة ثم قال لبروسبيرو: «وماذا تطلب أيضًا؟».

– أن تطلق سراح البحارة الذين كانوا بسفينتي حين استولى عليها سنان.

– لا يهمني أمرهم وسأحقق لك هذا الطلب. والآن ما هي الخطة؟

– مهلًا.. إن شروطي لم تنته بعد.. يجب أن تعيد إلى صندوق العملة الذهبية، وأنا حتى الآن لم أطلب إلا ما هو حق لي. ولكني أطلب بالإضافة إلى ذلك أن تمدنا بسفينة ذات ستة وعشرين مجذافًا، مجهزة بالسلاح والعبيد، لنواصل بها رحلتنا التي قطعها علينا سنان.

– عسى الله أن يمحوك من الوجود.. وهل انتهت شروطك؟

– ستضع هذه السفينة تحت تصرفي متى وثقت من نجاح خطتي، أعني اليوم.. وسأقيم بها أنا وزوجتي ورجالي ويوضع بها صندوق الذهب كذلك. وإذا كنت غير واثق بي فلتضع بها من الجنود قدر ما تريد حتى لا ترتاب في أني أريد خيانتك.. هذه شروطي كلها يا سيدي، وإنها القليلة حيال أعظم خدمة قدمها أحد إليك منذ جبت خلال البحار..

– حسنًا.. وما هي الخطة؟

فقال بروسبيرو: «إن تشق لنفسك طريقًا تخرج به من هذه المصيدة».

– إنك تكاد تذهب بعقلي.. كيف أشق لنفسي طريقًا؟

– إنك لم تذكر بعد أنك وافقت على شروطي.

– إني موافق عليها.. وأقسم لك بالقرآن المجيد لأحققنها كلها إذا «نجحت خطتك».

فقال بروسبيرو: «هذا يكفي..» وكان يعرف في ياقوت أنه لا يحنث بيمينه أبدًا. ثم استطرد قائلًا له: «الآن اركب معي إلى تلك البقعة من الأرض التي تصل ما بين جربة وسيرتيس».

فقال له ياقوت: «إذا كنت تحسب أن في تلك البقعة منفذًا للأسطول فأنت إنما

تخدع نفسك».

فرد بروسبيرو قائلًا: «كلا.... إني لا أخدع نفسي، فقد عاينت ذلك المكان. والآن تعال معي لأريك أين المنفذ إلى البحر.

وركب الاثنان جوادين وسارا جنبًا إلى جنب ووراءهما ستة فرسان، حتى إذا وصلوا إلى برزخ ضيق قال بروسبيرو: «ها هنا المنقذ».

وأخذ يشرح خطته، وكانت تتلخص في شق قناة عبر هذا البرزخ، لتسير فيها السفن وتخرج إلى البحر دون أن يشعر بها دوريا ورجاله وهم ينتظرون على مسافة بعيدة أمام خليج جربة.

وقد استمع ياقوت إلى بروسبيرو وهو يشرح هذه الخطة، حتى إذا انتهى هز رأسه وقال له: «إنها مجرد حلم لا أكثر يا صاحبي».

فقال له بروسبيرو: «قد تكون حلمًا، ولكن ألم يبدأ كل عمل عظيم وكأنه حلم من الأحلام؟».

– ولكن هذه القناة التي تقترح شقها سيكون طولها فرسخًا تقريبًا؟

– أجل.. ويكفي لإنجاز العمل سبعة آلاف رجل.. ولا حاجة لجعل القناة كثيرة العمق. ويمكننا أن نخفف حمولة السفن إلى أقل حد ممكن حتى تخرج من الطرف الآخر للقناة.

وأخيرًا أقتنع ياقوت بهذه الخطة، وعهد إلى بروسبيرو نفسه في الإشراف على إنقاذها.

وبعد ظهر اليوم نفسه جيء بألفين من أهالي المناطق المجاورة ليعملوا في هذا المشروع الضخم، كما جيء بمثل عددهم من الأسرى الذين بالسفن، وعهد إلى عدد من الحراس بمراقبة هؤلاء وأولئك أثناء العمل وكان على هؤلاء أن يتلقوا الأوامر والتعليمات من بروسبيرو.

ولما بدأ المشروع يؤذن بالنجاح طلب بروسبيرو إلى ياقوت أن يوفي بوعده، فلم يتلكأ

سيف الإسلام في ذلك، وأمر بإعداد السفينة «الأسود» ذات الستة والعشرين مجذافًا لتكون تحت تصرف بروسبيرو وزوجته، مع تجهيزها بالسلاح والأسرى، ووضع عليها – من قبيل الحيطة – ضابطًا تركيًا يدعى يوسف حامد ومعه عدد من الجنود، كما جيء إليها أيضًا بمن كانوا مع بروسبيرو حين أسر. وقد أحتج سنان على تحرير سبيته الحسناء التي كان سيهديها إلى السلطان، ولكن ياقوت أسكته وبين له ما اتفق عليه مع زوجها لكي ينقذ الأسطول.

وذهب بروسبيرو إلى جيانا فزف إليها بشرى تحريرها وجمع شملهما على سفينة واحدة، فلم تسأله كيف حدث ذلك، ثم جاء ياقوت فقادهما إلى سفينتهما الجديدة «الأسود» حتى إذا صارا وحدهما قال لها: «مالي أراك ساكتة؟».

فردت عليه قائلة: «ماذا أقول؟». ثم استطردت بلهجة حزينة: «لست محتاجًا إلى أن أبين لك حقيقة ما فعلته يا بروسبيرو. إنك تقضي على سمعتك إلى الأبد بهذه الخيانة. ولست أجد كلمة أخرى لأعبر بها عمّا فعلت».

فامتعض من هذا القول وهز رأسه إنكارًا وقال لها: «خيانة؟ كلا.. إن الخيانة لا تكون إلا حيث يكون الولاء.. ولست مدينًا بأي ولاء لآل دوريا منذ خذلني الأميرال في شرشل.

فقالت له: «إني لا أفكر في الأميرال ولا في آل دوريا.. ولكني أقصد ولاءك للإمبراطور الذي أنت في خدمته.. لقد خنته بمعاونتك لياقوت على الفرار من هذه المصيدة التي حبس فيها».

فبان عليه الألم ولكنه أخذ يجادلها قائلًا: «إن ياقوت كان يستطيع الفرار من غير أن أعاونه، لقد كان يعتزم أن ينزل مع رجاله عند بوغارة وهناك يغرق سفنه ثم يسير مع جنوده إلى الجزائر برًا. وكل ما فعلته أني بينت له الطريق لإنقاذ سفنه».

فردت عليه قائلة: «إن أسطوله هو المهم.. وهو المقصود بهذه الحملة.. إنك لا تصارحني القول يا بروسبيرو».

– لقد كنا في خطر يا جيانا، وما دفعني إلى ما فعلت إلا اليأس، وأؤكد لك أنني لم أفكر فيما وراءه من معنى أو ما يكون له من عاقبة. ولكن لو فكرت في الأمر من قبل وقدرت كل شيء حق قدره، ما كان لي أن أفعل غير ما فعلت إنقاذًا لحياتنا.

فقالت له في أسف: «إن الحياة لا قيمة لها بغير الشرف يا بروسبيرو».

فرد عليها غاضبًا: «لم تكن الحياة هي كل شيء في هذا الأمر. وهل كانت للحياة قيمة عندي حين جازفت بها في غلطة، وأمالفي، وبروسيدا، وشرشل؟».

فقالت بلهجة أكثر رقة من قبل: «لست أجهل ذلك يا بروسبيرو.. إنك لم ترد إنقاذ حياتك بل أردت إنقاذ حياتي أنا؟».

– لم يكن الأمر متعلقًا بحياتك فقط يا حبيبتى.. إنك لا تعلمين لماذا دفعت هذا الثمن الفادح.

ثم قص عليها كيف قرر سنان إهداءها إلى السلطان سليمان لكي يضمها إلى الجواري في حريمه.. فارتاعت من سماع هذا النبأ، وطأطأت رأسها خجلًا، بينما استطرد بروسبيرو فقال:

– هل كنت أستطيع أن أقف ساكنًا حيال ذلك؟ وهل كان واجب الولاء نحو الإمبراطور يحول دون أي عمل آتيه في سبيل تحريرك وإنقاذك من ذلك المصير الرهيب؟ لقد كاد رأسي ينفجر من التفكير في الثمن الذي أقدمه لياقوت بعد أن رفض كل فدية لك من المال، وبعد أن رفض الأميرال دوريا أن يعمل أي شيء لإنقاذك.

فغطت وجهها بيديها وقالت وهي تبكي: سامحني يا حبيبي.. لقد أسأت بك الظن إذ حسبت أن عداءك لآل دوريا كان له أثر في ذلك ولم أكن أتصور ما قلته لي.. ولكن أخشى يا عزيزي حين يفر ياقوت بأسطوله من هذه المصيدة أن تحاكم على تيسيرك الفرار له».

فقال لها: «لندع ذلك الآن يا حبيبتي.. إن الأمور مرهونة بأوقاتها، وما ينبغي لنا أن

نفكر في صعاب المستقبل وسط الصعاب المحيطة بنا في الوقت الحاضر.. إن واجبي الآن هو العمل على نجاح المشروع الذي تعهدت به ولنحمد الله على أنك إن تذهب إلى إستانبول لتدخلي حريم السلطان... ولابد للمقدر أن يكون كما يقول المسلمون».

ومضى بروسبيرو يدير أعمال الحفر ويشرف على كل كبيرة وصغيرة، وقد اطمأن إليه ياقوت ووثق بصدق نيته. وبينما كانت تلك الأعمال دائرة، أشرف ياقوت من جانبه على تخفيف حمل السفن حتى تستطيع المرور بتلك القناة القليلة العمق وكانت هذه أيضًا مهمة شاقة تطلبت حمل المدافع والأثقال إلى البر والسير بها مسافة على ظهور الإبل وظهور الرجال.. ولما تمت تلك الأعمال جميعها وأصبحت القناة صالحة لمرور السفن، أطلق من الحصن بعض طلقات تغريرًا بأسطول دوريا الواقف بباب الخليج.

وبقي ياقوت يرقب سفنه وهي تجتاز القناة إلى أن أصبحت في عرض البحر بعيدًا من أسطول دوريا، ثم توجه إلى السفينة «الأسود» حيث ودع بروسبيرو، معبرًا له عما يكنه له من محبة وعرفان بجميله، وقال له: «إني أودعك وفي نفسي حسرة، وأسأل الله لك العون والسلامة إذا نمى إلى الأميرال نبأ تلك الصفقة التي عقدناها معًا».

فقال له بروسبيرو وهو يصافحه: «لقد كنت أسيري مرة وكنت أسيرك مرتين. وفي هذا الكفاية. وإني أسأل الله ألا تلتقي مرة أخرى ونحن عدوان».

وسارت السفينة «الأسود» مع بقية سفن ياقوت شرقًا حتى إذا حل منتصف الليل انفصلت عنها وسارت وحدها شمالًا، وكانت تقل عدا بروسبيرو وجيانا اثني عشر ملاحًا منهم فيروشيو والبحارة الذين كانوا معه حين غادر جنوا.

وكان بروسبيرو يعلم أن ياقوت سار بأسطوله إلى إستانبول، ولكنه علم بعد حين أنه غير رأيه فأرسل سفينة واحدة إلى الجزائر لطلب المدد ثم اتجه بأسطوله غربًا حيث أخذ يهاجم الجزر والموانئ التي كانت عزلاء بسبب بقاء الأسطول الإمبراطوري مرابطًا أمام «خليج جربة» دون أن يعلم أن فريسته التي يحسبها في القفص قد أفلتت منه.

وفيما كان بروسبيرو يفكر في ذلك، وقد ندم إذ دل ياقوت على سبيل النجاة،

جاءت إليه جيانا تسأله: «إلى أين نحن ذاهبون الآن؟».

فأجابها: «إلى إسبانيا طبعًا كما كنا عازمين من قبل. إلى برشلونة».

وكان مطمئنًا إلى صداقة دل فاستو له، واثقًا من معاونته إياه لدى الإمبراطور. ولكن جيانا لم يكن لديها مثل ذلك، الاطمئنان وهذه الثقة فقالت له: «وكيف يستقبلونك في إسبانيا إذا علموا ما فعلته؟».

فقال لها: «إنهم ولا شك سيعلمون أيضًا البواعث التي حفزتني إلى ما فعلت».

فقالت له: «إنهم لن يفهموا من هذه البواعث إلا أنك أردت إنقاذ حياتي وحياتك، ولا أكثر من ذلك.. وأحسب أنهم سيقولون: لو أن الأميرال دوريا نجح في مهمته لحرر ألفي أسير، في حين أن نجاة ياقوت بأسطوله أدت إلى أسر مثل هذا العدد من الثغور والجزر التي أغار عليها بعد ذلك.. والواقع أني لا أذم عملك ولا أزكيه الآن، وإنما أردت أن أبين لك كيف ينظر القوم في إسبانيا إلى ما فعلت.. إنك تعرف شدة غضب الإمبراطور كلما نمي إليه نبأ غارات ياقوت، وشدة اشتياقه للقضاء على هذا الرجل. فماذا يكون موقفه منك إذا علم أنك فوت عليه الفرصة لتحقيق غايته؟».

فقال لها: «ربما لا يصل إلى علمه شيء من ذلك».

فسألته: «أتعتزم أن تخفي الأمر عليه أو تنكره؟» فأجاب قائلًا: «ليس مفروضًا على أن أتهم نفسي».

فقالت له: «لكن إخفاء الأمر لا يبقى طويلًا.. وهناك من قد يتهمونك لدى الإمبراطور». فقال لها: «ثقي بأن ياقوت حين يفخر بخداعه لدوريا، لن يقول إن ضابطًا من النصارى أوحى إليه بتلك الخدعة، بل يستأثر بالفخر كله لنفسه».

– ولكن هناك الأسرى الذين حررتهم.. وهناك نحو ألفي أسير إسباني كدحوا في حفر تلك القناة وقد يتاح لبعضهم الفرار والتحدث بما فعلت».

– إنهم مدينون لي بالفضل.. فلو أن أسطول دوريا الضخم هجم على سفن ياقوت

لقضى أولئك الأسرى نحبهم جميعًا في أثناء القتال.

ثم أحاطها بذراعه وقال لها: «لنحمد الله على ما كان حتى الآن، ولنواجه ما يأتي به القدر بالأمل والرجاء».

ومضت بهم السفينة شمالًا، وبعد يومين من إبحارها وصلت إلى مقربة من مالطة، فلم تقف بها خوفًا من فرسان سانت جون. وفي اليوم السادس دخلت مضيق مسينا، وهناك التقت بغتة بأسطول نابولي وفي مقدمته السفينة «بروسبيرا» التي كانت فيما مضى سفينة القيادة الخاصة ببروسبيرو.. وأدرك هذا أن ذلك الأسطول أرسل مددًا لأسطول دوريا لكي يقتحم خليج «جربه» ويهاجم سفن ياقوت التي يحسبها محبوسة في المصيدة.. ولم يدر بروسبيرو أيضحك أم يبكي وإنما قال لجيانا:

– إن مغامرتنا هذه قد قادتنا من حيث لا نشعر إلى أسطول نابولي، وما زلت حتى الآن أعد قائده من الوجهة الرسمية.. ثم إن نصف السفن في هذا الأسطول ملكي الخاص.

ولما اقتربت السفينة «الأسود» من السفينة «بروسبيرا»، رأى بروسبيرو على ظهر هذه شخصًا وجيهًا مرتديًا بذلة صفراء، وعرفه لتوه إذ كان «كارباجال» خلفه في القيادة، وفي الوقت نفسه صاح «كارباجال» بمن في السفينة القادمة قائلًا: «من أنتم؟».

وكان الجواب آخر ما يتوقعه إذ قال بروسبيرو: «باركك الله يا دون ألفارو.... أنا بروسبيرو أدورنو قائد أسطول نابولي».

لامفر من الاستسلام

وما كاد دون الفارو دى كارباجال يتحقق من أن بروسبيرو هو القادم حقًا في تلك السفينة الصغيرة، «الأسود» حتى أخذته الدهشة وكاد لا يصدق عينيه، ثم صاح قائلًا: «لتعاونني العذراء والقديسون جميعًا.. أهذا أنت حقًا يا دون بروسبيرو لحمًا ودمًا؟».

ثم احتضنه بشدة وهو يقول: «إني أضمك إلى قلبي يا صديقي العزيز.. إن بعثك هذا من الموت سيفرح قلوبًا كليمة».

فضحك بروسبيرو فرحًا بهذه الحماسة من صديقه الإسباني وقال له: «لقد بعثت الطمأنينة في نفسي.. فإن العائد من الموت لا يلقى الترحاب في جميع الأحوال».

– ولكنك تلقى كل إكرام بعد أن بعثت من ميتة مجيدة كما قيل لنا.. لقد علمت ذلك من دل فاستو إذ كتب إلي وهو في حزن شديد عليك.

فقال بروسبيرو ساخرًا: «لا شك أن الأميرال سيفرح بعودتي، إذ لابد أنه حزن على كثيرًا».

فرد دون ألفارو غاضبًا: «إن هذا الرجل كان ينبغي له أن يسكب بدل الدمع دمًا لو أنه فقدك. ولعله سيبكي كثيرًا حين تحكي القصة كلها؟».

وعندئذ أخذه بروسبيرو إلى مؤخر السفينة «الأسود». فما كادت عينا دون ألفارو تريان جيانا حتى فغر فاه وتراجع قليلًا، ثم قال له: «إنك تنتقل بي من مفاجأة إلى أخرى..». فدعاه بروسبيرو إلى الجلوس على مقعد بجوار الكرسي الذي كانت تجلس عليه جيانا وقال له:

– لن تدهش إذا سمعت القصة كلها. لقد وقعت في شرشل أسيرًا في يد ياقوت، وكان صديقًا قديمًا إلي إذ كان مرة أسيري فعاملته معاملة حسنة، فوافق على أن أفتدي

نفسي بمبلغ من المال وتركني أعود إلى جنوا لأرسل منها الفدية إليه، ولكني وصلت إليها بعد أن أبحرت الحملة وعادت سفني إلى نابولي، وكانت الحوادث التي يقع بعض الذنب فيها علي، قد زادت عداء قديمًا بيني وبين دوريا. وكذلك لم يكن أهلي راضين عني من جراء خطبتي لمادونا جيوفانا ماريا دوريا. وعلى ذلك اعتزمت أن أرحل إلى إسبانيا، ولبثت في الزورق الذي كان قد حملني إلى جنوا.

ثم قص عليه ما حدث بعد ذلك من لامبا دوريا وعصابته، وإسراع فيروشيو إلى الإبحار بزورقهم وفيه جيانا، ثم هبوب العاصفة ووقوعهم في يد ياقوت إلى أن قال له: «وقد افتديت نفسي ومن معي من ياقوت، وجئت بهذه السفينة التي زودنا بها. هذه خلاصة ما حدث منذ افترقنا».

وكانت جيانا ترقب ملامح دون ألفارو لترى أثر هذه القصة في نفسه، وقد اطمأنت حين سمعته يقول في إخلاص ظاهر: «حقًا.. لقد أراد القدر أن يجمع بينكما رغم كل شيء.. إن الأميرال سيكون أول من يتمنى إتمام زواجكما. فليهنأ أحدكما بالآخر إذن.. أما الريس ياقوت فما أحسبه سيزعجنا بعد الآن».

ولما سأله بروسبيرو عما يعنيه بعبارته الأخيرة عن ياقوت، ذكر له دون ألفارو، ما يعلمه من الأنباء العظيمة التي بدأت تنتشر على طول الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط، مؤكدة حبس ياقوت وسفنه في خليج «جربه» ووقوف دوريا بأسطوله بباب ذلك الخليج منتظرًا إمداده بأسطول نابولي لكي ينقض على الفريسة وهي لا تستطيع الإفلات منه.

وعندئذ قال له بروسبيرو: «إذا كانت هذه مهمتك فيحسن بك أن تعود أدراجك إلى نابولي، فإن أسطول ياقوت ليس الآن في خليج «جربه» إذ غادره منذ أسبوع تقريبًا وهو الآن يسير بمحاذاة شاطىء تونس متجهًا إلى الغرب».

فكاد دون ألفارو يصعق من هذا النبأ وقال له: «لابد أنك مخطئ يا بروسبيرو.. إن ما تقوله مستحيل».

– لقد كنت مع ياقوت في خليج جربه، وقد غادرته معه من طريق في الطرف الجنوبي للخليج.

– ماذا تقول؟ إني أعرف ذلك المكان جيدًا.. وليس هناك منفذ من الخليج إلى البحر سوى الباب الذي يقف به أسطول الأميرال.

فقال له بروسبيرو: «لقد حفرت هناك قناة وصلت الخليج بالبحر من جهة أخرى، وقد شاهدت حفرها بعيني.. وهكذا خدع ياقوت دوريا وتركه قابعًا عند باب مصيدة خالية من الصيد.

وفكر «دون ألفارو» هنيهة ثم قال بلهجة الجد: «إذا كان هذا صحيحًا فإن دوريا لم يخدع فحسب بل قضي على سمعته، ولا شك أنه لم تخطر بباله قط مثل تلك الفكرة التي أفلت بها ياقوت».

فقال له بروسبيرو: «لو إنني كنت في مكانه لخطرت ببالي هذه الفكرة».

فقال دون ألفارو: «ربما.. ولكن ما الذي يجب عمله الآن؟ إن الأوامر التي تلقيتها من نائب الملك تقضي بأن الحق بدوريا أمام خليج «جربه». وهذا قد أصبح الآن عبثًا لا فائدة منه».

فقال له بروسبيرو: «إن الأمر أسوأ من ذلك.. لقد قلت لك أن ياقوت اتجه بسفنه غربًا، ولابد أنه سيتلقى المدد من الجزائر. وهو الآن يجول ويصول في البحر، والشواطئ والجزر بلا دفاع. وعلى هذا ليس لك إلا أن تعود إلى نابولي.

فقال دون ألفارو: «حقا إنه درس قاس لذلك الأميرال المعتد بنفسه.. وليس يجدر بي الآن أن أترك الشاطئ الإيطالي بغير وقاية.

وعلى إثر ذلك، عاد دون ألفارو إلى السفينة «بروسبيرا» لكي يأمر بعودة أسطول نابولي إلى إيطاليا.

وكانت جيانا قد اطمأنت إذ تلقى دون ألفارو قصة بروسبيرو من غير أن يرتاب فيه

أو يتطرق إلى ذهنه الدور الذي قام به في فرار ياقوت بسفنه... أما بروسبيرو فإنه منع المخاوف أن تتطرق إلى نفسه، ثم تفقد سفنه الست حيث قوبل فيها بحماسة شديدة. وعلم من رجالها أنه حدث عقب إعلان موته أن طالب عمه رينالدو بملكية هذه السفن بوصفه وارثه، ولكن المحاكم الإسبانية لم تبت بعد في تلك الدعوي. فضحك بروسبيرو إذ تصور خيبة الأمل التي سيصاب بها عمه رينالدو حين يراه ويفاجأ بعودته إلى الحياة.

وبلغ من اطمئنان بروسبيرو خلال العودة إلى نابولي، أنه عاد إلى قرض الشعر، وانتهى من تأليف جزء جديد من الملحمة الشعرية التي كان قد بدأها منذ سنوات واسمها «ليجورياد».

وسألته جيانا يومًا عما يعتزمه فقال لها: «إن ياقوت كان يقول دائمًا أن الله قد كتب لكل شخص نصيبه، وأنا أومن بذلك المبدأ وأعتقد أن القدر رحيم بي ما دام قد جمع شملنا».

وأخيرًا وصل الأسطول إلى خليج نابولي الفسيح الذي يشرف عليه بركان فيزوف، وكان وقتئذ هائجًا يقذف بالحمم من جوفه. ولم يكن البركان وحده في هياج بل كانت المدينة كلها كذلك.. وسرعان ما أطلقت النيران منها على الأسطول. وقد دهش دون ألفارو وبروسبيرو، ثم اتضح لهما أن القوم حسبوا أن أسطول العدو هو القادم إذ لم يتصوروا أنه أسطول نابولي الذي رحل إلى خليج جربه.

وأرسلت السفينة بروسبيرا إشارة تدل بها على شخصيتها، فوصل إليها بعد قليل أمير أورانج نائب الملك حيث حيى دون ألفارو بجفاء ثم قال له: «كيف عدت إلى هنا وقد كان واجبك أن تلحق بالأميرال دوريا عند خليج جربه؟».

فأجابه قائلًا: «لقد علمت يا صاحب السمو أنه لا حاجة إلينا هناك لأن ياقوت فر من ذلك الخليج الذي كان محبوسًا به».

فقال له الأمير وقد خلت لهجته من اللوم والتأنيب: «لقد جئت في أو إنك... فإن ياقوت قد أشعرنا بأنه مطلق السراح في البحر.. فمنذ ثلاثة أيام هاجم جزيرة كورسيكا..

كما أغار على ست مدن فيما بين تارينيانو وسان نيقولا. وبعد أن نهب دورها وفتك بكثير من أهلها عاد بالغنائم والأسلاب ومعها ألف أسير. وقد حدث ذلك في الوقت الذي كنا ننشد فيه أناشيد النصر إذ سمعنا بقرب وقوعه في الأسر وصدقنا دوريا وهو يفاخر في حماقة بأن ياقوت أصبح في قبضة يده. حقًا.. إني لا أرضى لنفسي أن أكون في مكان دوريا حين يعلم الإمبراطور بحقيقة ما حدث».

وسكت لحظة ثم استطرد يقول: «إننا حين رأينا سفنكم عند الغروب حسبناها سفن العدو، ولم نكن نتصور أن القدر قد أعادها إلينا في هذا الظرف الذي نحتاج إليها فيه أشد الاحتياج.. فقد كنت منهمكًا في جمع أكثر ما أستطيع من السفن وإعدادها للدفاع عن الشواطئ، ولكني ما كنت علم الله لأصمد لأسطول ياقوت لو أنه هاجم نابولي».

فقال له دون ألفارو: «أحسب أنه ما كان لتصل به الجرأة إلى هذا الحد».

فقال الأمير: «إنه في جرأته لا يعرف حدا.. والآن أصدر أمرك بدخول الميناء».

ثم استدار نائب الملك ليصعد إلى مؤخر السفينة، وعندئذ رأى بروسبيرو وجيانا واقفين عند الحاجز، وكان ضوء المصباح قد وقع على وجه بروسبيرو، فلما رآه نائب الملك قال لدون ألفارو:

– رباه.. هل تزور السفينة الأشباح يا دون ألفارو؟ فضحك دون ألفارو وقال له: «هذا دون بروسبيرو أدورنو».

ففرح أمير أورانج، ومد إليه كلتا يديه وقال له: «هل أنت حي حقيقة.. يا لها من معجزة».

في صباح اليوم التالي، جلس بروسبيرو مع نائب الملك ودون ألفارو دي كارباجال في قاعة الملائكة ببرج بيفريللو بقلعة نوفو، تلك القاعة التي عقد فيها في السنة الماضية مجلس حربي برياسة مونكادا وفيه تقررت الحملة البحرية المشئومة التي انتهت بمعركة أمالفي.

كان بروسبيرو قد فكر في أمره طول الليلة الماضية، فاستقر رأيه على أن يذكر ما حدث في جربه، وعلى هذا روى لنائب الملك ودون ألفارو كل ما حدث بالتفصيل، ولم يخف عليهما أنه هو الذي أشار على ياقوت بشق تلك القناة التي مكنته من الفرار والإفلات من أسطول الأميرال دوريا.

وكان «كارباجال» يكره دوريا.. فسره أن يخدع على ذلك الوجه.. أما أمير أورانج فقطب جبينه وقال لبروسبيرو: «لو أن أحدًا غيرك ذكر إلي ما ذكرت لما صدقته، فإني لا أتصور أن تمد يد المساعدة إلى العدو كي ينجو بأسطوله بعد أن كاد يقع في أيدينا غنيمة باردة... إن هذه القصة غير جديرة بالتصديق ولو أنك أنت الذي تحكيها».

فقال بروسبيرو: «فكر يا سيدي في الخطر الذي كان محدقًا بنا».

فقال الأمير: «إن هذا الخطر كان يصلح ذريعة لغيرك. أما أنت فلست بالجبان».

فتدخل دون ألفارو في الحديث وقال: «إن كل العالم يعرف شجاعته.. ولو لم يكن له فخر معركة غلطة حيث أنقذ أسطول دوريا، وفخر معركة بروسيدا، لكان له فخر مسلكه في شرشل حين خذله دوريا وذهب بأسطوله تاركًا إياه وحده لينقذ مئات الأسرى».

ثم التفت إلى بروسبيرو وقال له: «لاشك أنك حين أرشدت ياقوت إلى طريق النجاة من «جربة»، كنت تذكر مسلك الأميرال نحوك في شرشل».

وقبل أن يجيب بروسبيرو على ذلك قال الأمير: «آه.. لقد فهمت الآن.. أنه ذلك العداء القديم الذي بين أسرتيكما، لا يزال قابعًا وراء تصرفاتكما، ولم يكن صلحكما المزعوم إلا خديعة متبادلة.. وأنتما إذ تتبعان باعث الضغينة لا تباليان أن تضحيا مصالح وطنكما وواجبكما نحو الإمبراطور.. هذه هي الحقيقة يا بروسبيرو.. أليس كذلك؟».

فهز بروسبيرو رأسه وقال: «لا، يا صاحب السمو... على أني أعترف بأني ما زلت مقيدًا بذلك العداء، ولو أني انتهزت تلك القرصة لأقتص لنفسي من الأميرال لن يلومني أحد.. لقد ذكر دون ألفارو مسلك دوريا نحوي في شرشل، ولكن هذا مثل واحد من

أمثلة كثيرة.. لقد أخفى آل دوريا نبأ عودتي من شرشل كما أخفى الرسول الذي بعثه ياقوت لطلب فدية عني، وذلك لكي أبقى أسيرًا في يد ياقوت حتى آخر حياتي ثم بذلوا محاولات جريئة لاغتيالي. ثم هناك مونا جيانا فقد أسرت معي وكانت سترسل إلى إستانبول لتكون إحدى جواري السلطان، وقد رفض ياقوت كل فدية عنها ولو وهبته كل ما أملك من المال. ولم يسعني إزاء ذلك إلا أن قدمت له الفدية التي يقبلها وهي إرشاده إلى طريق النجاة من دوريا».

ثم قال في سخرية: «لم يكن لي من البطولة ما يجعلني أتركها لذلك المصير. ولو أن أحدًا كان يتوقع مني ذلك، فإنما كان يطلب ما هو فوق طاقة البشر».

فتأثر دون ألفارو من هذا القول وصاح قائلًا: «لقد كان كل ذلك كافيًا لتبرير ما فعلت».

ولكن الأمير بقي صارم الوجه وقال لبروسبيرو: «لقد وصلت بعدائك لدوريا إلى نهايته.. فقد قضيت على سمعة ذلك الرجل، وعرضته للازدراء والسخرية، ولن يقدر أن يرفع رأسه ثانية.. وسيتلقى الإمبراطور مزاعم دوريا عن انتصاره المزعوم على ياقوت وكونه في قبضة يده، مع أنباء غارات ياقوت على الجزر والثغور، وبذلك يظهر الأميرال أمامه بمظهر المدعي المغرور، وهذا كاف لنكبته.. لقد انتصرت على دوريا يا سيد بروسبيرو بعد ذلك الصراع الطويل بينكما.

فقال بروسبيرو: «لكن ذلك إذا حدث يا صاحب السمو فإنما يحدث مصادفة لا عن قصد.. لأني لم يكن في حسباني أن أقضي على مكانة الأميرال».

فقال الأمير: «ولكنك على الأقل لا تدعي الأسف على ذلك.

فهز بروسبيرو كتفيه وقال: «إني لا أدعي أني قديس».

ثم سكت نائب الملك لحظة، وبعدئذ استطرد قائلًا: «ليذهب الشيطان بخلافاتكم وحزازاتكم.. انظر إلى أين وصلت بنا.. مئات من الدور في كورسيكا قد نهبت، ومئات

من أهلها وقعوا في الأسر.. وحبطت آمال الإمبراطور في القضاء على أسطول العدو».

وكان واضحًا أن أمير أورانج لم يقتنع بكل ما قاله بروسبيرو، ولا بدفاع دون ألفارو عنه. وهكذا خرج بروسبيرو من عنده وهو يشعر بذلك.

ولم تمض على ذلك إلا ساعة واحدة، ثم دعي بروسبيرو إلى لقاء الأمير في القاعة نفسها، فلما دخل عليه هناك وجد معه دون ألفارو وشخصًا أجنبيًا عرف فيما بعد أنه قبطان سفينة فرنسية رست أخيرًا في نابولي، يقول إنه رأى على بعد مائة ميل من شاطئ سردينيا الغربي أسطولًا قويًا يبدو أنه للقرصان، وكان متجهًا نحو الغرب.

وكان نائب الملك قد أفزعه هذا النبأ، فقد أدرك أنه أسطول ياقوت وأنه لا شك متجه نحو شاطئ إسبانيا، وتصور شعور الإمبراطور إذا أغار أسطول ياقوت على الثغور الإسبانية في الوقت الذي يعتقد فيه أن هذا الأسطول قد قضي عليه بيد دوريا.

وقال بروسبيرو في هدوء: «مهما يكن غرض ياقوت من سيره في ذلك الاتجاه، يجب الاشتباك معه في قتال قبل أن يعود إلى شاطئ أفريقية».

وكان الأمير يذرع القاعة رواحا وجيئة، فوقف وقال له: «أحسب أن لا قدرة لنا على ذلك، إن دوريا واقف بأسطوله عند «جربة» أو على مقربة منها. ولن يستطاع الانتفاع بأسطوله هنا إلا بعد أسبوعين على أقل تقدير ولا شك أن ياقوت قد حسب حساب ذلك».

ثم نظر إلى بروسبيرو بعينين تكادان تبعثان بالشرر وقال: «هذه عاقبة فعلتك».

فرد بروسبيرو في هدوء: «إني الآن لا أفكر فيما فعلت، ولكن فيما يمكنني أن أفعله».

فسأله الأمير: «وماذا يمكنك أن تفعله في هذه الحالة؟

ثم التفت إلى القبطان الفرنسي وسأله: «ما هي قوة الأسطول الذي شاهدته على مسافة من سردينيا؟».

فأجاب هذا قائلًا: «إنه مؤلف من سبع وعشرين سفينة مختلفة الأشكال والأحجام».

ثم قال الأمير لبروسبيرو: «هل سمعت؟ سبع وعشرون سفينة، وليس لدينا سوى ثلاث عشرة من بينها السفن الثلاثة التي أمدنا بها قداسة البابا».

فقال بروسبيرو: «مع هذا يمكننا مناوشة ياقوت وإنزال الضرر بسفنه بحيث لا يستطيع مواصلة غاراته. ألا يكون هذا شيئًا مفيدًا».

وعندئذ نظر الأمير إلى دون ألفارو وقال له: «أترضى أن تضحي بأسطول نابولي؟».

– ولم لا إذا اقتضت الضرورة ذلك؟ إننا إنما نضحي الجزء إبقاء على الكل، وفي حالة اليأس يكون ذلك خطة استراتيجية مقبولة.

فقال الأمير: «صدقت. ولكن إذا وافقت على هذه الخطة فمن الذي يقود هذا الأسطول في هذه المغامرة الخطرة؟».

وعندئذ وقف بروسبيرو وقال للأمير: «إني أرجو أن تعهد إلي في هذه القيادة فعسى هذا أن يزيل ارتيابك في شخصي».

– إنك شديد الثقة بنفسك يا سيد بروسبيرو.

– بل إني شديد الاحساس بما يجب علي يا صاحب السمو.. لقد قلت منذ لحظة إن هذا الموقف إنما نشأ من تصرفي في «جربة» والنتيجة المنطقية هي أن أكفر عن ذنبي بقدر ما أستطيع.

فالتفت الأمير إلى دون ألفارو، وقال له: «ما رأيك في هذا؟ إنك أنت الآن صاحب القيادة الفعلية على أسطول نابولي».

ولكن دون ألفارو كان نبيل النفس فقال: «لست كذلك ما دام بروسبيرو قد عاد. إن نصف سفن الأسطول ملكه الخاص.. وهو يجازف بها أيضًا في هذا الأمر.. ولكني يسعدني أن اشترك معه في هذه المحاولة إذا وافقت عليها.. فهناك مجد يكسب إذا نجحت

هذه المحاولة. وإني ليشرفني أن أخدم تحت رياسة بروسبيرو».

فقال له بروسبيرو: «وأنا تشرفني زمالتك ومشورتك».

فردد أمير أورانج بصره بينهما، ثم قال: «هذه شجاعة تحمد لكما. ولكن يجب أن أفكر في الأمر».

فرد دون ألفارو قائلًا: «ليس في الوقت متسع يا صاحب السمو.. بل إن الحالة تتطلب العمل العاجل. إن ياقوت قد يبدأ مهاجمتنا غدًا ولهذا يجب أن تبحر السفن الليلة».

وأيده بروسبيرو في ذلك، ولم يسع الأمير إلا النزول على رأيهما.

وعندئذ انصرفا من عنده ليتخذا الأهبة للرحيل..

وفي خلال ذلك اليوم كانت نابولي تموج بالحركة، حتى إذا حل المساء أبحر الأسطول متجهًا إلى الشمال الغربي قاصدًا مضيق بونيفاس.

وتركت جيانا في عهدة أمير أورانج وأخته الكونتس دي ناساو –شالون، وقد أكرما مثواها أيما إكرام، وأقامت بقلعة النجفين مع الكونتس في الجناح الذي كان في وقت ما مخصصًا للمركيز دل فاستو.

وهناك وافاها بروسبيرو لينبئها بالرحلة الجريئة التي سيقوم بها، وذكر لها ما دار بينه وبين أمير أورانج، وإذا كانت مخاوفها من هذه الناحية قد زالت، فإن تلك الحملة الجريئة التي هو مقبل عليها قد ملأتها رعبًا، فقالت له: «إنك مقدم على أخطار هائلة يا بروسبيرو».

– ليس هذا بالأمر الجديد علي، ولكني أعرف كيف أشق طريقي وسط الخطر..

– كلا لم يكن الخطر فيما مضى مثل ما ستواجهه الآن، فقد علمت أن أسطول ياقوت قوي. ولكن في موقفك هذا لم يكن لك مندوحة عن القبول.

ثم تغلبت عليها عاطفتها فبكت وقالت: «أنظر إلى أين قادتك رغبتك في الأخذ

بالثأر من الأميرال أندريا.. لقد ابتغيت ضياعه، ولكن ذلك عاد عليك بالوبال».

فرد عليها كما رد على أمير أورانج من قبل قائلًا: «إذا كان الأميرال قد ضاع فقد كان ذلك نتيجة لظروف لم يكن لي يد فيها.. وأقسم لك أني لم أقصده بسوء».

– ولكن أيمكنك إصلاح ما فسد يا بروسبيرو من غير أن يكون في ذلك إضرار بنفسك؟

- إني لن أتردد في ذلك إذا استطعت، ولن أحجم عن مصالحته إذا كان فيها ما يسرك.

فقالت بلهجة أسى: «لقد فات الأوان يا عزيزي.. إن كل ما تقدر أن تفعله هو ما أنت مقدم عليه الآن. وإذا قدر لي أن أفقدك فإني لن آسف على هذه الخطوة التي تخطوها، لأنها الفرصة الوحيدة لاسترداد ما فقدت من المكانة».

فابتسم وقال لها: «ليس هذا هو كل ما أقصده.. وإنما أريدك أنت يا جيانا».

– أتظن إني أبالي رأي الناس فيك يا بروسبيرو؟ أنت في عيني دائمًا كما أنت، ولا يرقى إلى شرفك سوء.. ومهما يحدث فسأبقى لك وحدك».

فضمها إلى صدره، بينما الدمع يترقرق في عينيها إذ خشيت أن يكون ذلك آخر لقاء بينها وبينه. ثم قالت له:

– لن أقدر أبدًا أن أفخر بك أكثر من فخري بك الآن.. وسأظل أدعو الله لك آناء الليل وأطراف النهار حتى تعود سالمًا.

فقال لها: «سيكون ذلك أقوى درع لي.. والآن ثقي بالحظ كما أثق أنا بدعائك».

وقبل أن يبحر بروسبيرو بأسطول نابولي ضم إليه السفينة الإسبانية «ايما كولادو» وهي مربعة الشكل، أشبه بقلعة متحركة، وكان دون ألفارو ذا خبرة بقيادة هذا النوع من السفن. كذلك ضمت إلى الأسطول السفينة «الأسو»، التي أهداها ياقوت إلى بروسبيرو ليعود بها ومن معه إلى وطنهم. ثم قسم بروسبيرو الأسرى الذين يجذفون في سفن

الأسطول فجعل الأسرى المسلمين في بعض السفن والمسيحيين في سفن أخرى. وكان بين الأخيرين كثيرون ممن حكمت عليهم محاكم التفتيش الإسبانية بالأسر، ومنهم كذلك إسبانيول وإيطاليون كانوا قد ارتكبوا جرائم فكان الأسر والكدح في السفن جزاءهم.

وعند الظهر وصل الأسطول إلى مضيق بونيفاس، وكان يسير بسرعة تتراوح بين ثلاثة فراسخ وأربعة فراسخ في الساعة. واتفق إن صادفته سفينة فرنسية عند رأس «فيرو» فعلم بروسبيرو من قبطانها أن أسطول القرصان كان على بعد خمسين ميلًا من جزيرة مينوركا منذ يومين. فأدرك بروسبيرو ودون ألفارو – وكانا وقتئذ يتناولان طعام الغداء معًا –أن ياقوت متجه نحو جزائر البليار.

وعندئذ صاح دون ألفارو قائلًا: «سيقوم ياقوت بغارة عند باب إسبانيا. ليكن الله في عون دوق ملفي حين يصل نبأ هذه الغارة إلى الإمبراطور».

ورأي الاثنان أن الوقت قد فات لمنع تلك الغارة، ولكن لا يزال في الوقت متسع للانتقام.. وقبيل الغروب صادف الأسطول زورق صيد به أربعة أشخاص كان قاصدًا من منوركا إلى إسبانيا. فعلم بروسبيرو ممن فيه أن ياقوت قد أغار منذ يومين على «بالمادى مالوركا» وأن رجاله مكثوا فيها ستًا وثلاثين ساعة ينهبون الدور والأسواق، ويحرقون السفن التي بالميناء، ثم رحلوا بسفنهم ومعهم نحو ألف أسير من الشباب ذكورًا وإناثًا، واتجهوا نحو مينوركا، بينما سبقهم إليها بعض أهالي بالما هاربين من وجه أسطول ياقوت.

وعقد بروسبيرو مجلسًا حربيًا حضره دون ألفارو وبعض الضباط، لدراسة تلك المواقع على الخريطة. واقترح أحد الضباط أن يقصدوا إلى شمالي جزيرة مينوركا ويرسو الأسطول في خليج أنفوس دون أن يشعروا ياقوت ورجاله بقدومهم. وبعد ذلك يستكشفون المكان وينتظرون حتى ينزل رجال ياقوت إلى البر ثم يهاجمون سفنه فجأة ويخربونها. وقد أيد دون ألفارو هذه الخطة قائلًا: «إن ياقوت حين يصل إلى مينوركا يكون قد قلت عنده الذخيرة». ولكن بروسبيرو رفض هذه الفكرة إذ خشي أن ينقض ياقوت على بلدة ماهون ويفعل بها ما فعله ببالما، بينما هم في انتظاره بالجزيرة، وقال بروسبيرو:

– إن الواجب يقتضينا أن نحول دون ذلك.. فقال له دون ألفارو: «ولكن هل نستطيع أن نمنعه؟».

– إننا نمتاز بأنه لا يتوقع قدومنا، ثم إن ظلمة الليل سوف تسترنا.

– ولكن لا شك أن ياقوت ستكون له عيون عند مداخل الجزيرة.

– قد لا يروننا إلا بعد أن تدخل الخليج ويكون الوقت قد فات.. وتكون ذخيرته من البارود قد نقصت إلى أقل حد، من جراء الغارات التي قام بها، ولذا يحسن بنا ألا نشتبك معه في قتال عن قرب.

وقال ضابط يدعى ألورى: «في هذه الحالة يكون الاشتباك معه في عرض البحر أصلح لنا».

فرد بروسبيرو قائلًا: «صدقت. ولكنا عندئذ نفقد ميزة المباغتة».

وقد انتهى ذلك المجلس الحربي دون أن يبت برأي في الخطة المثلى، إذ كان كل اقتراح عرض للبحث لا يخلو من مساوىء، فأرجأ بروسبيرو اختيار اللحظة الأخيرة. ثم أخذ طول ليلته يتصور ثغر ماهون ومدخله الضيق بين الصخور العالية ثم اتساعه في الوسط، ثم مهاجمة أسطول ياقوت في مرساه وسط ذلك الميناء وجعل يتخيل في ذهنه الطريقة التي يهاجم بها ذلك الأسطول ويغيرها مرة بعد أخرى، فلا يجد مفرًا من تحطيم أسطوله هو ولكن بعد أن يدع أسطول ياقوت عاجزًا عن العمل. وقد اقتنع أخيرًا بهذه الفكرة ورأي أنه لا مفر من هذه الهزيمة المجيدة وفيها خير تكفير عن فعلته في «جربة».

وفيما هو كذلك إذا به يبصر أمامه شخصًا في ركن من السفينة منكفئًا على دلو وحزمة من الجبال. فصاح به قائلًا: «من أنت؟».

فوقف الرجل مرتاعًا، وكان قصير القامة نحيل الجسم، وأجاب قائلًا: «أنا ديوميدس اليوناني».

وعرف فيه بروسبيرو كبير المدفعيين، وكان بارعًا في صنع السهام الصاروخية

والقذائف. فسأله: «ماذا تفعل هنا؟».

فقال ديوميدس: «إني أصنع عيدان ثقاب يا سيدى».

وأوحت هذه الكلمة إلى بروسبيرو بفكرة جديدة، فذهب بالرجل إلى مؤخر السفينة. وكان دون ألفارو هناك يهم بالعودة إلى سفينته «ايماكولادا». ولكن بروسبيرو أبقاه وقال لديوميدس:

– أيمكنك أن تصنع عيدان ثقاب بطيئة الاشتعال إلى أقصى حد؟ فحك الرجل رأسه وجعل يفكر ويحسب ثم قال: «أستطيع أن أصنع عود ثقاب طوله خمس ياردات ويشتعل بعد دقيقة».

فقال له بروسبيرو: «أو عود ثقاب طوله عشر ياردات يشتعل بعد دقيقتين؟».

– أو أطول من ذلك يا سيدى، بالنسبة نفسها.

– أيمكنني أن أعتمد عليك ؟ لا تنس أن حياتك مرهونة بذلك.. ففكر ديوميدس لحظة ثم قال: «أجل يا سيدي».

فسأله بروسبيرو: «كم من الوقت يستغرقه صنع مائة ياردة من عيدان الثقاب هذه؟».

فأخذ اليوناني يحسب في ذهنه ثم قال: «ثلاث ساعات على أن يساعدني أحد».

فقال له: «خذ من المساعدين من شئت. إننا الآن في منتصف الليل، وبعد خمس ساعات يطلع النهار، ويمكنني أن أترك لك أربع ساعات لإنجاز هذا العمل، ولكن حذار أن تتأخر عن هذا الموعد لحظة واحدة».

ولما ذهب ديوميدس لمباشرة هذه المهمة، سأل دون ألفارو بروسبيرو: ما معنى هذا؟».

فأجاب بروسبيرو قائلًا: «معناه إني سأتولى قيادة سفينة مستديرة لأول مرة.. أجل سأذهب أنا إلى السفينة «ايماكولادا» أما أنت فتعمل على سفينة القيادة «ألورى..».

ولما انبثق الفجر، رأى الديدبان المرابط على رأس مولا الصخري، أسطول نابولي وقد بدا كأنه صف من الأشباح، فسارع الديدبان إلى إعطاء إشارة الخطر بإطلاق بندقيته. وكان ياقوت على بعد ميل ونصف من تلك البقعة، وقد شغلت سفنه بضرب ثغر ماهون، وردت عليها المدافع المنصوبة بذلك الثغر ردًا ضعيفًا غير ذي أثر. ولما سكت قصف المدافع سمع ياقوت إشارة الخطر ورأي بعيني رأسه إحدى السفن الإسبانية من بعيد واقفة وحدها، وسرعان ما نفخ في الأبواق وتقدمت اثنتا عشرة سفينة من سفنه تحت قيادة سنان، بأسرع ما تستطيع، وكان ياقوت قد أمر سنان بسرعة الاستيلاء على تلك السفينة الإسبانية. ثم تبعها ياقوت ببقية سفنه على مهل. ومضت السفينة المرموقة في طريقها ببطء رغم ذلك الخطر المحدق بها، وإنما أدلى غالبية نوتيتها قارب النجاة من الجانب الآخر ونزلوا إليه دون أن يلحظ مطاردوها ذلك.

ولما صارت سفن ياقوت على مقربة من السفينة «ايماكولادا» أمر بروسبيرو اليوناني ديوميدس بإشعال عيدان الثقاب ثم غادروا السفينة واحدًا بعد آخر بزورق النجاة، وكان بها عشرون مدفعًا فأخذت تطلق قذائفها دون أن تحدث كبير أثر، إذ كان المقصود بذلك إيهام ياقوت بأن بها جنودًا، وعندئذ أحاطت بها سفنه. وسرعان ما اشتعل كل البارود الذي بها بفعل عيدان الثقاب الموقوتة فانفجرت السفينة وأصبحت شعلة من نار، فكان زلزالًا حدث في البحر فطغت أمواجه وصارت كالجبال الشاهقة، واحترقت مع «ايماكولادا» سبع سفن من سفن ياقوت كانت تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، في حين اصطدمت سفينتان أخريان في المؤخرة فغرقتا، واشتعلت النيران بسفينة ثالثة وشغلت الرابعة بأعمال الإنقاذ.

وهكذا أصيب ثلث أسطول ياقوت... ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فإن سفينة أخرى من سفنه كانت ماضية على شاطئ لامولاو كأنها تراقب المعركة، وإذا بالأمواج التي هاجت من ذلك الانفجار ترفعها ثم تقذف بها إلى البر حيث تحطمت.

وكان الزورق قد انقلب ببروسبيرو وديوميدس فتشبثا ببعض ألواح الخشب، وما زالا

يغالبان الأمواج حتى وصلا إلى سفينة القيادة وهما في حال من الأعياء فاستقبله دون ألفارو بمزيد من الاغتباط.

أما بقية أسطول ياقوت فقد دخلت الخليج دون أن تدري بالكمين الذي ينتظرها. وما إن عرف الذين في السفينة الأولى بوجود الأسطول في وسط الخليج حتى أرادوا العودة من حيث أتوا. ولكن خمس سفن من أسطول نابولي تحت قيادة «ساردي» سدت عليها طريق الرجعة، في حين أخذ المدفعيون وهم مختبئون بمدافعهم في الصخور يطلقون قذائفها على تلك السفن، فلم تمض دقائق حتى تحطمت ثلاث منها. أما السفينة الرابعة فقد استدارت وهاجمت سفينة ساردي ولكنها لم تكن مستعدة للقتال ولم تطلق مدافعها في اللحظة المناسبة. وعندئذ هجم رجالها على سفينة ساردي وقد شهروا سيوفهم بأيديهم، وحمدت البنادق الذين في الطليعة منهم ثم دار قتال بالسلاح الأبيض حتى غلب المهاجمون على أمرهم.

وفي الوقت نفسه اضطرت السفينتان الأخريان إلى التسليم، وأخذ بعض رجال بروسبيرو يجردون جنودهما من أسلحتهم. وفرح الأسرى الذين فيهما بهذه الفرصة التي واتتهم، فأخذوا يجذفون بكل جهدهم لكي يصلوا بهما إلى الشاطئ.

وفي خلال ذلك كان ياقوت يقود ما بقي من سفنه. وقد شهد الكارثة التي حلت بجزء من قواته البحرية وحسب أن السفن السبع التي رأها تشتبك في القتال هي كل سفن العدو، فعزم أن يقاتلها بكل ما له من عزم وقوة. غير أنه لما خرج من الخليج ورأى أسطول العدو يفوق ما لديه عددًا، وأن سفن العدو أكبر حجمًا من سفنه، أدرك أن القوتين غير متعادلتين. ثم اشتد به الغضب حين رأى السفينة «بروسبيرا» وعليها شكل بجعة ذات رأسين وأدرك من هذه الشارة أن بروسبيرو هو الذي يقود هذه الحملة.. وكان هو واقفًا على ظهر السفينة «الرقيم» واذا بقذيفة وزنها ستة وثلاثون رطلًا تصيبها وتنزل بها أشد الأضرار وتقضي على عدد من رجالها.

وعندئذ استل سيفه وبان على ملامحه العزم وأمر رجاله بأن يهجموا على أقرب

سفينة للعدو. وانقض معهم على السفينة «كابرانيكا».. ولكن كان بها حاجز وقف وراءه صف من الجنود ببنادقهم، وقد أطلقوها على المهاجمين فجندلوا عددا منهم. ولكن ياقوت لم يجزع ولم يرتد وصاح برجاله فاقتحموا ذلك الحاجز ثم دار القتال بالسلاح الأبيض يدا بيد حتى وصل ياقوت ومن معه إلي مؤخر السفينة وقطعوا المدافعين إربًا وصرعوا كابارنيكا نفسه.

وكانت قذائف المدافع تنطلق حوله، والدخان يكاد يعمي الأبصار، ولكن ياقوت كان يجول ويصول على ظهر تلك السفينة التي أصبح سيدها، وأخذ يلوح بسيفه وهو يصيح صيحة النصر.

غير أنه نظر إلى أمام فرأى سفينة من أكبر سفنه تغرق على بعد عشر ياردات منه.. بينما استولى الأعداء على السفينة «الرقيم» التي ترك بها عددًا قليلًا من رجاله. ثم جاء أحد ضباط بروسبيرو ومعه عدد كبير من الجنود ليحرروا السفينة كابرانيكا وأخذوا يطلقون النار على ياقوت وأتباعه وهم محتمون وراء حطام ما تكسر من تلك السفينة.

وكان صوت المدافع من الجانبين يختلط بصليل السيوف وصياح المقاتلين. وقد ترك ياقوت فكرة الاستيلاء على سفن الأعداء بعد أن بان له ما كان يجهله من قوتهم، وصار ورجاله يقاتلون ليخربوا أكثر ما يستطيعون من سفنهم. ولكن أتباعه كان الموت يحصدهم حوله، وكاد يفقد السفينة التي استولى عليها إذ بدأ المهاجمون يتقدمون شبرًا بعد آخر. وأوشك أن يفقد كل أمل فعزم على أن يستشهد في القتال كما ينبغي له. وإذا بالسفينة «جميل» قد جاءت تحمل إليه مددًا من الجنود تحت أمرة سنان، وسمعه ياقوت وهو يصب بهم ولكنهم جاءوا بعد فوات الوقت، فقد صار من المحال انقاذ رجال ياقوت، وحال ارتداد الجماعات التي بقيت منهم دون تقدم ذلك المدد. وقد مد الأسرى المسلمون مجاديفهم ليساعدوا جنود سنان على صعود السفينة، ورأى أحد الضباط الإيطاليين ذلك فأمر جنوده بإطلاق بنادقهم عليهم.

وأخيرًا صاح سنان من سفينته يدعو ياقوت إلى النجاة بنفسه والانتقال توا إلى تلك

السفينة، فلم يجد هذا بدًا من تلبيته لعله يستطيع أن يقود البقية الباقية من قواته. وعلى ذلك قفز إلى سفينة سنان، في حين وقف الصف الأخير من أتباعه يصد الأعداء.

ووقف على ظهر السفينة «جميل» فرأى بقية سفنه وهي تحارب سفن بروسبيرو ولا يفصل بين الطائفتين سوى خمسين ياردة. وكانت أربع من سفنه مشتبكة في المعركة التي بالجانب الغربي مع ثلاث من سفن الأعداء وقد استولت على إحداها. أما المعركة التي بالجانب الشرقي فقد كانت خمس سفن تقاتل ست سفن إمبراطورية دون أن ترجح كفة القتال الصالح أحد الطرفين.

ووقف ياقوت يشهد المعركتين على بعد مائة ياردة تقريبًا، وما لبث حتى رأى ثلاثًا من سفنه تغرق في اليم، بينما فقد الأعداء سفينة واحدة. وكان سطح الماء مغطى تقريبًا بحطام السفن وآثار التحطيم.

وكانت السفينة «بروسبيرا» واقفة على بعد ثمانين ياردة تقريبًا من كلتا البقعتين اللتين تدور فيهما المعركتان، وعلى ظهرها بروسبيرو يراقب القتال ويتأهب لخوض غماره بسفينته عند الحاجة. وما لبثت إحدى سفنه المشتبكة في المعركة التي بالجانب الغربي أن رفعت العلم الأحمر إشارة إلى طلب المعونة. وهمت السفينة بروسبيرا بالذهاب إليها. ولكن «فولبي» كان أسبق إليها بسفينته وسفينة «كابرانيكا»، تاركًا السفينة «الرقيم» التي استولى عليها، في عهدة أسرى من الفرنجة.

وهكذا تغير الوضع فصارت أربع سفن لياقوت تحارب ست سفن لبروسبيرو، واتخذت الأولى موقف الدفاع بعد الهجوم.

وأراد ياقوت أن ينقض بسفينة سنان ليساعد سفنه تلك، ولكن سنان أشار إلى المعركة التي بالجانب الشرقي ونصح بنجدة السفن المشتبكة فيها، حتى إذا ضمنا لها الإنتصار عادا فأنجدا السفن الأخرى. وكاد ياقوت يعمل بهذه النصيحة وإذا به يرى ثلاث سفن تركية كان قد حسبها ضائعة، تخرج من عند رأس مولا، وهي تسرع نحو زميلاتها. ففرح بذلك وحمد الله وقال لسنان:

– لقد صارت سفننا أكثر عددًا من سفن الأعداء.

غير أن سنان بين له أن هذه السفن الثلاث قد أسرها العدو فهي الآن في قبضته وقد جاءت لنجدة السفن الأخرى، وعلى مجاذيفها ملاحوها الأولون بعد أن أصبحوا أسرى في أيدي العدو.

وعندئذ فقد ياقوت الأمل، ولكنه لم يفقد شجاعته، كما لم يفقدها قط من قبل. وجرد سيفه وأراد أن يهجم على الأعداء ليستشهد وسط القتال. ولكن سنان الحصيف قال له: «أتريد تحطيم نفسك دون جدوى؟».

فرد عليه ياقوت: «لا بأس هيا بنا... سود الله وجهك».

وتحركت مجاديف السفينة «جميل» واستدارت نحو الجنوب. ولما رأت ذلك البقية الباقية من أتباع ياقوت الذين كانوا لا يزالون يقاتلون، لم يجدوا مفرًا من التسليم.

الخديعة

وحوالي ظهر ذلك اليوم استطاع بروسبيرو أن يحصى نتائج تلك المعركة.. لقد دخلها بأربع عشرة سفينة وخرج منها بست وعشرين. وقد فقد سفينة واحدة في حين استولى على ثلاث عشرة. وقد حرر مئات الأسرى واستولى على الغنائم التي أخذت من بالما.

وكان أهل جزيرة مينوركا قد شهدوا القتال من أعلى الصخور فهرعوا إلى رصيف ميناء ماهون يرحبون بمنقذيهم. وأقام الحاكم الأسباني مأدبة لبروسبيرو وضباطه، بينما احتفل الأهالي بالجنود وقدموا لهم الطعام والشراب والهدايا.. واحتفلت الكنائس بهذا النصر فدقت فيها الأجراس ورتلت الأناشيد. وبقى أسطول نابولي ثلاثة أيام في ثغر ماهون ينعم بتلك الضيافة والكرم ثم رفع مراسيه.

وفي اليوم نفسه غادرت مينوركا سفينة تحمل خطابين من الحاكم والأسقف إلى الإمبراطور في برشلونة، وقد وصفا له في خطابيهما النصر الذي أحرزه أسطول نابولي، تحت قيادة بروسبيرو، وذلك بأسلوب يزيد ذلك النصر عظمة.

وقد حث دون ألفارو صديقه بروسبيرو على التوجه توا إلى برشلونة لمقابلة الإمبراطور، ولكن بروسبيرو قال له: «هناك سيدة تنتظرني في نابولي.. ولست بحاجة لأن أقدم تقريري عن المعركة بنفسي، ويمكنني أن أرسله» ثم جلس وكتب إلى الإمبراطور يقول:

«لقد نجح القرصان الريس ياقوت في الفرار من الفخ الذي حصره فيه الأميرال دوق ملفي منذ شهر تقريبًا، غير أنه لم ينجح في الخلاص من الشبكة الواسعة التي نصبها له الأميرال منذ شرع في حملته من جنوا.. وبينما أخذ الأميرال يراقب الجانب الشرقي من البحر الأبيض المتوسط كان على أن أراقب الجانب الغربي منه بأسطول نابولي الذي أعيدت إلى قيادته أخيرًا. وكان من حسن حظي أن ألتقي بأسطول القرصان في ثغر ماهون

وأن أحطمه تمامًا، طبقًا للخطة التي وضعها الأميرال».

وأطلع بروسبيرو صديقه دون ألفارو على هذا الخطاب كيلا يكتب ما يناقضه. فدهش هذا أيما دهشة وقال له: «إن هذا كذب... ما شأن دوريا بذلك كله؟»».

فرد بروسبيرو قائلًا: «ألم يكن غرض دوريا من حملته أن يقضي على أسطول ياقوت؟. وهل ليس صحيحًا أنه يحرس الجانب الشرقي من البحر، وأن سفن نابولي هي جزء من أسطوله؟»».

– ولكن لماذا تحرم نفسك فخر هذا النصر الذي تستحق من أجله أرفع الأوسمة؟

– لكي أسدد دين شرف علي.

– إن الذي أعرفه أن الدين القائم بينك وبين دوريا هو من نوع آخر؟

– إنك لا تعرف الظروف كلها... والآن أرجو أن تقرني على ما كتبت ولا تذكر شيئًا ينقص من قيمة دوريا عند الإمبراطور.

–كما تشاء يا صديقى.. ولكني كذلك لن أغمطك حقك.

وقبل أسبوعين من ذلك كان الإمبراطور قد جاء إلى برشلونة وفي نيته أن يسافر إلى إيطاليا ليهنيء دوريا على أسره ياقوت وأسطوله في جربة... وكان ذلك بناء على التقرير الذي أرسله دوريا إليه قبل أوانه.. ولكن في اليوم الذي حدده الإمبراطور السفرة جاءت أنباء الغارات التي شنها ياقوت على الجزر والموانيء وما استولى عليه من أسرى وغنائم، فاستشاط الإمبراطور غضبًا وفقد ثقته بدوريا. وكان المركيز دل فاستو في حاشيته وكان لا يزال حزينًا على صديقه بروسبيرو أدورنو ويحسبه لقى مصرعه.. فذكر للإمبراطور ما كان من مسلك دوريا نحو بروسبيرو في شرشل، وتحدث صراحة عن حقيقة معركة «غلطة» والفخر الذي حازه أندريا من تلك المعركة مع أنه كان من حق بروسبيرو. وزاد في غضب الإمبراطور على دوريا ما ورد من أنباء غارة ياقوت على ماجوركا التي تعد باب أسبانيا.

وقد لام الإمبراطور نفسه إذ كان هو الذي اختار الأميرال أندريا دوريا لمنصب

القائد الأعلى لقواته البحرية في البحر الأبيض المتوسط، ولم يبال وقتئذ إعتراض الكثير من القواد الأسبانيين.

وهكذا عدل الإمبراطور عن رحلته إلى إيطاليا، ولم يلبث قليلًا حتى تسلم خطاب بروسبيرو السالف الذكر، ومعه خطاب حاكم مينوركا.. ولا شك أن بروسبيرو كان له دخل في صياغته فقد ورد فيه ما يأتى:

«إن هذا النصر الباهر هو من عمل سفن نابولي، تحت قيادة السيد بروسبيرو أدورنو، الذي هو أقدر ضباط القائد الأعلى للقوات البحرية من قبل جلالتكم، ونحن أهالي هذه الجزيرة نثني لدى جلالتكم على دوق ملفي وعلى السيد بروسبيرو الشجاع، إذ لهما الفضل في انقاذ مينوركا وإصلاح كثير من الضرر الذي أصاب ماجوركا».

وقد أعاد هذان الخطابان ثقة الإمبراطور بالأميرال، وثقته بنفسه من حيث حسن اختيار قواده. وفي اليوم الذي جرت فيه معركة رأس مولا، أرسل أمير أورانج ونائب الملك في نابولي، رسولًا إلى الأميرال دوريا عند خليج جربة يسأله عما يبقيه هناك، وقد عجب الأميرال من هذا السؤال وقال للرسول:

«ألم تصل إلى الأمير رسالته التي طلبت فيها مددًا من الجنود والذخيرة؟».

فقال له الضابط للرسول: «لقد وصلت يا سيدى منذ ثلاثة أسابيع حين كان ياقوت وأسطوله محبوسين في هذا الخليج، ولكنه الآن ليس موجودًا فيه».

وهنا قال فيلبينو للرسول ساخرًا: «ماذا تقول؟ أيمكنك أن تخبرنا أين أسطول ياقوت فيه».

فأجاب الرسول بلهجة الجد: «لا أدري أين هو الآن، ولكنه بالتأكيد ليس في خليج جربة».

فقال الأميرال: «ليس في خليج جربة؟.. لا شك أنك جننت».

وضحك جيانتنيو وقال مشيرًا إلى داخل الخليج: أن أسطول ياقوت محبوس هنا...

في المصيدة».

وقال فلبينو: «أنت حقًا مبعوث نائب الملك أم أنت مبعوث زائف؟».

فرد الضابط قائلًا: «معي وثائق تدل على شخصيتي... والواقع أن ياقوت قد غادر جربة منذ عشرة أيام».

وعندئذ زاد ارتياب الأميرال في هذا الضابط وطلب منه الأوراق التي تثبت شخصيته فأعطاه إياها.. ولما استوثق منها شعر بساقيه تخذلانه فجلس على مقعد. وعرض جيانتينو عليه أن يذهب إلى جربة ويتحقق مما قاله الرسول من خروج أسطول ياقوت. وذهب جيانتينو إلى جربة حيث تحقق ألا أثر لأية سفينة في ذلك الخليج.. ثم علم من شيخ جربة أن ياقوت حفر قناة خرج منها الأسطول إلي عرض البحر وأن ذلك كان بإرشاد شاب من الإفرنج وتحت إشرافه، ثم أراه تلك الفتاة. فأدرك جيانتينو أن ذلك الشاب هو بروسبيرو ولا ريب وعاد ينبيء عمه الأميرال بذلك ويقول له: «إننا نستحق ذلك منه. ولو أني تركت وشأني معه لما حدث ذلك».

ثم سأله الأميرال: «كيف لم يصل إلينا أي نبأ عن ذلك طول هذه المدة؟».

فقال جيانتينو: «لقد ذكر لي شيخ جربة أن ذلك الشاب الإفرنجي حرق أو أغرق كل زورق قبل أن يخرج أسطول ياقوت من جربة».

معجزات الحب

عاد بروسبيرو بسفنه عن طريق خليج ليون، ولما وصل إلى مرسيليا أرسل إلى جيانا يدعوها إلى ملاقاته في جنوا وقال لها في خطابه الذي بعث به بالبريد البحري:

«ما دمت يا حبيبتي جيانا لا أنوي أن نبقى في المنفى إلى الأبد، فإني أرى أن الظرف الحاضر هو أحسن الظروف الموائمة لعودتنا، وإني لأذكر حسن إستقبال مواطنى إياى بعد معركة بروسيدا، وكيف أن أعدائى وقتئذ إضطروا إلى أن يعيدوا خناجرهم إلى أغمادها بعد إذ كانوا قد شحذوها لي. وأعتقد الآن أني سألقى مثل ذلك الترحيب من الأهالي حين أدخل الميناء ومعي أربع عشرة سفينة أسرتها من أسطول القرصان وثلاثة آلاف أسير، فضلا عن الأسرى الذين حررتهم ومن بينهم ألف على الاقل من أهالي جنوا.. ومعي فوق كل شيء فخر تحطيم الأسطول الذي كان يهدد شواطئنا وثغورنا. وأحسب أن ألد أعدائي سيخشى عندئذ قوة الرأي العام التي ستكون في صفي، فأرجو يا جيانا أن تسرعي للقائي لكى نجمع شملنا أخيرًا وأضع هذا النصر الذي أحرزته تحت قدميك، وسيمدك سمو أمير أورانج بحرس في سفرك وبكل ماتحتاجين اليه».

وفي الوقت نفسه أرسل إلى نائب الملك تقريرًا عن المعركة التي جرت، وقد صاغه بأسلوب متواضع. ولكن دون ألفارو دى كارباجال كتب إلى ذلك الأمير في الوقت نفسه خطابا يبين فيه تفصيل تلك المعركة، وفضل بروسبيرو في نتيجتها الحاسمة.

ونزل خطاب بروسبيرو إلى جيانا بردًا وسلامًا على قلبها، وأيقنت أنه بانتصاره في حربه قد محا كل أثر لتصرفه في جربة. غير أنها من جهة أخرى أدركت أن هذا الانتصار سيزيد أعداءه حقدًا عليه، وأنهم سوف يتربصون به الدوائر، وعلى ذلك سافرت توا إلى جنوا لتكون بجانبه إذا كانت ثمة صعاب تواجهه.

وقد دلت الحوادث على أنه أحسن اختيار الظروف للعودة إلى وطنه، إذ كان قد

وصل إلى جنوا نبأ معركة «لامولا» وتحطيم أسطول ياقوت. بل قيل أن سيف الإسلام قتل في تلك المعركة وكان بروسبيرو نفسه يعتقد ذلك. وقد ذاع اسم بروسبيرو في كل ثغر على شاطيء البحر الأبيض المتوسط، إذ أصبح الأهلون آمنين على أنفسهم خطر الغارات المفاجئة.

ولما علم أهالى جنوا بقدوم بروسبيرو إليهم، أعدوا له استقبالًا هائلًا، ونصبوا له قوس نصر عند «باب البقرة» على الميناء. ولما نزل من سفينته حيته الطبول والابواق، وكان طريق الميناء الذي يمر به مفروشًا بالأزهار وغصون الشجر. ووقف رئيس الجمهورية على الرصيف مع أعضاء مجلس الشيوخ لابسين معاطفهم القرمزية ومعهم ممثلو الأسر الكبيرة في الجمهورية. وقد أناب هؤلاء عنهم فتاة صغيرة من بيت جريماني فألقت قصيدة ترحيب، وقد إستمع إليها القائد الشاعر، برغم ما بها من شعر ضعيف.

وكان طول الوقت يضحك في سره إذ قارن بين هذا الاستقبال الذي أعد له عند عودته إلى جنوا، وبين فراره منها منذ شهرين اثنين.. فإذ ذاك كان كل إنسان ضده، لا آل دوريا وحدهم بل أقاربه من بيت أدورنو كذلك.. أما الآن فإن كل يد مبسوطة للترحيب به.

وفي الوقت نفسه، كان الأميرال اندريا دوريا، أو دوق ملفى، قد وصل بأسطوله إلى نابولي. فلم تكن في استقباله أبواق ولا طبول ولا أزهار.. ولا رؤساء أسر ولا جمهور.. وإنما إستقبله نائب الملك، أمير أورانج، في غرفة الاستقبال بقلعة نوفو، ولم يتنازل وينتظره على لسان البحر حيث رسا الأسطول.

ومضى الأميرال وابنة أخويه جيانتينو وفلبينو، مقطبين جباههم لعدم اتباع المراسم الواجبة في استقبال القائد الأعلى للقوات البحرية.. وكانوا قد أفاقوا من الصدمة التي أصابتهم حين علموا بنجاة أسطول ياقوت من خليج جربة، وحسبوا أنه مازال في الإمكان إصلاح ذلك الخطأ، فما دام ياقوت يجوب البحر بنفسه فقد يمكن صيده في المستقبل.

وقال فيلبينو الداهية لعمه الأميرال قبل وصولهم إلى نابولي: «ما علينا إلا أن تعلن

ما كان من خيانة بروسبيرو وإرشاده ياقوت إلى طريق الخلاص، وعندئذ ينتهي أمره وأمر بيت أدورنو إلى الأبد. ولا ريب أن بروسبيرو ستقع على عاتقه تبعة الغارات التي شنها ياقوت بعد فراره من خليج جربة، فيكون جزاؤه الشنق لا محالة».

فلم يقابل الأميرال هذا الرأي بحماسة بل قال لابن أخيه: «لقد لحظت أن كل عمل تأتيه ضد هذا الوغد،لا يلبث حتي ينقلب وبالا علينا».

فرد جيانتينو قائلًا: «لن يكون العمل من جانبنا هذه المرة، بل سيكون عمل الإمبراطور.. إن العدالة ستقتص أخيرًا من هذا المجرم».

فمسح الدوق جبينه بيده ثم قال: «قد يكون ذلك.. ولكني أخشى أن يكون باعث ألم لجياننا».

فقال فيلبينو: «يجب أن تحصد ثمرة خيانتها».

وقال جيانتينو: «لعلك تريد إنقاذ بروسبيرو بأخذ الملامة على نفسك عن كل ما حدث في جربة؟».

فرد الأميرال بصوت كزئير الأسد: «حين أغرق أسطول ياقوت لن يكون ثمة داع إلي السخرية بنا».

وكان الأميرال قد اطمأن إلي هذا الأمل، وبه جاء إلى نابولي، فلما بلغها عائدًا بأسطوله من جربة، قادة ضابط إلى حضرة نائب الملك، ومشي وراءه جيانتينيو وفيلبينيو.. وكان الأميرال جالسًا إلى منضدة، فوضع القلم وقام لتحية الأميرال ولكنه لم يغادر موضعه، ولم يمد يد الترحاب، وكان مسلكه نحوه فاترًا، بل قال له: «لقد جئت أخيرًا.. لقد قضيت فترة طويلة من الوقت في الطريق».

فساءت الأميرال هذه اللهجة ورد قائلًا: «من اليسير علي رجال البر الذين لا يعرفون شيئًا عن البحر وأخطاره، أن ينتقدوا رجلًا من رجال البحار.. لقد كانت الريح ضدنا فاضطررنا إلى الاعتماد على المجاذيف وحدها. ومع ذلك قد أسرعنا قدر إمكاننا».

فرد الأمير بجفاء: «لقد أسرعتم.. كما أرى».

وساءه عدم مراعاة الأميرال في رده لمقامه، فجلس دون أن يدعوه إلى الجلوس، ثم قال له: «كيف تفسر الحوادث التي وقعت في جربة؟».

– لقد كانت نتيجة الخيانة، فقد خدعتنا حيلة خائن لم يتورع عن أن يدل ياقوت على طريق الإفلات من الفن الذي حبسه فيه.. لقد ساعد بروسبيرو أدورنو أعداءنا، وسوف يسأل أمام العدالة عن الأضرار التي حدثت بعد ذلك للجزر والثغور.

وسواء أكان الأمير متأثرا بمسلك الدوق نحوه، أم بصداقته لبروسبيرو وعلمه بما حدث في جربة، فإنه سأل الأميرال قائلًا: «ما برهان على ذلك؟».

فحملق الأميرال دهشة وقال :«برهانى ؟تكفي كلمتي».

–كلمتك؟ إنها في نظري ليست سوى وجهة نظر لا أكثر.. هل كنت في بلدة جربة نفسها حتى يمكنك أن تقسم على أن بروسبيرو أدورنو كانت له يد في الخطة التي أدت إلى هزيمتك؟ لقد كان مع ياقوت بوصفه أسيرا له.. وهذا كل ما يمكنك أن تؤكده.

وهنا انفجر جيانتينو قائلًا: «لقد كنت أنا في جرية.. وقد أكد لي شيخ هذه البلدة أن بروسبيرو أدورنو هو الذي دل ياقوت على طريقة للخروج من الخليج».

فابتسم أمير أورانج وقال: «شيخ جربة؟. وهل يصلح شخص من الأعداء شاهدًا أمام محكمة ضد ضابط معروف بمقدرته؟».

فقال فيليبينو بشدة: «بل ضد خائن معروف بخيانته، وإذا أردت شهودًا من الإيطاليين فهناك الأسرى الذين كانوا يعملون تحت إشراف ذلك الخائن».

فقال نائب الملك متعجبا: «أين نجدهم؟».

فرد جيانتينو قائلًا: «أترتاب في أقوالنا يا صاحب السمو؟ أم أنك تدافع عن ذلك الرجل؟

– إني أنصح لكم بأن تسيروا بحذر... فإنكم لن تحسنوا موقفكم بإلقاء اللوم على

عاتق بروسبيرو أدورنو. وسواء أكان هو الذي خدعكم أم ياقوت، فقد خدعتم على أي حال.. وهذا هو المهم.

ولم يقدر الأميرال أن يصبر على هذا القول، فرفع رأسه وقال: «سأقدم تقريري إلى جلالة الإمبراطور».

– طبعا ستقدم تقريرك إلى جلالته، ولكني أنصح لك مرة أخرى بأن تكون حذرًا فيما تكتبه.

فرد الأميرال بجفاء: «أشكر لسموكم هذه النصيحة».

فقال له الأمير: «هذا كل ما في الأمر على ما أعتقد، ولست أجد سببا لبقائك في نابولي.. اللهم إلا إذا كانت هذه رغبتك».

فقال الأميرال: «ليس لدي متسع من الوقت أضيعه هنا. وكل ما أريده هو معاودة البحث عن ياقوت وأسطوله».

وأراد أمير أورانج أن يضرب الضربة القاضية فقال له: «إذن أطلعك على آخر أنباء ياقوت.. لقد هاجم جزر البليار التي هي على عتبة باب الامبراطور. ووصل نبأ غاراته إلى جلالته في الوقت الذي وصل إليه تقريرك بأنك حبسته مع أسطوله في خليج جربة وأن تحطيم ذلك الأسطول بات قاب قوسين أو أدنى. فتصور يا سيدي الدوق شعور الإمبراطور عند ذلك».

فهز الأميرال قبضته متوعدًا وقال :«سوف أنتقم من ياقوت وأحطم أسطوله حيث يكون».

ثم أردف قائلًا: «ألم يصل نبأ عن مكانه الآن؟».

فابتسم الأمير وقال: «مكانه الآن في قاع البحر... فقد قضى بروسبيرو أدورنو عليه وعلى أسطوله عند ثغر ماهون».

وهنا ذهل الأميرال وابنا أخويه، وسكتوا وكأن على رؤوسهم الطير.. ثم قال

الأميرال: «إذا كان هذا صحيحًا». ثم سكت ولم يتم عبارته، بينما إستطرد نائب الملك قائلًا: «أنه صحيح لا شك فيه».

ثم ذكر للأميرال ورفيقيه تفاصيل المعركة.. ولكن الأميرال كان لا يكاد يستمع إليه إذ كانت حواسه قد أصابها ما يشبه الشلل.. وقد أدرك أن أمله الأخير قد ضاع، ولم تبق هناك فرصة للبحث عن أسطول ياقوت ومحاولة القضاء عليه لإسترداد المكانة التي فقدها. وقام من مقعده ولم يجد ما يقوله.. فقال له الأمير: «أرجو لكم سفرا سعيدًا».

عاد الأميرال إلى سفينة القيادة مع ابني أخويه، وهو يسائل نفسه عما ينبغي له عمله. وقد سأل ابني أخويه جيانتينيو وفيليبينو، فلم يحيرا جوابًا ولكنهما عادا إلى ابداء حقدهما على بروسبيرو إذ كان الأصل فيما حدث أولًا وأخيرًا، وهو وحده الذي ضيع مكانة الأميرال وجعله موضع السخرية.

وأخيرًا وصلوا إلى جنوا، غير أنهم نزلوا عند قلعة ليريسي، ومن ثم ركبوا الجياد إلى المدينة. وقد فزعت دوقة ملفي من عودة قرينها هكذا فجأة، ومن غير أن يستقبل الإستقبال اللائق بمكانته. فقالت له بعطف: «لقد أجهدتك الرحلة».

فجلس على كرسي مطأطئ الرأس وقال لها: «إني متعب حقًا».

فأمسكت يديه بين يديها وقالت له: «من أين جئت الآن يا أندريا؟».

—من ليرسي.. وقد تركت سفني هناك.

—لاشك أنك أسرعت إلى هنا لكي تراني.

فابتسم إبتسامه حزينه وقال: «يا ليت الأمر كان كذلك.. إنما جئت مجللًا بالعار، وتفاديت الناس في جنوا فرارًا من سخريتهم».

—سخريتهم؟ كيف ذلك؟ إن الذي أعلمه أن المركيز دل فاستو هو الآن في جنوا ينتظر عودتك».

—آه.. هكذا بسرعه؟

فقالت له: «إنهم يقولون أن الإمبراطور لا يتأخر عن منح دلائل التكريم لمن يستحقها».

–أجل لمن يستحقها.. وأين دل فاستو الآن؟

–إنه في قصر أدورنو حيث يقيم مع صديقه بروسبيرو.

فابتسم الأميرال ابتسامه مغتصبه وقال: «طبعا.. هذا هو المنتظر.. وأين جيانا؟».

– إنها قد حضرت إلى هنا وهى معي في القصر.. لعلك سمعت بتصاريف القدر العجيبه إذ أبحرت مع بروسبيرو وما حدث لهما بعد ذلك. وبالطبع قد صارت هنا شائعات وجري حديث الإفك عنهما، ولكن ذلك كله قد انقضى الآن.. ولم يؤخر عقد قرآنهما سوى انتظار عودتك».

فقال الأميرال: «أجل لقد أصبح ذلك ضرورة لازمة حتى يسلم شرفها مما أصابه».

– ليس هذا جميلًا منك يا أندريا.. إنك لا تعرف الحقائق ولا تدرى كيف آن به «لامبا» حاول اغتيال بروسبيرو.

– أجل. .كل ذلك لا يهم الآن.

واستطردت الدوقة قائلة: «إن الفضل لطفلتنا العزيزة فيما إنتهى إليه الأمر.. يا ليتها عادت مبكرة لترى كيف استقبل بروسبيرو هنا».

فقال الأميرال بلهجة صارمة: «إذن.. قد انتهى كل شيء إلى نهاية سعيدة؟ وصار هذا البروسبيرو ذا مكانة عالية واستقبل استقبال الأبطال؟ حسنا.. حسنا».

ثم قصت عليه كيف استقبل بروسبيرو بالتفصيل. وجلس يستمع وقد غطي وجهه بكفيه. وبعدئذ أمرت بإعداد طعام العشاء، وقامت هي على خدمته وهو يأكل. وقد أكل قليلًا وبطريقة آلية ولكنه شرب كثيرًا من النبيذ اليوناني الذي كانت تصبة له في كأسه. وبعدئذ طلبت إليه أن يقص عليها ما حدث له وقالت: «لقد سمعت بالنصر العظيم الذي أحرزته في مهدية، وإنك كنت في إثر ياقوت ولكنا لم نسمع عنك شيئًا من

إنبائك بعد ذلك».

وبقي ساكتًا برهة، ثم قال لها: «سأقول لك كل شيء غدًا.. وسوف تسمعي كل شيء من الفونسو دي أفالوس مبعوث الأمبراطور.

والآن أرسلي إليه لتنبيئه بأني أنتظر تشريفه غدًا».

وفي صباح اليوم التالي، توجه رسول دوريا إلي دل فاستو حيث كان يتناول طعام الفطور مع بروسبيرو في حديقة قصر آل أدورنو، وكان معهما دون الفارو دى كارباجال. وكانت مادونا اوريليا (والدة بروسبيرو) لحسن الحظ خارج جنوا إذ كانت في بيت الأسرة الريفي في «فردبراتى» حيث ذهبت فرارًا من حر أغسطس.

وكان دل فاستر قد وصل إلى جنوا حاملًا خطابات من الإمبراطور قبل يوم أو يومين من قدوم بروسبيرو، وكان يعرف نص الخطابات التي جاء بها فأخبر بروسبيرو بما تحتويه. فلما سمع ذلك دون ألفارو قهقه ضاحكًا.. فقال له المركيز: «لا أدري ماذا يضحكك؟».

فرد دون ألفارو قائلًا: «لا شك أنك أدركت خافية الأمر.. أن الإمبراطور قد تبين له خطأه في اختيار دوريا قائدًا عامًا لقواته البحرية... ولكنه كره أن يؤخذ عليه خطأ في إختيار كبار قواده... وكان تواقا إلى أن ينسب النصر في معركة لامولا إلى دوريا، فإن جلالته إذ يستعيد ثقته به إنما يستعيد ثقته بنفسه، ولكن أيصح أن ينال من حق بروسبيرو هكذا؟

فقال المركيز: «إن بروسبيرو هو الذي كتب في تقريره أن تلك المعركة جرت وفق الخطة التي وضعها دوريا».

فصاح دون ألفارو قائلًا: «ألم أحضر أنا نفسي تلك المعركة؟.. ألا أدري ما حدث تمامًا؟.. لقد حان الوقت لأن يرى الإمبراطور حقيقة قيمة هذا الأميرال الذي فضله على كثير من القواد الإسبانيين».

وهنا قال المركيز: «لقد جئت المهمة أؤديها من قبل الإمبراطور، وليس لي أن أناقش

في هذه المهمة، إنها تشمل منحك أنت يا بروسبيرو وسام صليب سانت جيمس، على أن يعلقة دوق ملفى بعنقك باسم الإمبراطور.. ولكن نظرًا إلى ما حدث يمكنك أن ترفض أن يلبسك اياه».

فقال دون ألفارو: «وهذا حق».

ولكن بروسبيرو تدخل قائلًا: «لو أن هذا قصدى ما كتبت ذلك التقرير إلى الإمبراطور.. كيف أبيح لنفسي الآن أن أسيء إلى الإمبراطور بتحقير القائد الذي وضع فيه ثقته؟ وما فائدتي من ذلك؟.. على أنه من الخطأ أن نظن أن دوريا سيقبل تكريمًا لنفسه على عمل لم تكن له فيه يد.. ولابد من اقناعه حتى يقبل».

ولكن دون ألفارو سخر من ذلك ولم يصدقه.

وكان رسول دوريا إلى دل فاستو يستمع إلى ذلك، ولما انتهى دل فاستو من حديثه قال للرسول إنه سيذهب إلى قصر فاسولو بعد ساعة حيث هناك الأميرال دوريا وقال له بروسبيرو:

- إني أستأذنك في أن أصحبك.. فقال له: «لست بحاجة إلى إذن مني لذلك».

وقال دون ألفارو: «وددت لو ذهبت معكما». فدعاه بروسبيرو إلى مصاحبتهما في تلك الزيارة.

واستقبلهم دوق ملفي في قاعة الإستقبال الكبرى. وفوجيء بقدوم بروسبيرو إذ لم يكن يتوقع مجيئه. وكان مع الأميرال ابنا أخويه جيانتينو وفلبينيو. وقد وقف معتدل القامة مرفوع الرأس. بينما مد جيانتينو يده متخاذلة إلى بروسبيرو، وزمجر فلبينيو بصوت كأنه صوت حيوان فلم يفهم أحد الكلمة التي نطق بها.

وإنحنى المركيز للدوق وقال له: «أني أحييك يا دوق باسم الامبراطور. وقد أحضرت لك هذه».

ثم سلمه ربطة مختومة بخاتم الإمبراطور.. فتناولها الأميرال بطريقة آلية ولكنه لم ينظر

إليها ولا إلى المركيز، وإنما كان يحملق في بروسبيرو، وكان هذا واقفًا إلى جوار دون ألفارو والعملاق. ثم قال للمركيز:

– لم أكن أتوقع أن تجيء وبصحبتك أحد.

فقال له المركيز: «بعد أن تقرأ كتاب الإمبراطور ستعرف السبب الذي جاء من أجلة السيد بروسبيرو».

فلم يزد الأميرال على أن قال: «أهكذا الأمر؟». ثم فض خاتم الربطة فسقط منها سيف صغير مطعم بالعقيق وقد ربط به شريط من حرير أحمر. وانحنى جيانتينو فالتقطه من الأرض في حين أخذ الأميرال يقرأ الخطاب، وكان يتنفس بصوت مسموع في خلال قراءته، حتى إذا إنتهى منه قال للمركيز: «أعرفت ما جاء بهذا الخطاب؟ إن صاحب الجلالة يشرفني بثقته.. ولكن أتصدق ما هو مكتوب؟».

فقال الركيز: «كيف لا أصدق كلام الإمبراطور؟».

– ولكن هل جلالته يعتقد ذلك حقا؟

ثم أعطى الأميرال ذلك الخطاب إلى جيانتينو، فأخذ هذا يقرؤه مع فيلبينو.. ثم تقدم الأميرال خطوة نحو المركيز، وكان معتدل القامة صارم الوجه وقال له: «لابد أن هناك التباسًا».

وهنا تدخل بروسبيرو وقال للمركيز: «أرجو أن تسمح لي بأن أحدث الأميرال لحظة على انفراد».

فقال له دوريا: «تحدثنى أنا؟ وماذا يمكنك أن تقوله؟».

ثم انتحى به بروسبيرو جانبًا فقال له الأميرال: «ماذا تريد مني؟. لعلك تنتهز هذه الفرصة لتسخر مني بعد أن أفسدت على كل شيء... أهذا قصدك؟ لقد جلبت على الذل والعار. ألا يرضيك هذا؟».

– إنك تذكر الذل والعار مع أن كتاب الإمبراطور إليك ليس فيه إلا التكريم

والتشريف.

– لقد قلت أن هناك التباسًا..

فقال بروسبيرو: إن كثيرًا من شئون الحياة يكتنفها الأسى، ولكنها مع ذلك تسير في طريقها.. كل ما حدث بيننا إنما هو وليد التباس بعد التباس».

وكان فيلبينو على مقربة منهما فقال: «لم يكن هناك التباس فيما يتعلق بغدرك وخيانتك.

فرد عليه بروسيبرو قائلًا: «وكذلك فيما يتعلق بحقدك المستمر.. ولكني الآن أحدث عمك.. إن هذا القتال الذي بيننا قد استمر أكثر مما يجب».

فقال الأميرال ساخرًا: «إنك تقول ذلك لأنك تعتقد أنك خرجت منه منتصرًا».

– فليكن ذلك إذا شئت.. لقد أقسمت على نعش أبي يمين الإنتقام.. وجدد فيلبينو قسمي هذا حين جعلني أسيرًا أكدح على مجذاف.. ولكن ذلك كله قد انتهى الآن.

فقال الأميرال: «والآن قد أوفيت بعهدك وانتقمت، وصرت أنا أضحوكة العالم». وقضيت على مجد كسبته لنفسي في خلال ستين سنة. فلتهنأ بذلك يا سيد بروسبيرو.. إن هذه السخرية قد طالت أكثر مما يجب».

وهنا تقدم جيانتينو وهو يخلع قفازه فأشار اليه بروسبيرو منذرًا وقال له: أريد أن أقول لك كلمة قبل أن تخلع هذا القفاز.. لا تنس أن العالم يجهل كل ما حدث بيننا.. والدليل على ذلك هو هذا الكتاب من الإمبراطور.. وجنوا الآن تنتظر بحماسة لتحتفي بالأميرال الذي هو موضع تشريف الإمبراطور، ومن الذي يقدر أن يقول للعالم كله أني لم أكن أعمل وفق أوامرك حين انتصرت على ياقوت في ثغر ماهون؟ ربما لا يعلم ذلك سوى أمير أورانج ودون ألفارو دى كارباجال، ولكن أيجرؤان أن يذكرا للإمبراطور أنك أخطات إذا سكت أنا؟».

فقال الأميرال مندهشا: «إذا سكت؟».

وقال جيانتينو: «لكأني بك تريد أن تساومنا».

وقال له فيليبينو: «أجل.. يخيل إلي أن لديك ما تبيعنا اياه».

فرد بروسبيرو قائلًا: «بل لدى شيء أعطيه.. وقد أعطيته فعلًا.. لا شك أنكم لم تقرأوا خطاب الإمبراطور جيدًا.. أنه يذكر فيه أنه علم من تقرير الكابتن بروسبيرو أدورنو أنه بناء على الخطة التي وضعها الأميرال أندريا دوريا قد أمكن تحطيم أسطول ياقوت إلخ...

أليس هذا ما كتبه الامبراطور؟ وإذا كان قد كتب ذلك فقد كان بناء على ما كتبته أنا في تقريري إليه عن تلك المعركة».

وهنا عاد الأميرال إلى قراءة خطاب الإمبراطور متمهلًا فقرأ فيه ما يلي:

«علمت من رسالة حاكم مينوركا، وعلى الأخص من تقرير بعث به الكابتن بروسبيرو أدورنو الذي قاد سفن نابولي التابعة للأسطول الذي تحت قيادتكم، أنه بناء على الخطة التي وضعتموها قام الكابتن بروسبيرو آدورنو بنصيبه منها خير قيام، فقد أمكن تدمر أسطول ياقوت.. إلخ».

ولم يقرأ الأميرال أكثر من ذلك وقال غاضبًا: «أتريد مني أن أحتمى وراء تقرير منك؟ هل أنا أقبل منك رداء لأستر به جسدي العاري؟ وهل أنا الذي أقبل ثناء على عمل لم أعمله؟ رباه .. كيف تجرؤ أن تقف أمامي في هدوء وتعرض على ذلك؟ إن لدي الجواب المناسب على هذا الخطاب، وقد كتبته الليلة الماضية. وليس ذلك الجواب سوى إستقالتي من منصبي وقد بينت فيها ما حدث في جربة دون أن أخفي شيئا.. وهذه الاستقالة هي ختام خدمة طويلة إكتنفها المجد، ثم قضت عليها الخيانة التي مبعثها حب الإنتقام، إذ أنقذت ياقوت من المصيدة التي حبسته فيها، لكي يغير بعد ذلك على الثغور والجزر الآمنة».

فقال له بروسبيرو في هدوء: «هل هذا ما تعتقده.. هل فعلت أنا ما فعلت في جربة

مدفوعًا بالرغبة في الانتقام منك؟».

– لم أكن أقصد مطلقًا بما فعلت .. هل نسيت أن جيانا كانت أسيرة معي في قبضة ياقوت؟ لقد أتيحت لك فرصة إنقاذها ولكنك أبيت.

– أتلومني على ذلك؟ لقد أنقذتها أنت.. وبأي ثمن؟ إن الثمن هو غارات ياقوت على كورسيكا ثم ماجوركا.. كم من الأنفس راحت ضحية لإنقاذ جيانا؟ وكيف كنت أقبل إنقاذها بهذا الثمن.

– إن جيانا بالنسبة لك ليست كما هي بالنسبة لي .. بل إنها في الواقع ليست من ذوي قرباك. وما كان يمكنني أن أتوقع أن ياقوت سيقوم بتلك الغارات بعد رحيله عن «جربة».. فقد قال لي أنه ذاهب بأسطوله إلى إستانبول ليلحق بخير الدين بربروسا.. ولعله غير قصده بعد ذلك.. وما كان يمكنك أن تأسره حتى لو كنت قد إستوليت على سفنه.

ثم ذكر له كيف أراد ياقوت أن يسير بأتباعه برا إلى الجزائر، إلى أن قال له: «وعندئذ كنت أذهب معه ضمن الأسرى، بينما ترسل جيانا إلى استانبول لتضم إلى جواري السلطان.. فهل كان يمكنني أن أصبر على ذلك؟ تصور نفسك في مكاني.. هل كان واجبك نحو الإمبراطور يحول دون إنقاذ جيانا من ذلك المصير؟

وسكت منتظرًا الجواب، فلما لم يجب الأميرال ولا ابنا أخويه.. استطرد قائلًا:

– إني لم أفكر وقتئذ في الانتقام منك، ولا في خيانة واجبي نحو الإمبراطور، وإنما فكرت في شيء واحد هو إنقاذ جيانا.. والآن لعلك توقن إني إذ أعرض عليك الصلح فإنما أعرضه عليك في إخلاص لا تشوبها شائبة.. وفي هذه الحالة تحرق هذه الاستقالة وتستمر في خدمة الإمبراطور.

وأخيرا رد عليه الأميرال قائلًا: «أتظن إني أرضي أن أفيد من ذلك الالتباس الذي وقع فيه الامبراطور؟».

– إذا رفضت ثناء الإمبراطور عليك فإنما تحقره و تهينه، وفي الوقت نفسه تحرمه

خدمات أقدر قائد بحري عنده.. لقد علمت أن خير الدين بربروسا يعد الآن للسلطان سليمان أسطولًا ضخما. ويمكنك أن تتصور الغرض منه. وأوربا كلها لا تعرف غيرك ندا لخير الدين. فهل تفر من الخدمة في هذا الظرف بدافع تقدير كاذب للكرامة؟

وأخيرا انضم جيانتينو وفيلبينو إلى رأى بروسبيرو. بعد إذ إستشفا الإخلاص من كلامه، وكان خطاب الإمبراطور إلى الأميرال شاهد صدق على إخلاصه.

ثم مد بروسبيرو يده إلى الأميرال فصافحه هذا بعطف وحرارة.. وعادوا إلى حيث كان المركيز ينتظرهم في قاعة الاستقبال فقال له الأميرال: «إن من دواعي الشرف لي أن أقلد هذا الضابط الشجاع باسم الإمبراطور وسام صليب سانت جيمس.. ولكن ليس هنا بل يجب أن يكون ذلك في حفل حاشد».

وكانت جيانا مع الدوقة تنتظران على أحر من الجمر عقد الصلح النهائي بين دوريا وأدورنو.. وما لبثتا قليلا حتى دخل عليهما الأميرال اندريا ومعه بروسبيرو، يزفان إليهما البشري ففرحتا فرحًا شديدًا، ونهضت جيانا فعانقت حبيبها عناقًا طويلًا ثم زفت إليه بعد يومين من هذا الصلح، وعاشت الأسرتان في سعادة وهناء. وكان للحب الفضل فيما ساد بينهما من سلام.

الفهرس